

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

الجزء الثاني

ترجمة: سامي الدروبي

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

2

ترجمة: سامي الدروبي



دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

2

ترجمة: سامي الدروبي



لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

الكتاب: **الجريمة والعقاب (2) (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى: 2010

ISBN 978-9953-68-462-6

الناشر: **المركز الثقافي العربي**

بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522303339 ـ 522307651

فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

الجُزءُ الرَّابِعُ

الفصل الأول

تساءل راسكولنيكوف مرة أخرى: «هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمي؟» وأخذ يتفرّس في الزائر غير المتوقع، أخذ يتفرّس فيه محاذراً مرتاباً. ثم قال أخيراً، بصوت عالٍ، وقد استولت عليه حيرة شديدة:

- سفدريجايلوف! ولكن هذا مستحيل، مستحيل.

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر.

- جئت إليك لسببين، أولهما رغبتي في أن أتعرف إليك شخصياً، لأنني أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة. والثاني أنني أتجرأ فآمل أن لا ترفض مساعدتي في أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا. فإنني إذا لم اعتمد إلا على نفسي، ولم يوصِ بي أحد، لا يكون لي أمل كبير في أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلني، لأنها تسيء الظن بي. أما إذا عاونتني أنت...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً:

- لا تعوّل على معاونتي...

- إنهما لم تصلا إلا أمس، أليس كذلك؟

لم يجب راسكولنيكوف.

- وصلتا أمس. أعرف ذلك. وأنا نفسي لم أصل إلا أمس الأول. إليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روديون رومانوفتش. إنني لا أرى داعياً إلى تبرئة نفسي، ولكن أرجو أن تأذن لي بإلقاء هذا السؤال: ما هو الذنب العظيم الذي اقترفته أنا، إذا نحن أردنا أن نحكم في الأمر حكماً سليماً مبرأً من الغرض؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت.

- أليس ذنبي هو أنني لاحقت في بيتي فتاةً لا تملك عن نفسها دفاعاً، وأنني «أسأت إليها بعروض دنيئة»؟ هذا هو ذنبي! أليس كذلك؟ (هأنت ذا ترى أنني أسبق غيري إلى وصف ذنبي)، ولكن أرجو أن تسلِّم معي بأنني أنا أيضاً إنسان، وأنه ما من إنسان[1]، أقصد أنني أنا أيضاً يمكن أن أُفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون إرادتنا). فمتى سلَّمت معي بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شيء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود. إن السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هو السؤال التالي: أأنا شيطان أم ضحية؟ فماذا لو كنت ضحية؟ لعلني حين عرضت على الفتاة التي ألهبت هواي أن تسافر معي إلى أمريكا أو إلى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام، وأنني كنت فوق ذلك أظن أنني أحقق السعادة لنا كلينا! ما العقل إلا خادم الأهواء! وهكذا كنت أسيء إلى نفسي أكثر مما كنت أسيء إليها...

قاطعه راسكولنيكوف يقول باشمئزاز:

- ليست هذه هي المسألة. فسواء أكنتَ مخطئاً أم كنت مصيباً، فأنت تثير الاشمئزاز. لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك، بل أطردك، وما عليك إلا أن تنصرف!

انفجر سفدريجايلوف يقهقه على حين فجأة، ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً:

- يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل. كنت أريد أن أعمد في

معاملتك إلى الحيلة والمكر؛ أما وأنك وضعت إصبعك على النقطة الحساسة، فسوف. . .

- دعك من هذا الكلام! إنك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

فقال سفدريجايلوف مردِّداً وهو يقهقه:

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ ولكن أليست هذه «حرباً مشروعة»[2]؟ أليس هذا مكراً «مسموحاً به»؟. . لكنك قطعت عليَّ طريق الكلام مع ذلك. مهما يكن من أمر، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد، لولا حادث الحديقة. ان مارفا بتروفنا. . .

- مارفا بتروفنا! قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة -. يقال إنك أرسلتها إلى العالم الآخر. . .

هكذا قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة.

فأجاب سفدريجايلوف قائلاً:

- أسمعتَ عن هذا أيضاً؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال؟ أما سؤالك فإنني لا أدري حقاً بم أجيبك عنه، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية. ولا يذهبن بك الظن خاصة إلى أن هناك أي أمر أخشاه. إن كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق: لقد أثبت الفحص الطبي أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة!. . ولم يمكن اكتشاف أي شيء آخر. . . لا، ليس هذا ما يقلقني. ولكنني قد تساءلت طوال الرحلة في القطار: ألمْ أساهم في هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة، بإحداث اضطراب نفسي أو شيء من هذا القبيل؟ على أنني انتهيت إلى أن هذا أيضاً مستحيل.

أخذ راسكولنيكوف يضحك، وقال له:

- هناك ما يدعوك الى القلق حقاً.

- ولكن لماذا تضحك؟ فكِّر قليلاً: إنني لم أضربها بالسوط إلا ضربتين اثنتين. . . ضربتين لم تخلِّفا أثراً. لا تحسبني رجلاً مستخفاً مستهتراً، أرجوك! أنا أعرف أن سلوكي كان دنيئاً، ألخ. ولكنني أعلم أيضاً أن دلائل «الاهتمام» هذه لم تكن تسوء مارفا بتروفنا. كانت مارفا بتروفنا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة إلى أن تقبع في البيت. لقد انتهت قصَّة أختك تماماً ولم يكن قد بقي أي سبب يدعوها إلى الظهور في المدينة، بعد أن أغرقت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً). وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها وكأنهما من السماء. فكان أول همٍّ لها أن تقرن الخيل بالعربة. . . لست في حاجة إلى أن ألفت نظرك إلى أن بعض النساء يشعرن بلذة قوية حين تُلحق بهن إهانة، مهما يكن غضبهن الظاهر منها. بل إن جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف: فالنوع الإنساني يحب الإهانات كثيراً، هل لاحظت هذا؟ ولكن النساء يحببنها حباً خاصاً، حتى ليمكن أن يُقال أنهن لا يمكن أن يعشن بغير إهانات أو إساءات.

خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختم الحديث. ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدَّاه عن ذلك للحظة، فسأل في ذهول:

- هل تحب الضرب كثيراً؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء:

- لا، ليس كثيراً جداً. فأنا ومارفا بتروفنا، مثلاً، لم نكد نتضارب قط. كنا نعيش دائماً في وفاق ووئام، وكانت راضية عني في جميع الأحيان. ولم أعمد إلى استعمال السوط طوال السنين السبع التي عشناها معاً، إلا مرتين اثنتين (هذا إذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة): فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين، أي منذ وصولنا إلى الريف، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم. وأنت تظن مع ذلك

أنني شيطان رجيم، أنني رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية! . . هيء هيء! . . بالمناسبة: هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الرجل النبيل - لقد نسيتُ أنا اسمه! - الذي لُطِّخ بالوحل على مرأى من الناس، منذ بضع سنين، في عهد «النقد المفيد»[3]، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية في قطار؟ هل تتذكر؟ أظن أن ذلك حدث في نفس السنة التي وقعت فيها الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة «العصر»[4] (لا شك في أنك تتذكر المحاضرة العامة عن «ليالي مصر»، ألا تتذكرها؟ آه. . . العيون السوداء! أين أنتِ يا أيام شبابنا الذهبية؟) فإليك رأيي: أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذي ضرب المرأة الألمانية بالسوط، ولا مجال هنا للاستحسان حقاً. . . ولكنني لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف في بعض الأحيان «ألمانيات» يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من «تقدمي»، فيما يخيَّل إليَّ، يستطيع أن يسيطر على نفسه إزاءهن سيطرة كاملة وأن يكون مسؤولاً عن سلوكه معهن. إن أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية. ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجةً تتصف بالإنصاف.

قال سفدريجايلوف هذه الكلمات، وعاد يضحك فجأة. واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل ليس بالبسيط والساذج وأنه يبيِّت مشروعاً ثابتاً.

قال له راسكولنيكوف:

- أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام، هه؟

- هذا صحيح تقريباً. ماذا؟ هل يدهشك أن تراني ليِّن الطبع؟

- بل يدهشني أن أراك مسرفاً في لين الطبع.

- ألأنني لم أستأ من فظاظة أسئلتك؟ أهذا هو السبب؟ ولكن علام أستاء؟

ثم أضاف سفدريجايلوف يقول بسذاجة تثير الاستغراب:

- أنت سألتني، وأنا أجبتك!

ثم تابع وقد لاح في وجهه التأمل:

- أنا لا أكاد أهتم بشيء، والله. وفي هذه اللحظة خاصة، لا يشغلني أي شاغل. لك أن تظن أنني أسعى إلى خطب ودِّك لا سيما وأن لي شأناً مع أختك، كما سبق أن أعلنت لك ذلك. ولكنني أقول لك بصراحة إنني أشعر بضجر شديد وسأم قوي، ولا سيما منذ ثلاثة أيام، حتى لقد أحسست من لقائك ببهجة... لا تزعل يا روديون رومانوفتش إذا أنا صارحتك بأنك تبدو لي غريباً غرابة رهيبة. لك أن تزعم ما تشاء، ولكن فيك شيئاً ما، ولا سيما في هذه اللحظة، ليس في هذه اللحظة نفسها، بل الآن على وجه عام... هيَّا! سأكف عن الكلام، سأكف عن الكلام، لا تقطب حاجبيك هكذا... لست دباً إلى الحد الذي تظن...

نظر إليه راسكولنيكوف نظرة عابسة ثم قال:

- قد لا تكون دباً البتة! بل إنه ليبدو لي أنك تنتمي الى مجتمع راقٍ جداً، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل راقٍ.

أجاب سفدريجايلوف يقول بلهجة جافة، بل بلهجة فيها شيء من التعالي:

- لا يهمني رأي أحد، لذلك لا يقلقني أن أسلك سلوك رجل سافل. ولعل هذا هو الثوب الذي يسهل ارتداؤه أكثر من أي ثوب آخر في أجوائنا ومناخنا... ولا سيما إذا كان لدى المرء ميل طبيعي إلى ذلك... أضاف سفدريجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد.

قال راسكولنيكوف:

- سمعت أنك تعرف أناساً كثيرين هنا. فلستَ بمن يمكن أن يسمى

رجلاً «بغير علاقات»، كما يقال، فما مجيئك إليَّ إذا لم يكن لك هدف محدَّد؟

استأنف سفدريجايلوف كلامه، فقال دون أن يجيب عن السؤال الرئيسي:

- صدقتَ. إنني أعرف أناساً كثيرين. وقد التقيت حتى الآن بعدة أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها هنا، فتعرفت إليهم، وتعرفوا إلي فيما يخيَّل إليَّ. إنني أرتدي ثياباً حسنة، أليس كذلك؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء. أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوء[5] ولما كانت أملاكي غاباتٍ ومراعيَ في الدرجة الأولى، فالموارد مستمرة... ولكنني لن أذهب إلى... أولئك الناس. لقد كنت أضجر منهم حتى في الماضي... وأنا منذ الأيام الثلاثة التي أخذت أطوف فيها هنا، لم أعقد صلةً بأحد... أهذه مدينة؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة؟ هلاً شرحتَ لي هذا، من فضلك! هي مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع! حقاً أن أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أتسكع هنا منذ ثماني سنين. وقد أصبحت الآن لا أعوِّل إلا على التشريح، شهد الله...

- أي تشريح؟

- أما هذه النوادي، وهذه المطاعم التي تسمى مطاعم دوسو[6]، وهذه الحلقات... أما جميع مشاريع التقدم هذه... ففي وسعها أن تستغني عني. - وتابع سفدريجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذي أُلقي عليه. - ثم أي لذة يمكن أن يجدها المرء في الغش؟

- هل كنت تغش أيضاً؟

- كيف لا أغش؟ كنا منذ ثماني سنين جماعةً من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت، وكنا - لاحظ هذا! - على جانب عظيم من رقيِّ الآداب. وكان بيننا شعراء، ورأسماليون... إن الناس الذين هم

على جانب عظيم من رقيِّ الآداب هم على وجه العموم، عندنا، في مجتمعنا الروسي، أوغاد. . . لا شك أنك لاحظت ذلك، هه؟ ومنذ أقمت في الريف إنما عزفت عن هذا. غير أنني قد أوشكت، قبل ذلك الأوان، أن أودع في السجن، لديون عليَّ، وذلك بسبب يوناني حقير من نييجين[7]، وفي ذلك الوقت إنما ظهرت مارفا بتروفنا، فساومت، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي عليَّ سبعين ألف روبل). وتزوجنا زواجاً شرعياً. وسرعان ما أخذتني إلى عندها في الريف، كما يؤخذ كنز من الكنوز. كانت أكبر مني سناً بخمسة أعوام. وكانت تحبني كثيراً. ولم أغادر الريف سبع سنين. هذا، ولاحظْ أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته لاسم شخص آخر، من أجل أن تستخدمه ضدي عند اللزوم، بحيث تدمِّرني متى حاولت أن أتحرك من تحت النير. أوه! ما كانت لتتردد في أن تفعل ذلك! إن تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء، أليس كذلك؟

- ولولا ذلك السند لكنتَ هربت، هه؟

- لا أعرف بماذا أجيبك. كان السند لا يضايقني كثيراً. لم أكن أشتهي أن أذهب إلى أي مكان. ومارفا بتروفنا قد اقترحت عليَّ السفر إلى الخارج مرتين، حين لاحظت ضجري. ولكن علام السفر؟ كنت قد سافرت إلى الخارج قبل ذلك، فلم أشعر هنالك بارتياح. ليس هذا هو الأمر تماماً. . . ولكن كان ثمة شمس تشرق، وكان ثمة خليج نابولي، وكان ثمة البحر. . . فكنت أنظر، فأشعر بحزن. والأنكى من هذا أن المرء يجد هناك سبباً للحزن حقاً. لا، لا، إن البقاء في الوطن أفضل. هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شيء، وأن يبرئ بذلك نفسه. قد أحب أن أسافر الآن راضياً إلى القطب الشمالي، لأن خمرتي فسدت[8]، فأصبحت أكره أن أشرب، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب. . . لقد جرَّبت هذا. . . بالمناسبة: يقال إن بيرج[9] سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد،

وأنه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر، هل هذا صحيح؟

- ماذا؟ تسافر في منطاد؟

- أنا؟ لا... وإنما قلت هذا هكذا... - جمجم يقول سفدريجايلوف، كما لو كان يفكر في السؤال الملقى فعلاً.

قال راسكولنيكوف يحدّث نفسه: «إلى أين يريد أن يصل من هذا كله؟»

وتابع سفدريجايلوف كلامه فقال حالماً شارد الفكر:

- لا، كان السند لا يزعجني. فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف. ثم إن مارفا بتروفنا قد ردَّت إليَّ السند منذ سنة تقريباً، بمناسبة عيد شفيعي، حتى لقد أضافت إليه مبلغاً محترماً. كانت تملك ثروة، هه؟ قالت لي: «هاأنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آركادي إيفانوفتش». أؤكد لك أن هذا ما قالته لي. لا شك في أنك لا تصدّق أن هذا ما قالته لي. اعترفْ بأنك لا تصدّق! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً في القرية. وكنت معروفاً جداً في المنطقة. وكنت أستحضر كتباً أيضاً. شجعتني مارفا بتروفنا على ذلك في أول الأمر، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدني القراءة.

- يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارفا بتروفنا، أليس كذلك؟

- أنا؟ ربما! هذا جائز جداً. قل لي بالمناسبة: هل تؤمن بعودة الأرواح؟

- أي أرواح؟

- الأرواح العائدة. ما هذا السؤال؟

- وأنت، هل تؤمن بذلك؟

- نعم ولا «إذا شئت». أقصد أنني لا أؤمن بها تماماً...

- هل رأيت أرواحاً عائدة؟

ألقى سفدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة غريبة. ثم قال له وقد انعقف فمه بابتسامة غامضة:

- إن مارفا بتروفنا لا يفوتها أن تزورني.

- كيف؟ تزورك؟

- نعم، زارتني حتى الآن ثلاث مرات. فأما المرة الأولى ففي يوم دفنها نفسه، بعد العودة من المقبرة بساعة، عشية رحيلي إلى هنا. وأما المرة الثانية فأمس الأول، أثناء السفر، قبيل طلوع الصباح، في محطة مالايا فيشيرا[10]. وأما المرة الثالثة، فمنذ ساعتين، في مسكني، في الغرفة التي أقيم بها. كنت وحدي.

- وكنتَ... يقظاً؟

- يقظاً كل اليقظة... ولقد كنت يقظاً في المرات الثلاث جميعاً. تأتي، فتكلمني دقيقة، ثم تنصرف خارجة من الباب، دائماً من الباب. حتى ليخيَّل إليَّ أنني أسمع خطواتها.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- لماذا كنت أقدِّر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شيء من هذا القبيل؟!

ثم دُهش من أنه قال هذا الكلام. كان راسكولنيكوف منفعلاً انفعالاً شديداً. سأله سفدريجايلوف مذهولاً:

- حـ.. قاً؟ كنت تقدِّر ذلك؟ حقاً؟ ألم أقل لك أن بيننا شيئاً مشتركاً؟

أجابه راسكولنيكوف بحماس وبلهجة قاطعة:

- لم تقل لي شيئاً من ذلك قط!

- ألم أقل لك ذلك؟

- لا!

- غريب. خيِّل إليَّ أنني قلته لك. منذ قليل حين دخلت عليك،

فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم، قلت لنفسي فوراً: «هذا هو! هذا هو بعينه».

صاح راسكولنيكوف يسأله:

- ماذا تقصد بقولك: «هذا هو بعينه»؟

- ماذا أقصد؟ بصراحة: لا أدري! أجاب سفيدريجايلوف متمتماً، مرتبكاً ارتباكاً صادقاً. وساد الصمت دقيقة. وكان كل من الرجلين ينظر في عيني الآخر باهتمام كبير.

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً:

- ذلك كله سخف. وماذا تقول لك حين تزورك؟

- هي؟ تصوَّر أنها تكلمني في أتفه السفاسف. والإنسان يبلغ من غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يغضبني. حين زارتني في المرة الأولى، كنت متعباً كما تعلم: القداس، صلاة الجنازة، الموكب، المأدبة. وفي آخر الأمر كنت وحيداً في حجرة مكتبي، وكنت أدخِّن سيجاراً. ها هي ذي تدخل، فتقول لي: «أبسبب هذه المشاكل كلها إذاً إنما نسيتَ يا آركادي إيفانوفتش أن تعبئ اليوم ساعة الجدار؟» وكنت أنا الذي أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك في كل أسبوع فعلاً، منذ سبع سنين، فإذا نسيت أن أفعل ذلك، ذكَّرتني به. وفي الغد، كنت في طريقي إلى هنا. ودخل القطار، عند الفجر، إلى محطة من المحطات. كنت محطماً من التعب. وكانت عيناي محتقنتين من شدة النعاس، لأنني لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل. أمرت لنفسي بفنجان من القهوة. وهأنا ذا أرى مارفا بتروفنا تجلس إلى جانبي وفي يديها ورق لعب. قالت لي: «هل تحب، يا آركادي إيفانوفتش، أن تعرف ما يقوله ورق اللعب في أمر سفرك؟» كانت مارفا بتروفنا خبيرة جداً في فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب. لن أغفر لنفسي ما حييت أنني لم أقبل اقتراحها. لقد هربت مذعوراً. والحمد لله أن الجرس قد رنَّ في تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار.

واليوم، بينما كنت جالساً أشعر بثقل في معدتي بعد غداء رديء جيء إليَّ به من المطعم، وفيما أنا أدخِّن سيجاراً دخلت عليَّ مارفا بتروفنا على حين بغتة، متزينةً بأجمل زينة، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً، وقالت لي: «يومك سعيد يا آركادي إيفانوفتش! هل ثوبي الجديد يوافق ذوقك؟ ما كان لآنيسكا[11] أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب». (آنيسكا خياطة في القرية كانت في الماضي من الأقنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو، فتاة حلوة جداً). وأخذت مارفا بتروفنا تتبختر أمامي. أنعمت النظر في ثوبها، وتفرست فيها بانتباه، وجهاً لوجه، ثم قلت لها: «حقاً لا داعي يا مارفا بتروفنا، إلى أن تكلفي نفسك عناء المجيء إليَّ لتحدثيني في مثل هذه الترَّهات!» فقالت لي: «آه! . . رباه! . . هل صار حراماً عليَّ حتى أن أزعجك؟»، فقلت لها عندئذ لأغيظها: «أريد يا مارفا بتروفنا أن أتزوج مرة ثانية»، فقالت لي: «لم أتوقع منك غير ذلك يا آركادي إيفانوفتش. ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً. وهبك اخترت اختياراً موفقاً، فإن الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هي، وستصيران مضغة في أفواه الناس، هذا كل شيء!» قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأنني كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها. سخف، أليس كذلك؟

سأله راسكولنيكوف:

- قل لي: أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً؟

فأجابه سفيدريجايلوف شارد الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال:

- يندر أن أكذب.

- وقبل ذلك، هل رأيت أرواحاً عائدة؟

- أي نـ. . .ـعم، مرة واحدة في حياتي، منذ ست سنين. كان عندي خادم اسمه فيلكا[12]. فما أن تمَّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً: «يا فيلكا، هات غليوني!» فإذا هو يدخل، فيمضي قُدُماً إلى الخزانة التي كانت

تُصفُ فيها غلاييني. كنت جالساً فقلت لنفسي: «هو يفعل ذلك لينتقم مني». إن مشاجرة عنيفة كانت قد شبّت بيني وبينه قبل موته بقليل. قلت له: «كيف تجرؤ أن تمثل أمامي بكمِ مثقوبة عند الكوع؟ أخرج من هنا أيها الحقير!» فاستدار على عقبيه، وخرج، ثم لم يرجع بعد ذلك قط! لم أقل عن هذا الأمر كلمةً واحدة لمارفا بتروفنا. أردت في لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه، ولكنني ترددت بعد ذلك.

- هلم استشر طبيباً!

- لست في حاجة إليك حتى أعلم أنني مريض، وأن أكن لا أعرف ما هو مرضي حقاً. وفي رأيي أن صحتي خير من صحتك خمس مرات. أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وإنما سألتك هل تؤمن أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة.

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب:

- لا، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال!

جمجم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه، وهو ينظر إلى جانب، مائلَ الرأس قليلاً:

- ماذا يقال لك عادة؟ يقال لك: «أنت مريض، وكل ما تراه إذاً ليس إلا نتيجة هذيانك». ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم. أنا أسلِّم بأن الرؤى لا تظهر إلا للمرضى، ولكن هذا يبرهن على أن الرؤى لا يمكن أن تظهر إلا للمرضى، دون أن يبرهن على أن الرؤى لا وجود لها في ذاتها.

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً:

- لا وجود لها حتماً!

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو راسكولنيكوف ببطء:

- لا؟ أنت تعتقد بأن لا وجود لها؟ ولكن إذا فكَّرنا في الأمر على النحو التالي (ساعدني، من فضلك): «الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم إن صح التعبير. والإنسان السليم المعافى ليس في حاجة بطبيعته إلى أن يراها، لأن الإنسان السليم المعافى ينتمي إلى هذه الحياة الدنيا قبل كل شيء، وعليه إذاً أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها، في سبيل النظام والانسجام. ولكن ما إن يمرض هذا الإنسان، ما إن يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى على الفور إمكانية عالم آخر، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك العالم الآخر، فإذا مات انتقل إلى ذلك العالم الآخر رأساً». إنني أفكِّر بذلك منذ زمان طويل. فإذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة، كان في إمكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذي أجريه.

قال راسكولنيكوف:

- أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة.

وظل سفيدريجايلوف حالماً شارد الفكر. ثم قال فجأة:

- هه! . . ماذا إذا لم يكن في الحياة الآخرة إلا عناكب أو أشياء من هذا القبيل؟! . .

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه مجنون!»

وتابع سفيدريجايلوف كلامه:

- نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها، على أنها شيء ضخم، ضخم! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة؟ تصوَّر فجأة أنه ليس هناك، بدلاً من هذا كله، إلا حجرة صغيرة، إلا شيء يشبه حمَّاماً في قرية، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب في جميع أركانه، وتصوَّر أن هذا هو الأبدية كلها. أنا مثلاً إنما تبدو لي الأبدية في هذه الصورة أحياناً.

صاح راسكولنيكوف يقول منزعجاً:

- هل يمكن، هل يمكن حقاً أن لا يكون في ذهنك تصور أبعث على العزاء وأقرب إلى الصدق؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

- أقرب إلى الصدق! ومن يدري: لعله أكثر صدقاً؟ لو كان الأمر بيدي لصنعت الأمور على هذا النحو نفسه!..

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ يسري في جسمه.

ورفع سفيدريجايلوف رأسه، وحدَّق إليه بنظرة ثابتة، ثم انفجر ضاحكاً، وهتف يقول:

- لا، لا، إن أمرنا لعجيب حقاً! منذ نصف ساعة فقط، لم نكن قد التقينا بعد، وكنا نعد نفسينا عدوين. وبيننا، عدا ذلك، مسألة لم نخرجها إلى النور بعد، ومع هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من القضايا. هل كذبت عليك حين قلت لك إننا ثمرتا أرض واحدة؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة:

- من فضلك: قل ما تريد أن تقوله بغير إبطاء، واذكر لي السبب الذي دفعك إلى تشريفي بهذه الزيارة... ذلك أنني... مستعجل... يجب أن أخرج...

- طيب، طيب... إن أختك آفدوتيا رومانوفنا ستتزوج السيد لوجين، السيد بيوتر بتروفتش لوجين، أليس كذلك؟

- ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختي، وأن لا تذكر اسمها؟ إنني لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضوري، إذا صحَّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً!

- ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث في أمرها؟

- طيب. تكلم. ولكن أسرع!

- أنا على يقين من أنك كوَّنت رأياً في السيد لوجين (الذي يمت إليَّ بقربى مصاهرة)، إذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة، أو كنتَ قد سمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة. هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا. في رأيي أن آفدوتيا رومانوفنا إنما تضحي في هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة في سبيل... في سبيل أسرتها. لقد بدا لي، بعد كل ما سمعته عنك، أنك من جهتك، سيسرك كثيراً بأن لا يتم هذا الزواج، شريطة أن لا يُساء إلى أختك. وأنا الآن، بعد أن عرفتك شخصياً، مقتنع بهذا أكثر من اقتناعي به في أي وقت مضى.

قال راسكولنيكوف:

- هذا كله سذاجة من جانبك... معذرة... أردت أن أقول إن هذا كله وقاحة من جانبك.

- هل تقصد بذلك أنني أدافع عن مصلحتي؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش! لو كنت أتكلم في سبيل مصلحتي، لما كنت صريحاً هذه الصراحة، فما أنا غبي غباوة كاملة على كل حال. بالمناسبة: سأكشف لك عن أمر سيكولوجي غريب! منذ قليل، حين كنت أبرِّر الحب الذي أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسي إنني أنا ضحية. ألا فاعلم أنني لا أشعر الآن بأي حب، لا أشعر الآن بأي حب البتة، حتى أنني أستغرب أنا نفسي كيف شعرت في الماضي فعلاً...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً:

- مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ، وما فُطرت عليه من فسق وعهر...

- حقاً! أنا رجل عاطل داعر. ولكن أختك، من جهة أخرى، لها من المزايا والحسنات ما جعلني لا أستطيع أنا نفسي أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثر... ولكن ذلك كله لم يكن إلا لغواً وعبثاً... أنا أدرك هذا الآن.

- وهل تدركه منذ مدة طويلة؟

- بدأت أدركه منذ بعض الوقت، ولكنني لم اقتنع به اقتناعاً مطلقاً إلا أمس الأول، تقريباً في نفس الدقيقة التي وصلت فيها إلى بطرسبرج. وحتى في موسكو كنت ما أزال أتصور أنني آتٍ من أجل أن أخطب آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسي منافساً للسيد لوجين.

- اغفر لي مقاطعتك... ولكن أرجوك... رحماك.... ألا تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً إلى الكلام عن الغرض من زيارتك؟ إنني مستعجل... يجب أن أخرج.

- بكل سرور. حين وصلت إلى هنا عازماً على القيام... برحلة، أردت أولاً أن أتخذ بعض الإجراءات التحضيرية المطلوبة. لقد أبقيت أولادي عند خالتهم. وهم أغنياء لا حاجة بهم إليَّ. وأي أب أنا لهم على كل حال؟ لم أحمل معي إلا المال الذي أهدته إليَّ مارفا بتروفنا منذ سنة. هذا يكفيني. معذرة، إنني أصل إلى الوقائع مباشرةً. إنني قبل سفري الذي قد يتم على كل حال، أريد أن أفرغ من السيد لوجين. ليس يعني هذا أنني أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة، ولكنه هو السبب في الشجار الذي وقع بيني وبين مارفا بتروفنا، حين علمتُ أنها دبَّرت أمر هذا الزواج. إنني أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا بواسطتك، وبحضورك إذا شئت، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين، بل وإن هناك شروراً كبيرة يجب أن تتوقعها منه؛ وأن أطلب منها ثانياً، بعد التماس غفرانها عن المتاعب الأخيرة التي سببتها لها، أن تأذن لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل في سبيل أن أسهِّل لها القطيعة مع السيد لوجين، وهي قطيعة تستفيد آفدوتيا رومانوفنا منها إذا هي تصورت إمكانها.

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه:

- ألا أنك لمجنون فعلاً، فعلاِ! كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام؟

- كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة. ولكنني أحب أن أقول لك أولاً إنني على كوني لا أملك ثراءً كبيراً، أستطيع التصرف في هذه العشرة آلاف روبل. بتعبير آخر: إن هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذي لا غنى لي عنه، فإذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا، فسأنفقه إنفاقاً أشد غباوة وحماقة. هذه أولى. وأما الثانية فهي أن ضميري مرتاح كل الارتياح: إنني أقدم هذا المال دون أي حساب. صدِّق أو لا تصدِّق، ولكنكما، أنت وآفدوتيا رومانوفنا، ستدركان هذا فيما بعد. الحقيقة أنني سببت بعض المتاعب وبعض الإزعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة، وإذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعاني من عذاب الضمير، فإنني أرغب من كل قلبي لا أن أكفِّر عن خطيئتي، فأقدم لأختك تعويضاً مالياً، بل أن أكون، بكل بساطة، نافعاً لها في أمر من الأمور على نحو من الأنحاء، لأنني على كل حال لست بالإنسان الذي لا يمتاز إلا باقتراف الشر. ولو كان في عرضي هذا جزء من مليون جزء من حساب، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها. ثم إنني ما كان لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل فحسب، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع. أضف إلى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج إحدى الفتيات في وقت قريب كل القرب، وهذا ينفي عني كل شبهة في إضمار أي شر لآفدوتيا رومانوفنا. وأقول في الختام إن آفدوتيا رومانوفنا، إذا هي تزوجت السيد لوجين، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر... لا تزعل يا روديون رومانوفتش... بل احكم على الأمر بنفسك في هدوء وسكينة.

وكان سفيدريجايلوف نفسه، وهو ينطق بهذه الكلمات، هادئاً كل الهدوء، ساكناً كل السكينة.

قال راسكولنيكوف:

- أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام، لأن ما قلته حتى الآن هو

على كل حال زاخر بوقاحة لا تغتفر.

- أبداً. من يسمعك يظن أن الإنسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الإنسان إلا شراً في هذا العالم الأرضي، وأنه لا يجوز أن يفعل له أي خير، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة. ألا إن هذا لمضحك حقاً. هل إذا متّ مثلاً، فأورثت أختك الصغيرة في وصيتي هذا المبلغ نفسه، هل ترفض أختك قبوله حتى في هذه الحالة؟

- جائز جداً أن ترفضه.

- لا! ودعنا من هذا على كل حال. المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل! ومهما يكن من أمر، فإنني أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث.

- لا! لن أطلعها عليه.

- في هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعى بنفسي إلى الحصول على موعد منها، وقد يزعجها هذا.

- وإذا أطلعتها على هذا الحديث، ألن تسعى بنفسك إلى الحصول على هذا الموعد؟

- لا أدري بماذا أجيبك. أنني أود كثيراً أن أراها مرة.

- لا تعوّل على هذا!

- خسارة. على أنك لا تعرفني. أفليس من الجائز أن تتوثق العلاقات بيننا؟

- أأنت تظن حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته:

- لِمَ لا؟ ليس معنى هذا أنني أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا... حتى أنني لم أكن أعوّل على أن... رغم أن هيئتك قد أذهلتني كثيراً في هذا الصباح...

سأله راسكولنيكوف في قلق:

- أين رأيتني في هذا الصباح؟

- رأيتك بمحض مصادفة! ما يزال يخيَّل إليَّ أن فيك شيئاً قريباً مني كل القرب. ولكن لا تقلق، ما أنا بالرجل المزعج: لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين؛ ولم أضجر الأمير سفرباي الذي يمت إليَّ بقربى بعيدة والذي هو سيد من كبار السادة؛ وتسنى لي أن أكتب في «ألبوم» مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن «مادونا» رافائيل[13]، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارفا بتروفنا؛ وقضيت قبل ذلك ليالي بكاملها في عمارة فيازمسكي[14] بميدان «سوق العلف»؛ وقد أطير بالمنطاد مع بيرج...

- رائع. فاسمح لي الآن أن أسألك أأنت تزمع القيام برحلتك قريباً؟

- أي رحلة؟

- عجيب! الرحلة التي حدثتني عنها منذ قليل.

- رحلة؟ آ... نعم... رحلة... فعلاً... لقد حدثتك عن رحلة... ولكن هذه مسألة واسعة جداً... ليتك تعرف عن أي شيء تسألني!

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة.

ثم أردف:

- قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة: هناك خطيبة تُقترح عليَّ.

- هنا؟

- نعم.

- متى اتسع وقتك لأن...

- أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا. إنني أسألك جاداً أن تؤدي لي هذه الخدمة. هيَّا... إلى اللقاء مرة أخرى. آ...

نسيت. . . قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش أن مارفا بتروفنا قد أورثتها في وصيتها ثلاث آلاف روبل. هذه هي الحقيقة دقيقةً. لقد اتخذت مارفا بتروفنا هذه الإجراءات قبل موتها بأسبوع، اتخذتها بحضوري. وفي وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ في غضون أسبوعين أو ثلاثة.

- تقول. . . هذه هي الحقيقة؟

- نعم هذه هي الحقيقة. أرجوك أن تبلغها إياها. هيًا. . . إلى اللقاء مرة أخرى. هل تعلم أنني أسكن قريباً جداً منك؟

قال سفيدريجايلوف ذلك واتجه نحو الباب؛ وفيما هو يجتاز العتبة، التقى برازوميخين.

الفصل الثاني

كانت الساعة تقارب الثامنة: أسرع الاثنان نحو عمارة باكالايف ليصلا قبل لوجين.

وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا في الشارع:

– قل لي: من ذلك الرجل؟

– هو سفيدريجايلوف، ذلك الملأك الذي أهينت أختي في منزله حين كانت تعمل عنده مربية. وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحقاته الغرامية: طردتها زوجته مارفا بتروفنا. ومارفا بتروفنا هذه قد اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة؛ وعنها إنما كان يجري الحديث منذ قليل. لا أدري لماذا، ولكنني خائف من هذا الرجل. لقد وصل إلى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً. هو رجل غريب جداً، يخيَّل إليَّ أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة. لكأنه يعرف شيئاً ما. . . يجب أن نحمي دونيا منه، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك، هل تسمع؟

– نحميها منه؟ ولكن أي أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل بآفدوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، أشكر لك يا روديا أنك تقول لي هذا الكلام. لسوف نحميها. أين يسكن؟

– لا أدري.

– لماذا لم تسأله؟ خسارة! لا بأس، سأعرف ذلك على كل حال.

سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت:

- هل رأيته؟

- طبعاً. لاحظته، لاحظته جيداً.

وألحَّ راسكولنيكوف سائلاً:

- هل رأيته رؤية واضحة، مميِّزة؟

- نعم، وأتذكره تذكراً واضحاً مميَّزاً. لو رأيته بين ألف شخص لعرفته. إنني أملك ذاكرة الوجوه.

وصمتا من جديد.

وجمجم راسكولنيكوف يقول:

- هِمْ... ذلك أنني... ذلك أنني... هل تعلم؟ لولا ذلك... لكان يمكن أن أظن... ما أزال أظن... إن ذلك لم يكن إلا أضغاث أحلام.

- عمَّ تتكلم؟ لست أفهمك بوضوح.

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوي فمه بابتسامة:

- اسمع: لما كنتم تقولون جميعاً إنني مجنون، فقد تصورت منذ قليل أنني قد أكون مجنوناً بالفعل، وأن ما رأيته لم يكن إلا شبحاً.

- ما هذا الذي تقوله؟

- من يدري؟ لعلَّني مجنون مع ذلك، ولعل كل ما جرى في الآونة الأخيرة إنما جرى في خيالي وحده!

- روديا! هل شوشوا عقلك من جديد؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل؟ لماذا جاء؟

لم يجب راسكولنيكوف. وفكَّر رازوميخين لحظة. ثم بدأ يتكلم فقال:

- طيب، اسمع تقريري: لقد جئت إليك، فوجدتك نائماً. ثم تغدينا، ثم ذهبت إلى بورفيري. كان زاميوتوف عنده. أردت أن أبدأ

الحديث، ولكن ذلك لم يثمر. لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم، كأنهما لم يفهما شيئاً؛ ولم يستطيعا أن يفهما شيئاً؛ ولكنهما لم يظهرا أي ارتباك. جذبت بورفيري إلى النافذة وأخذت أتكلم، ولكن هذا لم يثمر أيضاً لسبب ما. كنت انظر إلى جهة، وكان هو ينظر إلى جهة أخرى. وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه، وقلت له إنني سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية. فلم يزد على أن نظر إليَّ. عندئذ بصقت على الأرض، وانصرفت. هذا كل شيء. ما أغبى هذا كله! أما زاميوتوف فلم أبادله كلمة واحدة. ومع ذلك اعتقدت أنني أفسدت الأمر كله، إلى أن تراءت لي فجأة، وأنا أهبط السلم، فكرة وضعت بلسماً على قلبي. قلت لنفسي: لماذا نصدِّع رأسينا، أنا وأنت؟ لو كان هناك خطر يتهددك، لو كان هناك شيء حقاً، لما قلت كلمة واحدة. ولكنك لا ضِلْع لك في هذا الأمر كله. ما شأنك أنت وهذا الأمر؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر. فما عليك إذاً إلا أن تستخف بهم، أن تبصق عليهم. ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزئ بهم. لو كنت في مكانك لأخذت أضلّلهم وأغرِّر بهم! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد! أبصق على هذا الأمر كله! قد نستطيع في المستقبل أن نضربهم أيضاً. ولكن فلنضحك إلى أن يحين ذلك الحين!

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

- طبعاً، طبعاً!

ولكنه قال بينه وبين نفسه: «ما عساك قائلاً في الغد؟»

شيء غريب: أن راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن «ما عسى يفكر فيه رازوميخين حين يعلم الحقيقة؟» فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدَّق إلى صديقه بنظرة ثابتة. أما ما رواه له رازوميخين عن زيارته لبورفيري، فإنه لم يكد يهتم به. إن أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة!..

وفيما كانا يعبران الدهليز إلتقيا بلوجين. لقد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدي إلى الغرفة، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً، ولكن دون أن ينظر أحد منهم إلى أحد، ودون أن يحيي أحد منهم أحداً. دخل الشابان أولاً، وتوقف بيوتر بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقة، وخلع هنالك معطفه. وتقدمت بولخيريا الكسندروفنا إلى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً. وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيي أخاها.

دخل بيوتر بتروفتش، وسلَّم على السيدتين بلطف ومودة، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء. على أنه كان يبدو مرتبكاً بعض الارتباك، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد. وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً، أسرعت تُجلس الجمع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي ماؤه. فكان مكانا دونيا ولوجين متقابلين، وكان مكانا رازوميخين وراسكولنيكوف أمام بولخيريا الكسندروفنا، فأما رازوميخين فإلى جانب لوجين، وأما راسكولنيكوف فإلى جانب أخته.

خيَّم الصمت برهة من الوقت. وأخرج بيوتر بتروفتش من جيبه، بغير تعجل، منديلاً من قماش الباتيسته تفوح منه روائح عطر، وتمخط كما يمتخط رجل محترم، بل ورجل يحس أن كرامته قد أهينت بعض الشيء، فهو عازم لذلك على أن يطالب بإيضاحات. كان قد خطر بباله وهو في حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية، وليفهمهما الوضع كله. ولكنه لم يعزم أمره على إنفاذ هذه الفكرة التي خطرت بباله. ثم إن هذا الرجل يكره الأمور التي يعوزها اليقين الثابت، وهناك نقطة لا بد من إيضاحها: لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحةً، فلا بد أن هناك سبباً دعا إلى ذلك، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة، وفي وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب.

قال يخاطب بولخيريا الكسندروفنا بلهجة رسمية:

- أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة.

- نحمد الله يا بيوتر بتروفتش!

- يسرني أن أعرف هذا. ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً؟

أجابت دونيا قائلة:

- أنا شابة وقوية فلا أتعب. أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة.

- ما العمل؟ إن طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة. إن «أُمنا روسيا» كما يقال، واسعة كثيراً... أما أنا فأنني، رغم رغبتي القوية، لم أستطع أن آتي إلى المحطة لاستقبالكما. آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تمَّ بدون مزعجات.

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقول بنبرة خاصة:

- لا يا بيوتر بترفتش! لقد لقينا مزعجات كثيرة، وشعرنا بضيق شديد. ولولا أن الله أرسل إلينا دمتري بروكوفتش بالأمس، إذن لضعنا.

ثم أضافت تعرِّف لوجين بدمتري بروكوفتش:

- هذا دمتري بروكوفتش رازوميخين.

فدمدم لوجين يقول وهو يلقي على رازوميخين نظرة مواربة خالية من المودة:

- ولكن... سبق لي أن سُررت... أمس...

ثم قطب حاجبيه وصمت.

نستطيع أن نصف بيوتر بتروفتش على وجه العموم بقولنا إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الناس التي تبدو في المجتمع لطيفة ودودة، أو تبدو متطلعة إلى اللطف والمودة، ولكن ما إن يسوءها شيء حتى تفقد على الفور لباقتها، فإذا هي تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين منطلقين يلاطفون الناس حولهم ويحظون باعتبارهم.

وساد صمت شامل من جديد. فراسكولنيكوف مصرّ على السكوت إصراراً عنيداً، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله. وهكذا شعرت بولخيريا ألكسندروفنا بنذر الخطر. فلجأت إلى آخر ما تملك من موارد، فبادرت تقول:

- ماتت مارفا بتروفنا، هل تعرف هذا؟

- أعرفه طبعاً. علمت به منذ أخذت تسري الشائعة... وأزيدك علماً فأقول إن آركادي إيفانوفتش سفيدريجايلوف قد أسرع يجيء إلى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً. هذه هي على كل حال الأخبار الدقيقة التي وصلتني.

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق، وهي تبادل أمها نظرة سريعة:

- إلى بطرسبرج؟ إلى هنا؟

- نعم. ولا شك في أن له نيات يضمرها، إذا نحن نظرنا إلى استعجاله السفر إلى الأحداث التي سبقت هذا السفر.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- رباه! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً؟

- يخيَّل إليَّ أنكما يجب أن لا تبالغا في القلق، لا أنت ولا آفدوتيا رومانوفنا، على شرط أن ترغبا أنتما طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به. أما أنا فما أزال يقظاً ساهراً، وأعمل على استطلاع محل سكناه.

وتابعت بولخيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت:

- آه يا بيوتر بتروفتش! إنك لا تعرف مدى ما أحدثه في نفسي من خوف ورعب! إنني لم أره في حياتي إلا مرتين، ولكنه بدا لي مريعاً، مريعاً! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارفا بتروفنا!

- يصعب القطع برأي فيما يتعلق بهذه النقطة. أنا أملك معلومات

دقيقة محدَّدة. لست أنكر أنه قد عجَّل مجرى الأمور بما أحدثته الإهانة فيها من أثر نفسي إن صح التعبير. أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامةً فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة. لا أدري هل أصبح الآن غنياً، ولا أدري كم أورثته مارفا بتروفنا على وجه الدقة، ولكنني سأعرف هذا بعد مدة لن تطول. ومهما يكن من أمر، فمما لا شك فيه أنه، وقد أصبح يملك مالاً، سوف يستأنف فوراً، هنا ببطرسبرج، طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي. هذا إنسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق، وفساد طبع. وهناك أسباب قوية تدعوني إلى الاعتقاد بأن مارفا بتروفنا التي شاء سوء حظها أن تُفتتن به وأن تحرره من ديونه منذ ثماني سنين، قد خدمته في ميادين أخرى: فبفضل جهودها وحدها، وبفضل تضحياتها إنما استطاعت أن تخنق في المهد قضيةً إجرامية وحشية فظيعة كان يمكن أن تؤدي به إلى سيبيريا. ذلك هو هذا الرجل إذا كنت تحرصين على معرفته!

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- آه! رباه!

وكان راسكولنيكوف يصغي بانتباه:

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة:

- هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك؟

- أنا إنما أكرر ما سمعته بنفسي من فم المرحومة مارفا بتروفنا مختوماً بخاتم السر. يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً. في ذلك الوقت كانت تعيش هنا - ويظهر أنها ما تزال تعيش إلى الآن - سيدة أجنبية اسمها ريسليخ، وهي مرابية صغيرة لها أعمال أخرى. ولقد كان السيد سفيدريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل. وكانت تعيش معها فتاة تمت إليها بقرابة بعيدة، فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها أو في الرابعة عشرة، كانت صماء خرساء، وكانت السيدة

ريسليخ تمحضها كرهاً لا حدود له، وتلومها على كل لقمة خبز تأكلها، حتى لقد كانت تضربها ضرباً لا رحمة فيه ولا شفقة. وفي ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة في الطابق الذي يقع تحت سقف المنزل. وقد انتهى التحقيق إلى أن الفتاة ماتت منتحرة، فطويت القضية بعد إتمام الإجراءات المعتادة. غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول إن الطفلة قد اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداءً مشيناً قاسياً. صحيح أن هذا كله ظلَّ يكتنفه الغموض، فالوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هي امرأة سيئة السمعة لا توحي بأية ثقة. ولم تتبع ذلك أية إجراءات: فبفضل جهود مارفا بتروفنا وبفضل مالها بقي كل شيء في حدود الشائعة. غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة. ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا رومانوفنا، حين كنت عندهم، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر تعذيب، في العهد الذي كانت فيه القنانة ما تزال قائمة.

- بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً.

- تماماً، ولكنه أُجبر على الانتحار، أو قولي دُفع إليه، بتأثير الإزعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفيدريجايلوف.

قالت دونيا بخشونة:

- لم أكن أعرف ذلك. ولكنني سمعت قصة غريبة جداً تروي أن فيليب هذا كان رجلاً مصاباً بمرض الوسواس، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع في البيت. كان الناس يقولون عنه أن قراءاته هي التي ذهبت بعقله، وأنه انتحر هرباً من سخريات السيد سفيدريجايلوف، لا من ضرباته. ومهما يكن من أمر فإن السيد سفيدريجايلوف، كان طوال مدة إقامتي عندهم، يعامل الخدم بحضوري معاملة حسنة، حتى لقد كان هؤلاء يحبونه، رغم أنهم يتهمونه في الواقع بأنه كان السبب في موت فيليب.

قال لوجين وهو يلوي فمه بابتسامة ملتبسة المعنى:

- أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة إلى تبرئته. هذا رجل ماكر فعلاً، وهو إلى ذلك مغوٍ داعر. أليست مارفا بتروفنا، التي ماتت تلك الميتة الغريبة، دليلاً محزناً على ذلك؟ أنا إنما أردت أن أساعدكما بنصائحي، أنت وأمك، لأنني أتنبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها بلا شك. وأنا من جهتي على اقتناع جازم بأن هذا الرجل سيودع في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون. أن مارفا بتروفنا التي كانت لا تفكر إلا في أولادها لم يكن في نيتها حتماً، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها، وإذا أورثته شيئاً مع ذلك، فإن هذا الميراث لا يمكن أن يكون إلا مبلغاً زهيداً «عارضاً»، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرف بعادات خاصة إلا سنةً واحدة في أكثر تقدير.

قالت دونيا:

- بيوتر بتروفتش، أرجوك، لا تتكلمن عن السيد سفيدريجايلوف! إن الكلام عنه يؤلمني.

وقال راسكولنيكوف فجأة، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة:

- جاء إليّ منذ قليل.

فإذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات، وإذا بجميع الوجوه تلتفت إليه. وانفعل حتى بيوتر بتروفتش.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

- جاء إليّ منذ ساعة ونصف، بينما كنت ما أزال نائماً. دخل، فأيقظني، وعرفني بنفسه. كان منطلقاً مرحاً، وكان يأمل جازماً أن تنعقد بيني وبينه صلات. وقد ألحَّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئة هذا اللقاء. هناك عرض يريد أن يبسطه لك. وقد ذكر لي ما هو هذا العرض. ومن جهة أخرى أبلغني رسمياً أن مارفا بتروفنا قد اتسع وقتها، قبل وفاتها بأسبوع، أن تورثك في وصيتها ثلاثة

آلاف روبل، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة.

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا تقول وهي ترسم إشارة الصليب:

- الحمد لله! صلّي لها يا دونيا، صلّي لها!

قال لوجين فجأة:

- هذا صحيح.

وقالت دونيا مستطلعة:

- هيه، وبعد ذلك؟

- بعد ذلك قال إنه هو نفسه ليس غنياً، وأن الثروة كلها قد آلت إلى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم. ثم أضاف أنه قد نزل في مكان ما، غير بعيد عن بيتي، ولكنني لا أدري أين يقع مسكنه على وجه الدقة، ولم أسأله...

سألت بولخيريا ألكسندروفنا مرتاعةً:

- ولكن ماذا يريد، ماذا يريد أن يعرض على دونيا؟ هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها؟

- نعم، قال لي.

- فما الذي يريد أن يعرضه عليها؟

- سأذكر عرضه فيما بعد. قال راسكولنيكوف ذلك، ثم صمت وعاد يشرب الشاي.

فأخرج بيوتر بتروفتش ساعته ونظر فيها، ثم قال:

- إنني مضطر إلى أن أترككم حتماً، فهناك عمل ملح مستعجل يناديني.

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهراً بعض الانزعاج:

- وبذلك لن أضايقكم.

فقالت دونيا:

- إبق يا بيوتر بتروفتش! ألم تكن تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما؟

فقال بيوتر بتروفتش بوقار شديد:

- هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا.

وجلس، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده، وتابع يقول:

- كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة في أمور خطيرة جداً. ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن عروض السيد سفيدريجايلوف، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن أشرح شيئاً أمام... أشخاص آخرين... في أمور هي على درجة عظيمة جداً من خطورة الشأن!.. ثم إن أحداً لم يكترث إطلاقاً برجائي الملحّ...

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة، وصمت في وقار ورصانة.

قالت دونيا:

- أنا وحدي السبب في عدم تحقيق رغبتك في أن لا يحضر أخي حديثنا. لقد كتبت تقول إن أخي أهانك، وأنا أرى أنه يجب إيضاح الأمور بأقصى بسرعة، وأن عليكما أن تتصالحا. إذا كان روديا قد أهانك حقاً، فإنه يكون من واجبه أن يعتذر لك، وسوف يفعل ذلك...

وقد استرد بيوتر بتروفتش كبرياءه، فقال:

- يا آفدوتيا رومانوفنا، هناك إهانات لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة. أن لكل شيء حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها، ومتى تجاوزها كانت العودة إلى الوراء مستحيلة استحالة كاملة.

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاد الصبر:

- ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه. أفهمْ جيداً أن مستقبلنا يتوقف

الآن على نقطة واحدة: هل يمكن إيضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا؟ إنني أنبهك بصراحة، منذ البداية، إلى أنني لا أرى أي مخرج آخر، فإذا كنت تحرص عليَّ أي حرص فيجب أن تنتهي هذه القصةَ في هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر. أعود فأكرر أن أخي سيعتذر لك إذا كان هو مخطئاً.

قال لوجين وقد ازداد اهتياجه شيئاِ بعد شيء:

- يدهشني يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحي المسألة هذا الطرح. إنني على ما أكنه لك من اعتبار عظيم، ومن حب كبير إن صح التعبير، أستطيع أن لا أحب في الوقت ذاته فرداً من أفراد أسرتك. وإنني على تطلعي إلى أن أسعد بزواجك أستطيع في نفس الوقت أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع...

قاطعته دونيا تقول مندفعة:

- مهلاً مهلاً! دعك من فرط الحساسية هذا يا بيوتر بتروفتش. ولتكن ذلك الرجل الذكي النبيل الذي رأيته فيك دائماً والذي أحب أن أراه فيك. لقد وعدتك وعداً صريحاً، وأنا خطيبتك. فلتثق بي إذاً في هذه القضية، ولتكن على يقين من أنني أستطيع أن أقضي في الأمر محايدةً غير متحيزة. إن وقوفي موقف الحكم يدهش أخي مثلما يدهشك. وحين دعوته اليوم، بعد تلقي رسالتك، إلى حضور لقائنا هذا حتماً، فإنني لم أقل له شيئاً عما أنويه. ألا فافهم أنني سأكون مضطرة إلى أن أختار أحدكما وأترك الثاني إذا أنتما لم تتصالحا. إن المسألة مطروحة على هذا النحو، من جهتك ومن جهته على السواء. فلا أستطيع ولا ينبغي لي أن أُخدع في أمر اختياري. أنت ترى أن عليَّ أن أقطع صلتي بأخي، وهو يرى أن عليَّ أن أقطع صلتي بك. فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً، وأستطيع أن أعرف أيضاً أأنا عزيزة عليك حقاً، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني، هل أنت زوج لي حقاً؟

قال لوجين منزعجاً:

- يا آفدوتيا رومانوفنا، إن أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري، بل في وسعي أن أقول إنها جارحة جداً إذا نحن نظرنا إلى الوضع الذي يشرفني أن أحتله بالنسبة إليك. فبغضّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين. . . شاب مغرور، فأنني أرى من كلماتك أنك تتصورين إمكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي. فأنت تقولين «أنت أو هو»، مبرهنةً بذلك على ضعف شأني عندك، وقلة قيمتي في نظرك. ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا، نظراً للعلاقات التي بيننا، و. . . الالتزامات التي تربطنا.

صرخت دونيا وقد احمرَّ وجهها من الغضب احمراراً شديداً:

- كيف تقول هذا الكلام؟ لقد وضعتُ مصلحتك في منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياتي «كلّها»، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندي وقلة قيمتك في نظري! . .

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة، وتحرك رازوميخين في مكانه معبّراً عن اشمئزاز وغضب.

ولكن بيوتر بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض، حتى لقد كان يغدو أشدَّ شراسة وأميَل إلى المشاجرة عند كل كلمة جديدة، فكأنه يجد لذة في أن الأمور قد صارت إلى هذه الحال.

قال متفخماً:

- إن حب رفيق الحياة، إن حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ. ومهما يكن من أمر، فأنا لا أرضى أن أوضع في ميزان واحد مع. . . وعلى كل حال، ورغم أنني قد أعلنت صراحةً منذ لحظة أنني لا أستطيع ولا أريد أن أعرض، بحضور أخيك، جميع الموضوعات التي تشغل بالي، فإنني أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرحني كثيراً.

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولخيريا الكسندروفنا:

- إن ابنك قد أهانني أمس بحضور السيد راسّودكين[15] (أو السيد... هذا اسمك، أليس كذلك؟ معذرة... لقد نسيت اسمك - كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة -)، أقول إن ابنك قد أهانني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرةً سبق أن عبّرت لك عنها في حديث خاص جرى بيني وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة، إذ قلت إنني أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاةً ذاقت مباهج اليسر والرخاء والدعة، لأن ذلك يكفل السعادة وأنفع من الناحية الأخلاقية. ولكن ابنك قد تعمد أن يضخِّم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة، فاتهمني بأبشع التهم، ونسب إليَّ أسوأ الأهداف والخطط، مستنداً في ذلك إلى رسالتك أنت فيما أظن. لسوف يسعدني كثيراً يا بولخيريا ألكسندروفنا أن تقنعيني بأن الأمر لم يكن كذلك، فيحمل إليَّ هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة. اذكري لي الكلمات التي عمدت إلى استعمالها لنقل أقوالي والتعبير عن آرائي في الرسالة التي بعثت بها إلى روديون رومانوفتش!

قالت بولخيريا ألكسندروفنا مجمجمة:

- لا أتذكر. لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسي. لا أدري كيف أعادها لك روديا... لعله بالغ قليلاً...

- ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به إليه.

قالت بولخيريا ألكسندروفنا في وقار:

- يا بيوتر بتروفتش، الدليلُ على أننا، أنا ودونيا، لم نؤوِّل أقوالك تأويلاً سيئاً جداً، هو وجودنا كلتينا هنا.

قالت دونيا مؤيدة محبِّذة:

- أحسنت يا ماما!

فقال لوجين مستاءً:

- إذاً أنا المخطئ!

فبادرت بولخيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة:

- اسمع يا بيوتر بتروفتش، إنك لا تبرح تتهم روديون، بينما كتبت أنت نفسك في حقه أشياء غير صحيحة.

- لا أذكر أنني كتبت أي شيء غير صحيح.

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة، حتى دون أن يلتفت نحو لوجين:

- كتبتَ أنني وهبتُ بالأمس مالاً لا لأرملة الموظف الذي داسته الخيل - وهذه هي الحقيقة - بل لابنته (التي لم أكن قد رأيتها في الواقع قبل الأمس يوماً). كتبتَ ذلك لتوقع بيني وبين أهلي، ولتزرع في قلوبنا الشقاق؛ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدح في سلوك فتاة لا تعرفها. فهذا كله ليس فيه إلا نميمة وحقارة.

أخذ لوجين يرتجف من فرط الغيظ ارتجافاً شديداً وقال:

- معذرة أيها السيد، لئن أفضت في الكلام، في رسالتي، عن أعمالك وصفاتك، فإنما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي. أما رسالتي فإنني أتحداك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنك لم تبدد مالك، وأن تبرهن لي على أن تلك الأسرة، مهما تكن فقيرة بائسة، ليس بين أفرادها أحد ساقط.

- أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوي إصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر...

- معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمك وأختك؟

- فعلتُ هذا، إن كنت تحرص على أن تعلم ذلك. أجلستها إلى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تنادي ابنها:

- روديا!

واحمرت دونيتشكا. وقطب رازوميخين حاجبيه. وابتسم لوجين ابتسامة مسمومة فيها احتقار. وقال يخاطب دونيا:

- احكمي بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا: هل من سبيل إلى تفاهم؟ آمل أن تُحل هذه القضية الآن، وأن توضَّح مرة واحدة إلى الأبد. أما أنا فإنني أنسحب حتى لا أعكِّر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلي اللطيف، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية.

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته. ثم واصل كلامه قائلاً:

ولكنني أسمح لنفسي وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم إلى أنني آمل أن لا أُجبر في المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح. وإليك أنت خاصة يا بولخيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً إنما أتقدم بهذا الطلب، لا سيما وأن رسالتي قد بعثتُ بها إليك أنت، لا إلى أي شخص غيركِ.

انزعجت بولخيريا ألكسندروفنا وقالت:

- أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بيوتر بتروفتش؟ لقد شرحتْ لك دونيا، مع ذلك، الأسباب التي جعلتنا لا نلبي رغبتك. لقد كانت نياتها حسنة. ثم إنك حين تكتب إليَّ إنما تكتب بلهجة من يلقي أوامر. فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ؟ ألا عكس هذا هو ما ينبغي أن يكون. فأنت، أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف في معاملتنا، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شيء في سبيل أن نجيء إلى هنا، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيئتك، واقعتين تحت سلطانك.

- ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولخيريا ألكسندروفنا، لا سيما وأنكم ستقبضون، كما أُبلغتم ذلك منذ قليل، مبلغ ثلاثة آلاف روبل

أورثتكم إياها مارفا بتروفنا في وصيتها. يبدو لي أن هذا المبلغ قد جاء في أوانه، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة في مخاطبتي.

هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق.

فقالت دونيا مهتاجة غاضبة:

- في وسع المرء حقاً، حين يسمع قولك هذا، أن يفترض أنك كنت تعوِّل على عَوَزنا...

- على كل حال، لم يبقَ في إمكاني الآن أن أعوِّل على هذا العوز؛ وأنا خاصةً لا أريد أن أعرقل اطِّلاعكم على العروض السرية التي عرضها آركادي إيفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك، والتي أرى أن لها عندك شأناً كبيراً، حتى لقد تسرك كثيراً.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

- آه! يا رب!

وأصبح رازوميخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه.

سأل راسكولنيكوف أخته:

- ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختي؟

فقالت دونيا:

- نعم، أشعر بالخجل.

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً، صرخت تقول لبيوتر بتروفتش:

- بيوتر بتروفتش! اذهب من هنا!

لم يكن يبدو على بيوتر بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة. لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه، وبقوته، وأسرف في الاعتماد على ضعف ضحيته. وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه.

شحب وجهه، وتشنجت شفتاه. ثم قال:

- إذا اجتزتُ الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا، مودّعاً بكلمات كهذه الكلمات، فاعلمي أنني لن أرجع قط. يجب أن تفكّري في هذا. وليس من عادتي أن أنكل عن أقوالي.

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوثبة واحدة:

- يا للوقاحة! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط؟

- ماذا؟ أهكذا إذاً؟

بهذا هتف لوجين الذي لا شك في أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة، فإذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه، ويتابع كلامه قائلاً:

- هكذا إذاً؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن في وسعي أن أحتج؟

فتدخلت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- ما الذي يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة؟ ثم كيف يكون في وسعك أن تحتج؟ أتظن أنني أرضى أن أزوّج بنتي رجلاً مثلك؟ هيَّا اذهب! اتركنا إلى الأبد! ألا إننا نحن الذين أثمنا حين تورطنا في قضية غير شريفة؛ وأنا الآثمة أكثر من أي شخص آخر...

- ولكنك، يا بولخيريا ألكسندروفنا، قد ربطتني بالوعد الذي قطعته لي، وتنكلين عنه الآن. ثم... ثم... ثم إنني قد جُررت إلى تكبد نفقات...

إن هذا الادعاء الذي يدعيه بيوتر بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذي كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التي كان يبذلها لكبح جماح نفسه،

لم يطق عندئذ صبراً، فانفجر يضحك ضحكة صاخبة معربدة.

وخرجت بولخيريا ألكسندروفنا عن طورها، فأخذت تصرخ سائلة:

- نفقات؟ أيّ نفقات؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا؟ ولكن موظف القطار قد شحنها لك بالمجان! ثم ما هذا الكلام الذي تقوله عن الارتباط؟ أنحن الذين ربطناك إذن؟ ألا فلتتذكر يا بيوتر بتروفتش أنك أنت الذي ربطتنا، بل أنت الذي كبّلتنا تكبيلاً، كبّلت أيدينا وأرجلنا...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متوسلة:

- كفى، يا أماه، كفى! أرجوك!

والتفتت إلى بيوتر بتروفتش فقالت له:

- هلاّ ذهبت، من فضلك، يا بيوتر بتروفتش!

فقال بيوتر بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه:

- أنا ذاهب، غير أن هناك كلمةً أخيرة أحب أن أقولها: يبدو أن أمك نسيت نسياناً تاماً أنني قررت أن أتخذك زوجة لي حين كانت سمعتك مضغةً في جميع الأفواه. وأحسب أنني إذ خالفت رأي الناس ورددت إليك حسن السمعة كان في وسعي أن انتظر تعويضاً في أقل تقدير، بل وأن أطالب بمكافأة. آه... لقد كانت عيناي مغمضتين حتى هذه اللحظة! إنني لأدرك الآن أنني قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أُقم أيَّ وزن للشائعات التي كانت تلوكها الألسن عنك...

صرخ رازوميخين يقول وهو يثب عن كرسيه ويستعد للعراك:

- إنه يريد أن أهشّم رأسه!

وقالت دونيا:

- أنت رجل دنيء سافل!

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميخين:

- لا كلمة، ولا حركة!

ثم اقترب من لوجين، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح:

- هيًا أغرب من هنا! إياك أن تقول كلمة واحدة، وإلا . . .

فتأمله بيوتر بتروفتش بضع لحظات شاحبَ الوجه منقبضَ القسمات من الكره، ثم استدار وخرج.

قلَّما حمل قلب إنسان من الحقد على إنسان مثلما حمل قلب هذا الرجل من الحقد على راسكولنيكوف. لقد عدَّه، هو وحده، مسؤولاً عن كل شيء.

ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن، أثناء هبوطه السلَّم، كان ما يزال يتخيَّل أنه لم يخسر القضية، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال يمكن تدبيرها.

الفصل الثالث

إن النقطة الأساسية هي أن بيوتر بتروفتش كان حتى آخر دقيقة لا يصدِّق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية. لقد تفاخر وتعاظم وتبجح إلى أبعد حدود التفاخر والتعاظم والتبجح، وكان لا يتصور حتى إمكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه. إن غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبريائه، إن هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه. هو رجل بدأ من الصفر، وتعوَّد أن يعجب بنفسه إعجاباً شديداً، وأن يقدر ذكاءه وكفاءاته قدراً عظيماً، حتى لقد كان في بعض الأحيان، حين يخلو إلى نفسه، يتأمل وجهه في المرآة مدة طويلة، فرحاً كل الفرح. على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى، وينزله في المقام الأول من الاحترام، إنما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً. ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند بالند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة؟

وحين ذكَّر دونيا، بمرارة، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقِّها، فإنما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل. على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف

جميع تلك الشائعات، التي حرصت مارفا بتروفنا نفسها على أن تدحضها أمام الملأ، والتي أصبحت لا تتناقلها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة، بعد أن أعاد الناس إلى دونيا اعتبارها، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً. وما كان له على كل حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة. ومع ذلك كان يحس أنه قد منَّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها إلى مستواه، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه. وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه إنسان محسن، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخيِّر، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح. لذلك كان بيوتر بتروفتش، أثناء هبوطه السلَّم، يشعر بأنه إنسان لم يُفهم حق فهمه ولم يقدَّر حق قدره، وأنه أهين إهانة بالغة.

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته. حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصوَّر إمكان العدول عنها. لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة، منذ بضع سنين، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشي سكراً، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال. كان يتخيل، في قرارة قلبه، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة)، فتاة في ريعان الصبا ونضارة الشباب، على جانب عظيم من الحسن والجمال، تنتمي إلى أسرة كريمة، وتنعم بتربية حسنة، ولكنها مروَّعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمَّت بها، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً، وأن تذعن لمشيئته إذعاناً تاماً، وأن تظل ترى فيه، طوال حياتها، الرجلَ الذي أحسن إليها وأنعم عليها، فتقدسه تقديساً، وتمحضه نفسها مخلصةً، ولا يُعجبها أحد سواه. ما أكثر المشاهد الجميلة والصورة اللذيذة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغري الممتع، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلاً حين يخلد إلى الراحة من أعماله! وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدهد خياله طوال تلك السنين، ها قد أوشك أن يتحقق: إن

جمال آفدوتيا رومانوفنا وحسن تربيتها قد آذهلاه، وإن وضعها السيىء وحالتها اليائسة يحضانه عليها ويشدانه إليها كثيراً؛ بل إن فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله: إن الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم، والنشاط والقوة، والعفة والفضيلة، وهي أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا)، وأن إنسانة كهذه الإنسانة هي التي ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان، وهي التي ستمحي أمامه من فرط احترامها له وتقديسها إياه، فليس عليه إلا أن يأمر حتى تطيع! . . وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصد، أن يقرر صاحبنا، قبيل لقياها بقليل، وبعد تأجيلات كثيرة، أن يغيِّر ميدان عمله وأن يقتحم مجالاً أوسع، وأن يشق لنفسه طريقاً في ذلك المجتمع الراقي الذي طالما شدته إليه أحلامه. كان صاحبنا قد قرر أن يجرِّب حظه في بطرسبرج. وهو يعلم حق العلم أن للنساء «دوراً عظيماً» في هذا المجال، وأن فيهن نفعاً كبيراً. أن الفتنة التي تشع من امرأة أخّاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمِّل حياته، وأن تجتذب إليه مودة الناس، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر. . .

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة والكريهة نزول الصاعقة. هذه مهزلة فظيعة، هذا سخف رهيب! إنه لم يزد على أن «تبجَّح» قليلاً، إن وقته لم يتسع لأن يقول كل ما في نفسه؛ لقد كان يمزح، لقد اندفع بعض الاندفاع. . . هذا كل شيء. . . فكيف ينتهي الأمر هذه النهاية الخطيرة؟! . . حتى لقد كان يحب دونيا، يحبها بطريقته الخاصة ويتسلَّط على روحها في أحلامه. . . لا، لا، يجب إصلاح كل شيء غداً، غداً. . . لا بد من معالجة الأمور، لا بد من مداواة الأمور، ولا بد خاصةً من إحباط أعمال ذلك الغر الوقح الذي كان سبب البلاء كله.

وتذكَّر رازوميخين وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً، لكنه لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية. قال يحدث نفسه ساخراً:

«لا ينقصني إلا هذا. . . لا ينقصني إلا أن أوازن بيني وبينه، أن أضع نفسي في مستواه!».

إن الشخص الذي كان لوجين يخشاه حقاً إنما هو سفيدريجايلوف. . . الخلاصة: أن هموماً كثيرة كانت تنتظره.

. . . .

قالت دونيا وهي تعانق أمها وتقبلها:

- لا بل أنا المذنبة، أنا المذنبة! لقد استسلمت لإغراء ماله؛ ولكنني أقسم لك يا أخي أنني لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً إلى هذا الحد من الدناءة. ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لإغراء أي شيء في هذا العالم! لا تتهمني يا أخي!

فتمتمت بولخيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور، كأنها لما تدرك ما جرى بعد:

- الله خلَّصنا منه! إن الله خلَّصنا منه!

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين، حتى لقد انطلقوا بعد خمس دقائق يضحكون. غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين إلى حين، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانته في هذه الآونة الأخيرة. ما كان لبولخيريا ألكسندروفنا أن تعتقد في يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرَّ لحادث كهذا الحادث. كانت في ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة! أما رازوميخين فكان يشعر بسعادة قصوى. إنه لا يجرؤ بعدُ أن يظهر فرحته إظهاراً كاملاً، ولكنه كان يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كمن انتابته حمى. لكأن قلبه قد تخلص من عبء ضخم وحمل ثقيل. سيكون في وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته، وأن يضع نفسه في خدمتهما. وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله.

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً في مكانه متجهم الوجه تقريباً، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر. إنه وهو الذي ألحَّ أكثر منهم جميعاً على أن يُطرد لوجين، يبدو الآن أقلَّهم اهتماماً بما جرى. وقدَّرت دونيا، رغم إرادتها، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها، وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة. سألته دونيا وهي تقترب منه:

- ماذا قال لك سفيدريجايلوف؟

وصاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

- آ... نعم... نعم... ماذا...

فرفع راسكولنيكوف رأسه، وقال:

- إنه يصرُّ على أن يهدي إليك عشرة آلاف روبل، وقد أعرب عن رغبته في أن يراك مرة أخرى بحضوري.

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا:

- أن يراها؟ مستحيل!.. لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال! وكيف يجرؤ أن يقدم لها مالاً؟!

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيدريجايلوف من حديث، مغفلاً ذكر ما قصَّه عليه سفيدريجايلوف من أن مارفا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها، وذلك حتى لا يبتعد عن الموضوع، ولاشمئزازه من قول أيِّ كلمة زائدة.

سألته دونيا:

- بماذا أجبته؟

- قلت له أولاً إنني لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه. فأعلن لي عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل إلى أن يحصل على موعد. وقد أكد لي أن العاطفة الجامحة التي كان يشعر بها نحوك لم تكن إلا هوى طارئاً، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأيِّ عاطفة. كل ما يريده هو أن

لا تتزوجي لوجين. على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة.

- ما رأيك في هذا الرجل يا روديا؟ ما هو الانطباع الذي أحدثه في نفسك؟

- أعترف بأنني لم أفهم حق الفهم. إنه يقدم عشرة آلاف روبل، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً. يصرِّح بأنه سيسافر إلى مكان لا أدري أين هو، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسي ما قاله. وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج، وأنهم قد وجدوا له خطيبة... أغلب الظن أنه يخفي خططاً معينة قد تكون سوداء. ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيِّت لك نيات سيئة، وإلا لما عمد إلى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماقة. ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال رفضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال. مهما يكن من أمر، فقد بدا لي إنساناً غريب الأطوار... حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون. ولكن ربما أكون مخطئاً. على أن موت مارفا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلَّف في نفسه أثراً كبيراً.

- رحمة الله عليها! لسوف أظل أصلي لها دائماً، دائماً. ما الذي كان يمكن أن نصير إليه، أنا ودونيا، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل؟ رباه! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء! آه يا روديا! في هذا الصباح كان كل ما بقي لنا من مال هو ثلاثة روبلات، ولم يكن قد بقي علينا إلا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه.

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها. فبقيت واقفة، ساكنةً مفكِّرة.

قالت مدمدمة وهي ترتعش:

- إن في ذهنه أمراً رهيباً!

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد. فقال لدونيا:

- أظن أنه سيتاح لي أن ألقاه أكثر من مرة.

وهتف رازوميخين قائلاً بلهجة قوية:

- لا تخافوا، سوف نراقبه مراقبة دقيقة. سأراقبه أنا! لن يغيب عن بصري. لقد أذن لي روديا بذلك. قال لي هو نفسه منذ قليل: «عليك أن تحمي دونيا». هل تأذنين لي بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا؟

ابتسمت دونيا، ومدَّت إليه يدها، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق. وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تنظر إليها وجلة مرتاعة. غير أن الأمل في الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدّأ روعها وطمأن نفسها.

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا في محادثة حامية. وحتى راسكولنيكوف، الذي لزم الصمت، كان يصغي بعض الوقت بانتباه. كان رازوميخين يتكلم في إسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً:

- لماذا، لماذا تسافران؟ ما عساكما تعملان في مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك؟ أنتم هنا قد اجتمع شملكم، وكل واحد منكم محتاج إلى الآخر، محتاج إليه أشد الاحتياج، إبقيا بعض الوقت على الأقل. أما أنا فاقبلوني صديقاً، إقبلوني شريكاً. وأني لأؤكد لكم أننا سننشئ مشروعاً ممتازاً. اسمعوا: سأعرض عليكم مشروعي بأدق تفاصيله. لقد وافتني هذه الفكرة منذ الصباح، قبل أن يحدث شيء مما حدث الآن... إليكم الموضوع: إن لي عماً (سأعرِّفكم به، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً)... وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل، ويعيش من راتب تقاعدي يفي بحاجاته. وهو ما برح منذ سنتين يلح عليَّ أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة في المائة. إنني أدرك حيلته: فكل ما يريده هو أن يساعدني. في العام الماضي لم أكن محتاجاً إلى هذا المبلغ، أما في السنة الحالية فإنني لا انتظر إلا وصول عمي لأطلبه منه. فإذا أضفتم ألف روبل من عندكم كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع، فنكون شركاء. فما هو ذلك المشروع؟

هنا طفق رازوميخين يشرح مشروعه، فأفاض في الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً، وأكَّد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة، وأنها ربما درَّت أرباحاً طائلة. كان رازوميخين يحلم أن يصبح ناشراً، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه «Schwach»[16] «ضعيف» في الألمانية، والحق أنه لم يزعم له ذلك إلا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفةً: لقد كذب، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف).

وتابع رازوميخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة:

- فلماذا، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع أننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح، أعني رأس المال؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً، ولكننا سوف نعمل، تعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل روديون وأعمل أنا. إن نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة، وما سيكون مصدر قوتنا، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجَم. سوف نترجم، وننشر، ونتابع في الوقت نفسه دراستنا. إنني أستطيع أن أكون الآن نافعاً، لأنني حصَّلت خبرة واسعة. لقد سلخت سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين، فأصبحت أعرف شؤون النشر معرفة تامة. صدقوني إذا قلت لكم إن الأمر أيسر مما تظنون. فلماذا، لماذا لا ننتهز الفرصة التي تعرض لنا؟ إنني أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدِّث عنها أحداً قط، ويكفي أن أعرض فكرة نشرها حتى أجني من ذلك مائة روبل عن كل كتاب؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته حتى بخمسمائة روبل! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشرون الحمقى أيَّ تردد إذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب! أما الجانب المادي من المشروع، أعني الطباعة والورق والبيع وما إلى ذلك، فإنكم تستطيعون أن تعتمدوا

عليَّ فيه كل الاعتماد. إنني أعرف هذه الأمور معرفة عميقة. وسوف نبدأ بداية متواضعة، ولكننا سنوسِّع المشروع في المستقبل. ومهما يكن من أمر فسوف نجني ما يسدُّ حاجاتنا ويكفي نفقاتنا.

كانت عينا دونيا تسطعان. قالت:

- إن ما تقوله يعجبني كثيراً يا دميتري بروكوفتش!

وتدخلت بولخيريا ألكسندروفنا فقالت:

- أنا لا أفهم في هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال. قد يكون هذا كله حسناً جداً، الله أعلم... ولكن... من جهة أخرى... طبعاً... حين يشرع المرء في شيء ما، فإنه يسير قليلاً في المجهول!.. على كل حال سيكون علينا حتماً، إذا نحن قررنا المشاركة في المشروع، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت. ونظرت إلى راسكولنيكوف.

سألته دونيا:

- ما رأيك أنت يا أخي؟

فأجاب راسكولنيكوف:

- رأيي أن فكرته ممتازة. ولكن لا ينبغي لنا، بعدُ، أن نفكر في إنشاء دار نشر كبيرة. يجب علينا أن نكتفي بأن ننشر في البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح. أنا نفسي أعرف كتاباً سيُباع حتماً. أما عن كفاءة رازوميخين، فيجب أن تكونوا مطمئنين. لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح. على كل حال، سيتسع وقتنا للكلام في هذا الموضوع مرة أخرى...

صاح رازوميخين يقول:

- مرحى! والآن اسمعوا: توجد هنا، في هذا المنزل نفسه، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذي أجَّروكم هذه الغرفة. إنها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف. هي مفروشة. وليس أجرها باهظاً. فيها ثلاث

حجرات. خذوها مؤقتاً. سأمضي أرهن ساعتك غداً، فأجيئكم بالمال، ثم يُدبَّر كل شيء. الأمر الأساسي هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا، ومعكما روديا... ولكن إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

سألت بولخيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعةً:

- كيف يا روديا؟ أأنت ذاهب؟

وصاح رازوميخين يسأله مستنكراً:

- أفي مثل هذه اللحظة تذهب؟

وكانت دونيا تنظر إلى أخيها بدهشة تمازجها ريبة. كان راسكولنيكوف ممسكاً قبعته يتهيأ للخروج. وقال بلهجة غريبة:

- لكأنكم حقاً ستدفنونني، أو لكأنكم تودعونني إلى الأبد على الأقل.

وكان يبتسم، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء. وأضاف يقول:

- ومن يدري على كل حال؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً!

كان راسكولنيكوف قد تصوَّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه، فإذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير إرادة منه.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

- ماذا أصابك يا روديا؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة:

- إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق مما يريد أن يقوله:

- نعم، لا بد أن أذهب...

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب. وتابع كلامه:

- أقصد. . . حين جئت إلى هنا. . . كنت أريد أن أقول لك يا أماه، ولك أنت أيضاً يا دونيا، أن من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت. أنا أحس بأنني مريض، أنا لست هادئ البال، سأرجع في المستقبل، حين. . . حين يصبح ذلك في الإمكان. لن أنساكم، وسأظل أحبكم. . . دعوني، دعوني وحيداً! ذلك ما كنت قد قررته. وقد قررته واعياً كل الوعي، مدركاً كل الإدراك!. . أريد أن أكون وحيداً مهما يحدث لي، سواء أهلكت أم لم أهلك! انسوني نسياناً تاماً، ذلكم أفضل. . . لا تسألوا عني، لا تستطلعوا أخباري. سوف أجيء من تلقاء نفسي متى وجب أن أجيء. . . أو سوف أدعوكم إليّ. ولعلّ كل شيء سيُبعث بعثاً جديداً حينذاك. أما الآن فاعدلوا عن رؤيتي وتنازلوا عن لقائي إذا كنتم تحبونني، وإلا شعرت نحوكم بكره وبغض. إنني أحسّ بهذا. . . وداعاً!

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا: رباه! يا رب!

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل إلى مغالبته. وكذلك كان رازوميخين.

قالت الأم المسكينة تتوسل إلى ابنها:

- روديا، روديا! فلنتصالح يا روديا! فلنعد كما كنا!

استدار راسكولنيكوف ببطء، واتجه نحو الباب، فأدركته دونيا، وهمست تقول له مشتعلةَ العينين استياءً واستنكاراً:

- أخي، ماذا تفعل بأمنا!

فألقى عليها نظرة ثقيلة. وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعي ما أراد أن يقول وعياً تاماً:

- ما هذا بشيء، سأرجع، سوف أزوركم. . .

وخرج.

هتفت دونيا تقول:

- إنسان خالٍ من الإحساس! أناني فظيع!

- بل هو مجنون، لا خالٍ من الإحساس! لقد فقد عقله، كيف لا ترين هذا؟ أنت الخالية من الإحساس...

كذلك دمدم رازوميخين هامساً في أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو يضغط يدها ضغطاً عنيفاً. ثم هتف يقول لبولخيريا ألكسندروفنا التي أصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة: سأرجع حالاً!

وأسرع يخرج من الغرفة.

كان راسكولنيكوف ينتظره في آخر الدهليز. وقال له:

- كنت أعرف أنك ستهرع إليَّ لتلحق بي. عد إليهما، وابق معهما. وكن عندهما غداً... ودائماً... قد أرجع إذا استطعت... وداعاً!

وابتعد دون أن يمد إليه يده مصافحاً.

غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك، حائراً أبلغ الحيرة:

- ولكن إلى أين تذهب! ماذا بك؟ ما الذي أصابك؟

فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى.

- أقول لك مرة أخيرة إلى الأبد: لا تسألني عن شيء، فليس عندي ما أجيبك به... ولا تأتِ إليَّ! قد أرجع أنا إلى هنا... اتركني... أما هما... فلا تتركهما... هل تفهم؟

كان الظلام يسود الدهليز. وكان الشابان قريبين من مصباح. لبثا قرابة دقيقة ينظر كل منهما إلى صاحبه صامتاً. سوف يتذكّر راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته. إن النظرة الحارة الثابتة التي تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة في كل لحظة، وكانت تنفذ إلى أعماق نفس رازوميخين، وتغوص في قرارة وجدانه. ارتعش رازوميخين فجأة. كأن شيئاً غريباً قد مرَّ بينهما...

كأن فكرة تتسلل خفية، تندس خلسةً، ولكنها فظيعة، رهيبة، جهنمية، سرعان ما فهمها هذا وذاك! . . اصفرَّ وجه رازوميخين اصفرار الموت!

قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً:

- هل فهمت الآن؟

ثم أضاف:

- ارجع إلى هناك. عد إليهما.

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة، ومضى. . .

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولخيريا ألكسندروفنا. لن أصف كيف رجع رازوميخين إلى المرأتين، كيف هدَّأ روعهما، كيف أكَّد لهما أن من الواجب أن يُترك روديا للراحة بعد المرض، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة، وأنه سيأتي يزورهما، بل وأنه سيجيء إليهما كل يوم، وإنما يجب أن لا يُزعَج الآن لأنه في حالة عصبية شديدة، وأنه، هو رازوميخين، سيمضي إليه، ليسهر عليه، ويعتني به، ويجيئه بطبيب حاذق، بأحسن طبيب في المدينة، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد.

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأتين، منذ ذلك المساء، ابناً وأخاً.

الفصل الرابع

اتجه راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكن فيه صونيا قرب القناة. هو منزل من طابقين، قديم مطلي بلون أخضر.

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه على معلومات موجزة غير واضحة أتاحت له مع ذلك أن يصل إلى مسكن الخياط كابرناؤموف. لمح في ركن من الفناء مدخل سلَّم ضيق مظلم، فصعد أخيراً إلى الطابق الأول، ودخل الرواق الذي يدور حوله. وفيما هو يطوِّف في الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرناؤموف، فُتح على حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاث خطوات منه، فتشبث بهذا الباب على غير إرادة منه.

- مَنْ هنا؟ - سأله صوت امرأة مضطرب.

فأجاب راسكولنيكوف:

- هذا... هذا أنا... جئت لأراك!

واجتاز الباب إلى حجرة المدخل الصغيرة. كان في الحجرة كرسي خاسف وُضعت عليه شمعة صغيرة في شمعدان متعقف من نحاس.

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف:

- أهذا أنت؟ رباه!

ووقفت في مكانها كالمتسمرة.

- من أين الدخول إلى غرفتك؟ من هنا؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال، ثم مضى يتنقل إلى الغرفة محاولاً أن لا ينظر إلى صونيا.

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة، فوضعتها في مكانها، ووقفت أمامه شديدة القلق والرعب لهذه الزيارة التي لم تكن متوقعة. إن الاضطراب الذي اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه. واحمر وجهها الشاحب فجأة، حتى لقد صعدت إلى عينيها دموع. كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد. . .

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة. لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها.

هي غرفة واسعة سعة كافية، لكن سقفها واطئ جداً. إنها الغرفة الوحيدة التي أجَّرها كابرناؤموف. وهي تتصل بمسكنه بباب في الجدار الأيسر. وعلى الجهة اليمنى، يوجد في الجدار باب آخر، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً، ويفضي إلى شقة أخرى. إن الغرفة تشبه أن تكون سقيفة، لها شكل مضلَّع رباعي غير منتظم، فمنظرها لهذا السبب يؤذي البصر. إن حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة، يقطعها قطعاً مواربا،ً فإحدى الزوايا، وهي زاوية حادة جداً، تغور في آخر الغرفة، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف. أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً. ولا يكاد يوجد في الغرفة أثاث. هناك سرير في الركن الأيمن، وإلى جانب السرير كرسي أقرب إلى الباب. وعلى طول الحائط نفسه، قبالةَ الباب المؤدي إلى الشقة الثانية، توجد مائدة من خشب أبيض، يغطيها غطاء رخيص أزرق، وبقربها كرسيان من قش. وفي حذاء الحائط المقابل، على مقربة من الزاوية الحادة، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة، وكأنها تائهة في

الفضاء. ذلك كل ما تضمه الغرفة. أما ورق الجدران فأصفر مهترئ مدخّن مسود في الأركان. لا بد أن جو الغرفة يكون رطباً جداً وخانقاً في الشتاء. إن الفقر يخطف البصر، حتى أن السرير لم يكن له ستارة.

كانت صونيا تنظر صامتةً إلى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر الأمر، كأنها واقفة أمام قاضٍ سيتوقف عليه مصيرها كله...

قال لها دون أن يرفع عينيه:

- إنني أصل في ساعة متأخرة جداً... أليست هي الحادية عشرة؟

فدمدمت صونيا تقول:

- نعم.

ثم أسرعت تضيف، كأن ذلك خروج لها من المأزق:

- نعم نعم، هي الحادية عشرة... منذ قليل دقت ساعة أصحاب البيت. سمعتها بنفسي... هي الحادية عشرة فعلاً...

قال راسكولنيكوف متجهم الوجه:

- أجيء إليك الآن آخر مرة. مع أن هذه هي المرة الأولى التي أزورك فيها. وقد لا أراك بعد اليوم قط.

سألته:

- أأنت... مسافر؟

- لا أدري... سيتقرر كل شيء غداً.

- إذاً لن تذهب غداً إلى عند كاترينا إيفانوفنا؟

وكان صوت صونيا يختلج.

- لا أدري... كل شيء رهن بالغد... بصباح الغد. ثم إن المسألة ليست هذه: لقد جئت لأقول لك إذاً...

ورفع إليها نظرة حالمة، فأدرك فجأة أنه جالس، على حين أنها ما تزال واقفة أمامه.

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة، فأصبح فيه رقة وعذوبة ومودة:

- لماذا تبقين واقفة؟ اجلسي.

فجلست. وظل يتأملها قرابة دقيقة، ظل يتأملها بمحبة، بعاطفة، بما يشبه أن يكون شفقة. ثم قال لها:

- ما أشد نحولك! ما هذه اليد؟ إنها لتكاد تكون من هزالها شفافة! أصابعك أصابع ميت...

فأجابته قائلة:

- هكذا كنت دائماً.

- حتى حين كنت تقيمين مع أهلك؟

- نعم.

- نعم نعم... هذا طبيعي...

كذلك قال بلهجة متقطعة. إن تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا من جديد فجأة. ونظر مرة أخرى حواليه.

- أمن أسرة كابرناؤموف استأجرت هذا؟

- نعم.

- هل يقطنون وراء هذا الباب؟

- نعم... لهم غرفة كهذه.

- هل يعيشون جميعاً في غرفة واحدة؟

- نعم، في غرفة واحدة.

قال راسكولنيكوف متجهم الهيئة:

- لو كنت أعيش في مثل هذه الغرفة لشعرت في الليل بخوف.

فأجابت صونيا، وكأنها لم تثب إلى رشدها بعد، ولا جمعت شتات أفكارها:

- أصحاب البيت لطاف جداً. وجميع الأثاث، جميع الأثاث وكل شيء لهم هم. إنهم طيبون جداً، وكثيراً ما يأتي أولادهم إلى عندي.

- هم تأتاؤون، أليس كذلك؟

- نعم... وهو يتأتئ ويعرج. وامرأته أيضاً. بل قل إنها لا تتأتئ، ولكن كأن بعض الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها. إنها طيبة جداً. كان هو قناً. ولهما أولاد. الابن البكر وحده يتأتئ... أما الآخرون فهم عليلون فحسب... لكنهم لا يتأتئون.

ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة:

- كيف عرفت أنت هذا؟

- أبوك قصَّ عليَّ كل شيء. قال لي كل شيء عنك... وحكى لي أيضاً كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودي بعد الساعة الثامنة، وكيف ركعت كاترينا إيفانوفنا أمام سريرك.

اضطربت صونيا. ثم دمدمت تقول مترددة:

- رأيته اليوم رؤية واضحة مميَّزة.

- مَنْ؟

- أبي. كنت سائرة في الشارع، غير بعيد عن هنا، عند الناصية، في نحو الساعة العاشرة، فتراءى لي أنه يسير أمامي. لكأنه هو حقاً. حتى لقد خطر ببالي أن أسرع إلى كاترينا إيفانوفنا...

- كنت تتجولين؟

فقالت صونيا بصوت متقطع، وقد اضطربت من جديد، وخفضت عينيها:

- نعم.

- هل كانت كاترينا إيفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتكاد تضربك حين كنت تعيشين معهم؟

صاحت صونيا تقول وهي تنظر إلى راسكولنيكوف نظرة فيها ما يشبه الذعر:

- لا، لا، ما هذا الذي تقوله؟

- أأنت تحبينها إذاً؟

- هي؟ أظن...

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية، وصوت بطيء، ضامّةً يديها بحركة تنم على الألم. وواصلت كلامها تقول:

- ليتك... ليتك تعرفها! إنها كالطفلة تماماً. عقلها مضطرب اضطراباً تاماً... لقد قاست في حياتها آلاماً كثيرة... ومع ذلك، ما أذكاها! ما أكرمها! إنها طيبة جداً! أنت لا تعرف، أنت لا تستطيع أن تعرف! آه!..

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد. كان الألم يهصر قلبها، فكانت تلوي يديها من فرط الكمد، واحمرَّ خداها من جديد، حتى صارا بلون الأرجوان. كان العذاب يُقرأ في عينيها. واضح أن وتراً حساساً جداً قد مُسَّ الآن في نفسها، وأنها ترغب رغبة قوية في أن تعبّر عن شيء، في أن تتكلم، في أن تدافع عن كاترينا إيفانوفنا. أن نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفىء أوارها يرتسم الآن على قسمات وجهها.

وتابعت كلامها تقول:

- تضربني؟ هي تضربني؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟ وهبها ضربتني! أي ضير في ذلك؟ إنك لا تعرف شيئاً، لا تعرف شيئاً البتة! هذه إنسانة تعيسة شقية بائسة... وهي مريضة... إنها تنشد العدالة... تسعى

إلى العدالة . . . هي طاهرة نقية . ومن شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء، إنما تطلب العدالة في كل شيء . قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقترف أي ظلم يجافي العدالة . إنها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر، وهي لذلك تغضب كما يغضب طفل، كما يغضب طفل! هي امرأة عادلة، عادلة . . .

- وما الذي ستصيرين عليه؟ - سألها راسكولنيكوف .

فألقت عليه نظرة مستفهمة .

قال لها :

- سيبقون على ذراعيك . صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك، وأن أباك كان يجيء إليك أنت ليطلب مالاً . ولكن ما الذي سيحدث الآن؟

قالت صونيا بحزن :

- لا أدري .

- هل يبقون هناك؟

- لا أدري . إن أجر المسكن لم يُدفع، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم؛ فأعلنت كاترينا إيفانوفنا أنها لن تمكث دقيقة واحدة .

- لماذا تتصرف بتكبُّر هكذا؟ أعليك تعتمد؟

- لا تتكلم هكذا، لا . . .

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد، أو قل اهتاجت من جديد، كما يفعل طائر من طيور الكناري أو غيره من الطيور :

- نحن نشترك في كل شيء، أنا وهي . . .

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

- ماذا تريد لها أن تكون؟ ماذا؟ آه . . . ما أكثر ما ذرفت من دموع،

ما أكثر ما ذرفت من دموع في هذا اليوم! إن عقلها مضطرب، ألم تلاحظ أنت هذا إذن؟ نعم، عقلها مضطرب، عقلها مختل: تارةً تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً، من أجل أن يكون على المائدة مقبّلات. . . ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغي أن تضمه من أطعمة؛ وتارةً تلوي يديها كمداً وحسرة، وتبصق دماً، وتذرف دموعاً، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس. ثم ما تلبث أن تتعزى من جديد، واضعةً أملها فيك، قائلة إنك الآن سندها، وأنها ستقترض مالاً من أحد الناس، لتعود بي إلى مسقط رأسنا، فننشىء هناك مدرسةً لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مشرفة عليها، ونبدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة. وهي في هذه الحالة تأخذ تقبلني وتضمني إلى صدرها وتواسيني وتعزيني. آه، ما أقوى إيمانها بأحلامها هذه، ما أقوى إيمانها بهذه الأحلام! هل يمكننا أن نعارضها؟ مستحيل! . . اليوم قضت النهار كله في مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الثياب. ورغم ضعفها الشديد صعدت إلى غرفتها بطشت، فما إن وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت، وحتى خارت قواها فلم تملك إلا أن تتهاوى على سريرها مهدودة. وفي هذا الصباح ذهبنا كلتانا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا[17]، لأن أحذيتهما قد تمزقت تمزقاً تاماً، ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال، رغم جميع حساباتنا، لم يكفنا المال، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة، فهي صاحبة ذوق كما تعلم، فما كان منها إلا أن أجهشت تبكي، هنالك، في وسط الدكان، أمام الباعة. لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً. حقاً كان منظرها يثير أعمق الألم. . .

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة:

– يفهم المرء بعد هذا أن تعيشي هذه الحياة التي تعيشينها. . .

فهتفت صونيا تقول:

– ولكن هي، هي، ألا ترثي لحالها؟ ألا تشفق عليها؟ أنا أعلم أنك

وهبت لها آخر قرش تملكه، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد. فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء؟ آه! يا رب! كم من مرة، كم من مرة أبكيتها. في الأسبوع الماضي، مثلاً. . . ألا أنني لأشعر بالخزي والعار! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبي بأسبوع! نعم، كنت قاسية، قاسية! كم من مرة تصرفت هذا التصرف! آه. . . ما أشد ما أشعر به اليوم من ألم حين أتذكر هذا!

كانت صونيا تلوي يديها حسرةً وهي تتكلم، من فرط ما كانت تحس به من ألم.

قال لها راسكولنيكوف:

- أأنت القاسية إذاً؟

- نعم أنا القاسية، أنا. . .

وعادت تتابع كلامها وهي تبكي، فقالت:

- جئت أزورهم في ذلك اليوم، فقال لي المرحوم: «اقرئي لي يا صونيا، فإنني أحس صداعاً في رأسي. . . اقرئي لي هذا الكتاب». هو كتاب أعاره إياه آندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن في هذا المنزل ويقتني كتباً عجيبة! قلت له: «آن لي أن أذهب»، ولم أشأ أن أقرأ له، لأنني قد أتيت إلى عندهم خاصةً من أجل أن أُري كاترينا إيفانوفنا ياقات صغيرة: كانت اليزافيتا السمسارة قد جاءتني بياقات وأكمام جميلة جداً، جديدة كل الجدة، تزينها رسوم حلوة، مع أنها بخسة الثمن، وقد أُعجبت كاترينا ايفانوفنا بها كثيراً، فجربتها على نفسها ونظرت في المرآة فوجدتها جميلة، جميلة جداً. فقالت لي: «صونيا، أهديها إليَّ، أرجوك». نعم هذا ما قالته لي: «أرجوك»، لأنها هامت بها هياماً جنونياً. ولكن ما عساها تصنع بها؟ ما حاجتها إليها، وأين ترتديها؟ المهم أنها أُخذت بها، هكذا، لأنها تذكُرها بالعهود الجميلة الماضية! إن كاترينا ايفانوفنا تنظر في المرآة، فتعجب بنفسها، وليس عندها ثوب تلبسه، ليس

عندها ثوب واحد، ليس عندها شيء البتة، منذ سنين عدة! وهي لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً في يوم من الأيام، لأنها شديدة الإباء والكبرياء، وتؤثر على ذلك أن تعطي ما بقي عندها. ومع ذلك طلبت مني أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة. لأنها وجدتها جميلة جداً. ولم أشأ أنا أن أحرم نفسي منها، فقلت لها: «فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترينا ايفانوفنا؟» نعم، ذلك ما قلته لها. آه... ما كان ينبغي أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال! ألقت عليَّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب... عبَّر وجهها عن حزن فظيع... لأنني رفضت أن أعطيها الياقات... وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال... ليست الياقات هي التي أحزنتها، وإنما أحزنها رفضي أنا... لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح. آه... ليتني أستطيع أن أرجع إلى الوراء، وأن أستردَّ كل ما أفلت من لساني! آه... إنني... ولكن ماذا؟ لا بد أن هذا كله لا يعنيك في شيء!

سألها راسكولنيكوف:

- أأنت عرفت اليزافيتا السمسارة؟

فأجابته مدهوشة بعض الدهشة:

- نعم... هل عرفتها أنت أيضاً؟

قال راسكولنيكوف بعد صمت، دون أن يجيب عن سؤال صونيا:

- كاترينا ايفانوفنا في آخر درجات مرض السل، وستموت قريباً...

- لا، لا، لا تقل هذا الكلام.

قالت صونيا ذلك، وتناولت يديه على غير شعور منها، كأنها تتوسل إليه أن يمنع هذا الأمر.

قال راسكولنيكوف:

- ولكن الأفضل أن تموت!

فأخذت صونيا تردِّد مروَّعةً تائهة العقل زائغة النظرات:

- لا، ليس هذا أفضل، ليس هذا أفضل...

- والأولاد، ما أنت صانعة بهم عندئذ، لا مكانَ لهم إلاّ في بيتك. وأنت لا تستطيعين ضمّهم إليك؟

- آه... لا أدري...

بذلك هتفت صونيا يائسة وهي تمسك رأسها بيديها. كان واضحاً أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرة، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها.

وعاد يلج في السؤال بغير رحمة فيقول:

- وماذا إذا مرضت أنتِ فنقلتِ إلى المستشفى قبل موت كاترينا ايفانوفنا؟ ما الذي سيحدث عندئذ؟

- آه... ما هذا الذي تقوله؟ لا، لا... ذلك مستحيل.

وتقبَّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب.

وتابع راسكولنيكوف إلقاء أسئلته وهو يبتسم ابتسامة لا رحمة فيها:

- مستحيل؟ كيف؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضي. فما الذي سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون في الشارع، وستمضي هي تسعل وتستجدي وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون. ثم تتهاوى، فتُنقل إلى قسم الشرطة، ثم إلى المستشفى، فتموت. أما الأولاد...

- لا، لا، لن يأذن الله بهذا.

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق. كانت قد استمعت لكلامه صامتةً تنظر إليه مروَّعة، ضامةً يديها في ضراعة خرساء كأن كل شيء متوقف عليه.

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وانقضت دقيقة. كانت صونيا واقفة، متهدلة الذراعين، خافضة الرأس، تعاني ألماً شديداً وعذاباً رهيباً.

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة:

- وما من وسيلة لادخار أي مال للأيام السود، أليس كذلك؟

فدمدمت تجيبه:

- طبعاً... لا...

ثم أضاف ساخراً:

- ولكن هل حاولتِ؟

- حاولت.

- ولم تفلح المحاولة؟ طبعاً لم تفلح! لا داعي إلى السؤال...

وعاد يسير في الغرفة. وانقضت دقيقة أخرى. قال:

- أظن أنك تحصلين على النقود، لكن ليس كل يوم؟

واضطربت صونيا أكثر من السابق، وتضرج وجهها مرة أخرى، وهي تهمس بجهد مؤلم: - لا.

قال علي حين غرة:

- وسيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً.

فهتفت صونيا تقول بصوت قوي، طائش، كأنها طُعنت بخنجر:

- لا، لا، هذا مستحيل. إن الله، إن الله لن يسمح بمثل هذا السقوط!

- دعكِ من هذا الكلام! إنه يسمح بمثله وأكثر.

فردَّدت صونيا تقول خارجةً عن طورها:

- لا، لا، إن الله سيحميها!

أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث:

- ولكن قد لا يكون هناك إله! ثم ضحك ونظر إليها.

عندئذ تشوّه وجه صونيا تشوهاً فظيعاً، وسرت في قسماتها رعدة من

تشنج. وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوي ولوم شديد، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكن لم توافها كلمة واحدة، وفجأة انفجرت تنشج نشيجاً مراً، نشيجاً مراً جداً، وهي تغطي وجهها بيديها.

قال راسكولنيكوف بعد صمت:

- تقولين إن كاترينا ايفانوفنا قد فقدت عقلها، ولكنني أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك.

وانقضت خمس دقائق. كان راسكولنيكوف يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، دون أن يتكلم، ودون أن ينظر إليها. واقترب منها أخيراً. كانت عيناه تسطعان. أمسك كتفيها بيديه. وأنعم النظر إلى وجهها الغارق في الدموع. كانت نظرته جافة، ملتهبة، حادة. وكانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً... وانحنى فجأة بحركة سريعة، فسجد أمامها، وقبّل قدميها. تراجعت صونيا مروّعة كأنها ترى مجنوناً. والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون.

تمتمت تقول شاحبة الوجه، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً:

- ماذا تفعل؟ ما هذا الذي تفعله؟ أأمامي أنا، تسجد؟

نهض، وقال لها بلهجة وحشية:

- أنا لا أسجد أمامك أنت... بل أمام معاناة البشرية كلها...

ثم ابتعد نحو النافذة. وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود إلى قربها:

- اسمعي: لقد قلتُ منذ قليل لرجل كان يهينك إنه لا يساوي طرف إصبعك... وأنني قد شرّفت أختي حين أتحت لها اليوم أن تجلس إلى جانبك.

هتفت صونيا تقول مرتاعة:

- آه... ما هذا الذي قلته؟ هل قلته أمامها؟ جلوسها إلى جانبي يشرّفها؟ ولكنني... ولكنني أعيش في العار! إنني خاطئة، خاطئة! آه... ما هذا الذي قلته؟

- أنا لم أقل ذلك مفكراً في العار والخطيئة، وإنما قلته مفكِّراً في عذابك العظيم. . .

ثم أضاف يقول في حماسة:

- أما إنك خاطئة فهذا صحيح. وخطيئتك الكبرى هي أنك ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك وخنتِ نفسك سدى. نعم، إنه لأمر فظيع، إنه لأمر فظيع أن تعيشي كما تعيشين، في الوحل الذي تكرهين، عالمةً أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً، ولا تستطيعين أن تنقذي أحداً (يكفي المرءَ أن يفتح عينيه).

ثم قال خارجاً عن طوره:

- ولكن قولي لي أخيراً: كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر؟ ألا أنه ليكون أقرب إلى العدل كثيراً، وأقرب إلى العقل كثيراً، أن تلقي بنفسك في الماء منكِّسة الرأس وان تنتهي من هذا الوضع مرةً واحدة إلى الأبد! . .

سألته صونيا بصوت ضعيف، وهي ترفع نحوه نظرتها الأليمة:

- وما عسى يصيرون إليه، هم، إذا أنا فعلت ذلك؟

غير أن هذه الفكرة لم يبدُ أنها أدهشتها. وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة غريبة غامضة.

لقد قرأ راسكولنيكوف في نظرة الفتاة كل شيء. إن تلك الفكرة كانت تراودها إذاً. لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً، مرات كثيرة، في إمكان وضع حد لحياتها آخر الأمر، وبلغت من جدِّ التفكير في هذا أن النصيحة التي أسداها إليها راسكولنيكوف لم تثر في نفسها أيّ دهشة تقريباً. حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التي قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقي، ولم تدرك الزاوية التي كان راسكولنيكوف ينظر منها إلى موضع العار، وقد لاحظ هو ذلك). ولكن راسكولنيكوف أدرك

إدراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن، وأدرك إدراكاً تاماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة.

وتساءل راسكولنيكوف: «ما الذي أمكن أن يمنعها حتى الآن من إنفاذ عزمها على إنهاء حياتها؟». وعندئذ فقط إنما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى في نظر صونيا، وقيمة هذه المسكينة كاترينا ايفانوفنا المصدورة، شبه المجنونة، التي تدق رأسها بالحيطان.

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك إدراكاً واضحاً كذلك أن صونيا، بحكم طبعها وبحكم تربيتها، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة؛ حتى أنه ليحيِّره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى في هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجنَّ هي أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتنتحر غرقاً في الماء. صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس إلا حادثة طارئة في المجتمع، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة واأسفاه! ليست وحيدة البتة، ولا هي استثنائية! غير أن كون هذه الحادثة طارئة، بالإضافة إلى ما بقي للفتاة من تربيتها الماضية، وبالإضافة إلى ماضيها كله، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التي قطعتها على هذا الطريق الدنيء الذي سلكته. فما الذي كان يبقيها على هذا الطريق إذاً؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً، فإن هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسَّها مساً آلياً بحكم طبيعة الأشياء، أما قلبها فلم تتسلل إليه قطرة واحدة من رذيلة. إن راسكولنيكوف يرى هذا كله، لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها...

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هناك ثلاثة طرق تنفتح أمامها: أن تلقي بنفسها في القناة، أن تصير إلى ملجأ للمجانين... أن تندفع في الدعارة التي تخبل العقل وتجمد القلب». إن هذه الفكرة الأخيرة هي التي ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن، وهو إلى

ذلك شاب، وهو إلى ذلك ذو فكر مجرد، والفكر المجرد قاسٍ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث، أعني افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات إلى الصدق. . .

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه: «ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية، هل يمكن أن تغوص في هذا المستنقع النتن واعيةً شاعرة؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً؟ هل من الجائز أنها استطاعت أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة إلى هذا الحد؟ «فلما وصل راسكولنيكوف في تساؤله إلى هنا، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل: «لا، لا، إن الشيء الذي صدَّها عن إغراق نفسها في القناة حتى الآن إنما هو فكرة الخطيئة، وكذلك هم، أولئك. . . ولئن لم تجنّ حتى الآن. . . ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تجن حتى الآن؟ أصحيح أنها ما تزال تملك عقلها؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هي، وأن تفكر كما تفكر، إذا كان ما يزال سليم العقل؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع النتن الذي أخذ يغوص فيه، وان يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تنم على العجز، وأن يسدَّ أذنيه كلما حُدِّث عن الخطر؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر؟ نعم، لا شك في ذلك. ولكن أليست هذه علامات جنون؟»

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة في إصرار وعناد. إن حلاً كهذا يرضيه أكثر من أي حل آخر. وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد. سألها:

– إذن أنت تصلين لله كثيراً يا صونيا؟

لم تجب صونيا، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها.

ودمدمت صونيا تقول مسرعةً بقوة عنيفة، وهي تلقي عليه نظرة مختلسة، نظرة سطعت على حين غرة:

- ما الذي يمكن أن أصير إليه إن لم أؤمن بالله؟

وتناولت يده، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً.

قال يحدث نفسه: «نعم، تلك هي الحقيقة».

وسألها ليجبرها على الكلام:

- وماذا يفعل الله من أجلك؟

فلبثت صونيا صامتةً مدة طويلة، كأنها لا تستطيع أن تجيب. وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف. وهتفت تقول له أخيراً وهي تنظر إليه بقسوة وغضب:

- اسكت، لا تسألني عن شيء بعد الآن. أنت لا تستحق أن...

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً في عناد وإصرار: «تلك هي الحقيقة، تلك هي الحقيقة».

ودمدمت صونيا تقول بسرعة وهي تخفض عينيها من جديد:

- الله يفعل كل شيء!

وبعاطفة جديدة كل الجدة، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً، كان راسكولنيكوف يتفرس في هذا الوجه الصغير، النحيل، الشاحب، غير المتسق، المتكسر الزوايا، ويتفرس في هاتين العينين الزرقاوين الرقيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوي وأن تعبرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف؛ ويتفرس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً وغضباً... فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد شيء، حتى ليكاد يكون مستحيلاً. وكان يردد لنفسه: «هذه مخلوقة ضعيفة، إنها ضعيفة العقل».

وكان على المنضدة كتاب لاحظه راسكولنيكوف عدة مرات حين مروره أمام المنضدة. فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه. أنه الإنجيل باللغة الروسية: كتاب مجلّد، عتيق مهترئ.

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة:

- من أين هذا الكتاب؟

وكانت ما تزال واقفةً في مكانها نفسه على بعد ثلاث خطوات من المائدة.

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر إليه:

- جيء إليَّ به.

- من جاءك به؟

- اليزافيتا. كنت قد طلبته منها.

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه: «اليزافيتا! ما أغرب هذا!» إن كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر، من لحظة إلى أخرى. وقرَّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتفحصه.

وسألها فجأة:

- أين يجيء ذكر لعازر؟

فظلت صونيا مطرقةً إلى الأرض بعناد ولم تجبه. وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة.

- أين الحديث عن قيام لعازر؟[18] أرينيه يا صونيا.

فألقت عليه نظرة مواربة. ودمدمت تقول له بقسوة من دون أن تقترب منه:

- لست تبحث عنه في موضعه. إنه في الإنجيل الرابع.

قال لها:

- ابحثي عنه واقرئيه لي يا صونيا.

ثم جلس، ووضع كوعيه على المائدة، وأسند رأسه إلى يده، ناظراً إليها، متجهم الهيئة، متهيئاً للإصغاء، قائلاً لنفسه: «بعد ثلاثة أسابيع،

سأكون في الفرسخ السابع[19]، فيما أظن، اللَّهمَّ إلا أن يحدث لي ما هو شر من ذلك».

دنت صونيا من المائدة مترددةً، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف في شك وريب. وتناولت الكتاب مع ذلك.

سألته وهي تنظر إليه من فوق المائدة بطرف عينها:

- ألم تقرأه إذاً من قبل؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء. أجابها راسكولنيكوف:

- قرأته منذ زمن طويل... في أيام الدراسة.

- وفي الكنيسة، ألم تسمعه؟

- لا أذهب إلى الكنيسة. هل تذهبين أنت كثيراً إلى الكنيسة؟

تمتمت صونيا تقول:

- لـ... لا.

فابتسم راسكولنيكوف.

- فهمت. وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد أيضاً، أليس كذلك؟

- بل سأحضر... لقد ذهبت إلى الكنيسة في الأسبوع الماضي أيضاً. وأقمت قداساً.

- لمن؟

- لاليزافيتا. لقد قُتلت بفأس.

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر. وأخذ يشعر بدوار.

- هل كنت صديقة لاليزافيتا؟

- نعم... كانت اليزافيتا امرأة صالحة... وكانت تجيء إليَّ...

نادراً. . . لم يكن في وسعها أن تزورني أكثر من ذلك. وكنا نقرأ معاً. . . وكنا نتحدث. . . سترى الله[20] . . .

ترجّعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً في نفس راسكولنيكوف. وقال لنفسه: «وهذه معلومات جديدة! أحاديث سرية بين اليزافيتا وصونيا. . . بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفة العقل! هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل. . . بالعدوى! . .»

وهتف يقول لها بإلحاح وحنق:

- اقرئي!

ولكن صونيا ما تزال مترددة. كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً. لكأنها لا تجرؤ أن تقرأ له. وكان هو ينظر إليها معذباً، قائلاً لنفسه: «يا للمجنونة المسكينة!».

تمتمت تقول له بصوت خافت، كأنها مقطوعة الأنفاس:

- ما حاجتك إلى ذلك وأنت لا تؤمن؟

فأجابها يقول مصراً:

- بل اقرئي! أريد أن تقرئي! أما كنت تقرئين لاليزافيتا؟ . .

فتحت صونيا الكتاب، ووجدت السطور المطلوبة. كانت يداها ترتجفان، وكان صوتها مختنقاً. حاولت مرتين أن تبدأ القراءة، ولكنها لم تفلح في نطق الكلمة الأولى. ثم قرأت أخيراً:

«وكان إنسان مريضاً، وهو لعازر، من بيت عنيا. . .»[21].

ولكن صوتها اختلج وتكسّر منذ الكلمة الثالثة، كما يتحطم وترٌ مشدود. لقد انقطع تنفسها. وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً.

أدرك راسكولنيكوف بعض الإدراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له، فكان كلما ازداد إدراكاً لهذا، ازداد إلحاحاً في طلب القراءة بفظاظة وغضب. كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز في

نفسها أن تكشف عما يخصها «هي»، وأن تبوح به. أدرك أن هذه العواطف هي «سرُّها» فعلاً، سرها الحقيقي والقديم، منذ زمن، ربما منذ مراهقتها، منذ الوقت الذي كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقي وزوجة أبٍ جعلها الحزن مجنونة، قرب أطفال جياع، في بيئة لا ترتفع فيها إلا صرخات مسعورة وملامات متصلة لا تنقطع. ولكنه كان يعلم في الوقت نفسه - هو واثق من هذا - أنها على تألمها الشديد وخوفها القوي تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة في أن تقرأ، وفي أن تقرأ له «هو»، من أجل أن يسمع، ومن أجل أن يسمع «الآن» خاصةً، «مهما يحدث بعد ذلك». كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة، وكان يدركها من اهتياج أعصابها.

تحاملت صونيا على نفسها، وبذلت جهداً كبيراً، فكبحت التشنج الذي ألَمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى، وتابعت قراءة الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا، ووصلت إلى الآية التاسعة عشرة:

«وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزُّوهما عن أخيهما. فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته. وأما مريم فاستمرت جالسةً في البيت. فقالت مرثا ليسوع: يا سيد، لو كنتَ ههنا لم يمتْ أخي. لكنني الآن أيضاً أعلم أن كلَّ ما تطلب من الله يعطيك الله إياه».

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرة أخرى، وهي تشعر بالخجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتكسّر من جديد... ثم تابعت القراءة:

«قال لها يسوع: سيقوم أخوك. قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير. قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي فسيحيا ولو مات. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد».

- أتؤمنين بهذا؟

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد، وأخذت تقرأ

بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بإيمانها هي نفسها على رؤوس الأشهاد:

«قالت له: نعم يا سيد. قد آمنتُ أنك أنت المسيح ابن الله، الآتي إلى العالم».

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة، ولكنها رفعت عينيها «إليه» بحركة قوية، فسرعان ما ثابت إلى نفسها، واستمرت تقرأ. كان راسكولنيكوف يصغي إلى القراءة ساكناً جامداً، دون أن يلتفت، واضعاً كوعيه على المائدة، ناظراً إلى جانب. وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين:

«فلما أتت مريم إلى حيث كان يسوع ورأته، خرَّت عند رجليه قائلة: يا سيد، لو كنتَ ههنا لم يمتْ أخي. فلما رآها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب. وقال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيد، تعال وانظر. بكى يسوع. فقال اليهود: انظروا كيف كان يحبه. وقال بعض منهم: ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عينَيّ الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر إليها منفعلاً مضطرباً. نعم، صدق ظنه! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعاني من حمى حقيقية. لقد توقّع ذلك. وكانت تقترب من الآيات التي تروي المعجزة العظيمة الكبرى، فكان شعور بالانتصار العظيم يجتاح نفسها. إن صوتها يرن رنين معدن. إن الفرح والظفر يترجعان في نفسها ويشدان أزرها. واختلطت الأسطر أمام عينيها، واضطرب بصرها، لكنها كانت تعرف ما تقرؤه على ظهر القلب. إنها حين قرأت الآية الأخيرة: «ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عينَيْ الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»، قد خفضت صوتها، معبِّرةً بحماسة ملتهبة عن شك واستياء أولئك اليهود العمي الذين لا يؤمنون والذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة، وسيجهشون باكين، وسيؤمنون. قالت لنفسها: وهو،

هو أيضاً، الأعمى، الذي لا يؤمن، هو أيضاً سيسمع، وهو أيضاً سيؤمن، نعم، نعم سيؤمن، سيؤمن فوراً، حالاً. فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً. وتابعت قراءتها:

«فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء إلى القبر. وكان القبر مغارة وقد وُضع عليه حجر. قال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مرثا أخت الميت: يا سيد، قد أنتن لأنه هنا منذ أربعة أيام».

أبرزت صونيا في قراءتها كلمة «أربعة». وتابعت تقرأ:

«قال لها يسوع: ألم أقل لكِ إن آمنت ترين مجد الله. فرفعوا الحجر، ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الأب، أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك تسمع لي في كل حين. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت هذا، ليؤمنوا أنك أرسلتني. ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم: لعازر هلمَّ خارجاً. فخرج الميت. . . »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوي ظافر، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينيها.

« . . . ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع: حلُّوه ودعوه يذهب».

«فكثيرون من اليهود الذي جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به».

لم تمض صونيا في القراءة إلى أبعد من هذا. لقد عجزت عن ذلك. فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع:

- هذا كل ما يُروَى عن قيام لعازر.

وتجمدت في مكانها مشيحةً وجهها، كأنها تستحي أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف، وكانت ما تزال ترتجف من الحمى.

كان عقب الشمعة التي ذابت في الشمعدان المتعقف منذ مدة، يلقي

ضياءً ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمَّتهما بطريقة غريبة قراءة «الكتاب الخالد» في هذه الغرفة البائسة.

وانقضت خمس دقائق أو تزيد.

ونهض راسكولنيكوف، واقترب من صونيا، وقال لها فجأة بصوت قوي وقد اكفهر وجهه:

- إنما جئت لأحدثك في أمر بعينه.

فنظرت إليه صونيا صامتة. وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية.

قال:

- تركت اليوم أهلي: أمي وأختي. فلن أذهب إليهما بعد الآن. لقد قطعت صلتي بهما قطيعة تامة.

فسألته صونيا مصعوقة:

- لماذا؟

إن اللقاء الذي تمَّ بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل قد ترك في نفسها أثراً قوياً جداً، رغم أنها لم تستطع أن تحدِّده. فلما سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً.

أضاف راسكولنيكوف يقول:

- لم يبق لي سواك. هلمي نسافر معاً. لقد جئت إليك. نحن ملعونان كلانا، فلنسافر معاً!

وكانت عيناه تسطعان. قالت صونيا لنفسها هي أيضاً: «إن هيئته تدل على أنه مجنون».

وسألته مرتاعةً:

- نسافر إلى أين؟

وتراجعت متقهقرة على غير إرادة منها.

قال لها:

- أنّى لي أن أعرف! كل ما أعرفه أن الطريق الذي سنقطعه واحد. أنا واثق بهذا، ولا أعرف شيئاً سواه. وأن هدفنا واحد أيضاً.

كانت تنظر إليه ولا تفهم. كل ما كانت تدركه هو أنه إنسان شقي شقاء رهيباً، شقي إلى غير نهاية.

وأضاف راسكولنيكوف يقول:

- ما من أحد منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه. أما أنا فقد فهمتك. أنا في حاجة إليك. ولهذا السبب إنما جئتك.

تمتمت صونيا قائلة:

- لست أفهم...

- ستفهمين في المستقبل. ألم تفعلي مثل الذي فعلت أنا؟ أنت أيضاً خرقت القانون، أنت أيضاً... أنت أيضاً دمّرت حياةً... هي حياتك أنت... ولكن ما الفرق؟! كان يمكنك أن تعيشي بروحك وعقلك. ولسوف ينتهي بك المطاف في المستقبل إلى قرب سوق العلف... ولكنك لن تستطيعي أن تحتملي ذلك، فإن بقيت وحيدة فسوف تفقدين عقلك مثلي. إنك منذ الآن أشبه بمجنونة. فلماذا لا نسافر إذن معاً، لماذا لا نتبع طريقاً واحداً؟ فلنسافر!

تمتمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً قوياً:

- لماذا، لماذا تقول هذا الكلام...

- لماذا؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً. هذا هو السبب. لا بد للمرء آخر الأمر أن يقف وجهاً لوجه أمام متاعبه وينظر إليها بجرأة وجدّ، بدلاً من أن يبكي، بدلاً من أن يصرح قائلاً كطفل صغير: «الله لن يسمح بهذا». قولي لي: ما الذي سيحدث إذا اقتادوك

غداً إلى المستشفى؟ إن الأخرى قد فقدت عقلها، وهي مصابة بداء السل، وستموت قريباً. والأولاد؟ هل يمكن أن لا تضيع بوليتشكا هي أيضاً؟ ألم تري هنا، في نواصي الشوارع، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم في طلب الصدقات؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات، وفي أي ظروف يعشْنَ. إن الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً. في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين، داعراً أو لصاً. والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح، «لهم ملكوت الرب»[22]؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم. هم إنسانية المستقبل...

ردَّدت صونيا تقول وهي تلوي يديها ألماً وتجهش باكيةً بكاءً هستيرياً:

- ما العمل إذاً؟ ما العمل؟

- ما العمل؟ نحطِّم مرةً واحدة كلَّ ما يجب تحطيمه، ولا شيء غير ذلك. نتحمل العذاب! ماذا؟ ألا تفهمين؟ سوف تفهمين في المستقبل! الحرية والسيطرة، السيطرة خاصة! السيطرة على جميع المخلوقات المرتجفة، على كل هؤلاء النمل... ذلك هو الهدف! تذكري هذا! تلك هي وصيتي لك. لعلَّ هذا آخر مرة أكلمك فيها. إذا لم أجيء غداً، فستعلمين كل شيء بنفسك، فاذكري حينئذ كلماتي. قد تفهمين معناها في يوم من الأيام، بعد سنة، ولكن إذا جئت غداً، فسأقول لك من الذي قتل اليزافيتا. وداعاً!

ارتعشت صونيا ذعراً. وسألته وهي ترمقه بنظرة متوحشة:

- أأنت تعرف حقاً... من الذي قتلها؟

- أعرف ذلك، وسأقوله لك... لك وحدك! لقد وقع اختياري عليك. لن أجيء إليك لأستغفرك، وإنما لأحدثك ببساطة. لقد اخترتك، منذ مدة طويلة لأحدثك، اخترتك منذ اللحظة التي كلمني

فيها أبوك عنك، وكانت اليزافيتا ما تزال حية. . . وداعاً! لا تناوليني يدك! إلى الغد!

وخرج. كانت صونيا تنظر إليه وكأنها تنظر إلى مجنون، ولكنها كانت هي نفسها أشبه بمجنونة، وكانت تشعر بذلك. وكانت تحس بدوار.

تساءلت: «رباه! كيف يعرف من الذي قتل إليزافيتا؟ ما معنى هذه الأقوال؟ فظيع، فظيع! . .» ولكن في الوقت نفسه لم تخطر لها فكرة أن. . . لم يخطر ببالها هذا في لحظة من اللحظات، لم يخطر ببالها في أية لحظة من اللحظات! وقالت تحدث نفسها: «لا بد أنه شقي، لا بد أنه شقي شقاء رهيباً! ترك أمه وأخته. لماذا؟ ماذا جرى؟ ما نياته؟ ماذا قال لي؟ لقد لثم قدمي وقال لي. . . قال لي. . . (نعم. . . قال لي ذلك بوضوح. . .) قال لي إنه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدوني. . . آه. . . رباه! . .

قضت صونيا الليل كله في حمى وهذيان. فتارةً تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكي وتلوي يديها ألماً، وتارة تهوي إلى نوم محموم فترى في الحلم بوليتشكا وكاترينا إيفانوفنا وإليزافيتا وقراءة الإنجيل. . . وتراه هو. . . هو. . . بوجهه الشاحب، وعينيه المتقدتين، يلثم قدميها، ويبكي. . . آه. . . يا رب! . .

وراء الباب، وراء ذلك الباب نفسه الذي يفصل غرفة صونيا عن شقة جرترود كارلوفنا ريسليخ، كانت توجد غرفة وسيطة، خالية منذ مدة طويلة، هي جزء من شقة السيدة ريسليخ، وكانت السيدة ريسليخ تريد أن تؤجرها، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل العمارة، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التي تطل على القناة. وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خاليةً غير مسكونة. غير

أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق طوال هذا الوقت كله بالباب في هذه الغرفة الخالية، فأصغى إلى كل الحديث الذي جرى بين صونيا وراسكولنيكوف، حتى إذا خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظةً يفكر، ثم رجع سائراً على رؤوس الأصابع إلى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية، فتناول كرسياً وجاء يضعه برفق وهدوء على الباب المؤدي إلى غرفة صونيا. لقد شاقه الحديث الذي جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً، ورأى أنه جدير بأن يُسمع وأن يحفظ؛ وبلغ من شدة إعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه به حدّ أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر في المرة القادمة التي قد يكون الغد موعدها - من يدري؟ - أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعة كاملة. هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة، فتكون متعته من جميع النواحي كاملة.

الفصل الخامس

في اليوم التالي، في الساعة الحادية عشرة تماماً، حين وصل راسكولنيكوف إلى قسم الشرطة، ودخل على مكاتب مفوَّض التحقيقات[23]، وطلب مقابلة بورفيري بترروفتش، أدهشه أنه طُلب إليه أن ينتظر. لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى، وكان يتنبأ أن يُستقبل فوراً، وأنهم لا بدّ أن ينقضُّوا عليه حالاً.

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكترثون به أي اكتراث. وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك.

وكان راسكولنيكوف يُجيل على ما حوله نظرةً قلقة فيها ارتياب، متسائلاً: تُرى ألا يوجد هنا، على مقربة منه، شخص سرِّي ما، جاسوسٌ ما، مكلف بمراقبته، وبمنعه من الخروج إذا هو أراد أن يخرج؟ ولكن لا... لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل. لم يكن ثمة إلا مستخدمون صغار، غارقون في أعمالهم الصغيرة، وأشخاصٌ آخرون، لكن هؤلاء الأشخاص جميعاً كانوا هم أيضاً لا يهتمون به، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه. وها هي ذي فكرة تنبت في ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً: لو كان ذلك الشخص اللغز الذي لقيه بالأمس، لو كان ذلك الشبح الذي ظهر له من تحت الأرض، لو كان يعلم كل شيء، لو كان قد رأى كل شيء، أفكان يُترك له، هو راسكولنيكوف، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة، حتى الساعة التي ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدلي بإفادته؟ إذن لم يش به ذلك الرجل بعد. . . أو أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أي شيء على كل حال؟). وإذاً لم يكن كل ما حدث له بالأمس، هو راسكولنيكوف، إلا سراباً، إلا رؤياً ضخَّمها خياله المهتاج المريض. إن هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس، في لحظة هي من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات إحساسه باليأس.

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر في هذا كله مرةً أخرى، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد، شعر فجأة بارتعاش، فغلت نفسه غلياناً شديداً إذ تصور أنه إنما يرتعش خوفاً، لأنه سيقف أمام بورفيري بتروفتش الكريه. إن أفظع شيء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد. أنه يكرهه كرهاً لا حدود له، كرهاً ليس له نهاية. وكان يخشى أن يؤدي به هذا الكره، على نحو من الأنحاء، إلى أن يفضح نفسه. وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً. وأعدَّ راسكولنيكوف نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء، وحلف ليبقينَّ صامتاً إلى أبعد حدود الصمت، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر في هذه المرة، على الأقل، على مزاجه المهتاج المريض، مهما يحدث من أمر. . .

وفي اللحظة التي اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار، دُعي إلى الدخول على بورفيري بتروفتش.

كان بورفيري بتروفتش عندئذ وحيداً في غرفته. إنها حجرة لا هي بالكبيرة ولا هي بالصغيرة، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى

بقماش مشمع، وتضم منضدة، وخزانة في ركن من الأركان، وعدة كراسي من خشب أصفر تقشّر طلاؤه؛ وهذا كله من أثاث الإدارة. وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة، أو قل في الحاجز الذي يقع في آخر الغرفة، يوجد باب مغلق: فلا بد إذاً أن وراء هذا الحاجز حجرات أخرى.

فما أن دخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفيري بتروفتش ذلك الباب الذي كان قد دخل منه، وبقي الرجلان وحيدين.

استقبل مفوّض الشرطة زائره طلق المحيّا متودداً متحبباً في ظاهر الأمر، ولم يستطع راسكولنيكوف إلا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض العلامات أن بورفيري بتروفتش مرتبك بعض الارتباك، فكأنه أُزعج أثناء قيامه بمهمة سرية.

بدأ بورفيري بتروفتش يتكلم وهو يمد إلى راسكولنيكوف يديه قائلاً:

- آ... عزيزي... هاأنت ذا إذاً... في نواحينا... تفضل... إجلس يا عزيزي! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولي يا عزيزي، tout court «فقط»[24] هكذا!.. لا تحسبْ هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التحرج، أرجوك... ولكن لماذا لا تجلس؟ اجلس هنا، على الديوان...

جلس راسكولنيكوف دون أن يحوّل عنه عينيه.

وقال يحدث نفسه مرتاباً: «في نواحينا... اعتذارات عن رفع الكلفة وعدم التحرج... هذا التعبير الفرنسي tout court... «فقط»... صحيح أنه مدَّ إليَّ يديه، لكنه لم يناولني لا هذه ولا تلك منهما، بل سحبهما في الوقت المناسب...».

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده، ولكن ما أن تلتق نظراتهما حتى يحوّلاها بسرعة كومض البرق.

قال راسكولنيكوف:

- جئتك بالعريضة الصغيرة... في موضوع الساعة... إليك هي. أهكذا يجب أن تحرَّر أم عليَّ أن أعيد كتابتها؟

- ماذا؟ أي عريضة؟ آ... نعم، نعم، اطمئن، هذا هو المطلوب تماماً.

كذلك قال بورفيري بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحثه، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة. وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً:

- ذلك هو المطلوب تماماً. لا يجب أكثر من هذا...

ووضع الورقة على مكتبه. ثم بعد دقيقة، بينما كان يتكلم في أمر آخر، تناول الورقة من جديد ووضعها على منضدة الكتابة.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

- قلت لي بالأمس، فيما يخيَّل إليَّ... أنك تودُّ... أن تستجوبني... رسمياً... عن علاقاتي... بالمرأة القتيل...

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه مؤنباً: «عجيب... لماذا أضفت جملة «يخيَّل إليَّ» هذه؟»

ثم ومضت في ذهنه على الفور فكرة جديدة كومض البرق: «ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله من قولي يخيَّل إليَّ»؟

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفيري بتروفتش، وهذه الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها كانت كافيةً لأن تحدث في نفسه ارتياباً فظيعاً... وأن هذا كله خطر، خطر خطراً رهيباً، وأعصابه تتوتَّر، واضطرابه يزداد ازدياداً شديداً. فقال لنفسه مقرعاً: «غلط، غلط، سأفضح أمري من جديد».

جمجم بورفيري بتروفتش يقول:

- نعم، نعم، اطمئن... ليس الأمر بمستعجل... ليس الأمر بمستعجل البتة...

وكان بورفيري بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً، ولكن دون ما هدف فيما يبدو، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة، ثم يجذبه نحو مكتبه، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد. وكان، وهو يسير، يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الرِّيَابة ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة، فيحدِّق إلى محدِّثه وجهاً لوجه. أنه لمشهد غريب، مشهدُ هذا الرجل القصير السمين، المدوَّر ككرة، الذي كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران، وجميع الأركان.

- أمامنا متسع من الوقت، أمامنا متسع من الوقت... هل تدخِّن؟ هل تملك ما... إليك سيجارة (قال ذلك وهو يمد سيجارة إلى ضيفه)... إنني أستقبلك هنا، ولكن شقتي هناك، وراء هذا الحاجز. أنا أسكن على نفقة الدولة، ولكني أسكن مؤقتاً في خارج الدائرة كما تعلم... نعم، ذلك أن هناك إصلاحات صغيرة وجب إجراؤها هنا، وقد أوشكت الآن أن تنتهي. شيء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة، هه؟ شيء عظيم جداً. ما رأيك؟ هه؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

- نعم، شيء عظيم جداً!

فردَّد بورفيري بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف:

- شيء عظيم جداً، شيء عظيم جداً...

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً، وهو يحدِّق إلى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه:

- نعم، شيء عظيم جداً.

إن هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (إن السكن على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض ما كان قاضي التحقيق يرمي به

راسكولنيكوف من نظرة جادة، متأملة، ملغزة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولينكوف، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فإذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش، فيسأل بورفيري بتروفتش فجأة، وهو يلقي عليه نظرة تكاد تكون وقحة، حتى لكأنه يجد في وقاحته هذه لذة ومتعة:

- هل تعلم أن هناك، فيما يقال، قاعدةً قضائية، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوبه، أو قل من أجل أن يسهِّيه، من أجل أن ينوِّم انتباهه، ثم إذا هو يهوي على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب؟ أليس هذا صحيحاً؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبِّق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً، وروعي مراعاة تامة، أليس كذلك؟

- إذاً أنت تظن... إذاً، أنني إنما حدثتك عن المساكن التي تقدمها الدولة على نفقتها، من أجل أن... هه؟

قال بورفيري بتروفتش ذلك، وغضَّن جفنيه وطرف بعينه وبان في وجهه تعبير عن مرح ومكر، وأمحت تجاعيد جبينه الدقيقة، وتضيّقت عيناه الصغيرتان، وتمددت أخيراً قسماته، فحدَّق إلى عيني راسكولنيكوف وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُّ جسمه كله. وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك، فهمَّ أن يضحك هو أيضاً، ولكن بورفيري بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكه، انتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من القوة أن وجهه احمرَّ احمراراً شديداً، فتغلب اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذ على تعقله، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر إلى بورفيري بتروفتش طويلاً، نظرة كارهة حاقدة، وظلَّ لا يحوِّل عنه بصره أثناء

ضحكه المفتعل الطويل بلا نهاية، كأنما عن قصد وعمد. والحق أن الرجلين كليهما لم يلتزما جانب الحكمة والتبصر والتعقل: فأما بورفيري فكان كمن يسخر من زائره صراحةً، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره شديد، وهو كره لم يظهر على القاضي أنه ضاق به أو انزعج منه على كل حال. وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف: لقد أدرك راسكولنيكوف أن بورفيري لم يكن مرتبكاً أي ارتباك منذ قليل، بل بالعكس إنه هو، الذي وقع في الفخ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك، أمراً مدبراً منذ زمن بعيد سينكشف بعد لحظة وسينصب على رأسه.

لذلك انتقل إلى الجد قُدُماً، فنهض متناولاً قبعته، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها اهتياجاً قوياً:

- يا بورفيري بتروفتش، لقد أعربتَ أمس عن رغبتك في أن تراني من أجل أن تستجوبني (أبرز راسكولنيكوف كلمة «تستجوبني» هذه)، وهأنا ذا قد جئت، فإن كنت في حاجة إلى أن تعرف شيئاً ما، فاستجوبني، وإلا فاسمح لي أن أنصرف. ليس في وقتي متسع. هناك أمور تناديني... يجب عليَّ أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي داسته الخيل أمس... وأضاف يقول: وقد سمعت أنت عن الحادثة التي وقعت له...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فازداد من ذلك غضبه، وتابع كلامه فقال:

- لقد تعبت من هذا كله، تعبت، هل تفهم؟ تعبت منذ زمن طويل... ولعل ذلك أحد الأسباب التي جعلتني مريضاً...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التي أضافها عن مرضه ليست في محلها أيضاً، فتابع يقول رافعاً صوته:

- الخلاصة... استجوبني من فضلك... أو دعني أنصرف فوراً. ولكن إذا استجوبتني فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول المطلوبة

والقواعد المتبعة، وبغير ذلك لا أسمح لك به. لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجلس هنا وحدنا.

صات بورفيري بتروفتش يقول مغيِّراً لهجته ووضعه على حين فجأة، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدة:

- عجيب! ماذا جرى لك؟

ثم أردف يقول:

- اطمئن، أرجوك...

وكاد يذهب ويجيء مهموم البال. وفجأةً طلب إلى راسكولنيكوف أن يجلس، وقال له:

- لدينا متسع من الوقت، متسع من الوقت، وهذا كله لا قيمة له البتة. بالعكس: أنا مسرور جداً من أنك جئت إلينا أخيراً! إنني أستقبلك كما يُستقبل ضيف. أما عن ذلك الضحك اللعين، فاعذرني يا عزيزي روديون رومانوفتش... هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ روديون رومانوفتش... إن ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسي مرحاً شديداً... حقاً أنه ليتفق لي أحياناً أن أتواثب ككرة من المطاط بسبب الضحك طوال نصف ساعة. أنني سريع إلى الضحك. حتى أنني أخشى أن أصاب بنوبة قلبية، وأنا بدين. ولكن لماذا لا تجلس؟ هلاّ جلست! أرجوك أن تجلس يا عزيزي، وإلا اعتقدت أنك زعلان!

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغي ويلاحظ، وما يزال مقطِّب الحاجبين من الغضب. وقد جلس، لكنه ظلّ ممسكاً قبعته بيده.

وتابع بورفيري بتروفتش كلامه وهو ما يزال يتجول في الغرفة، ويتحاشى نظرة ضيفه، فقال:

- سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روديون رومانوفتش، لأعطيك فكرةً عن طبيعتي. أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى، فأنا إذاً لا أعاشر الناس ولا أختلف إلى المجتمع كثيراً، وأنا إذاً رجل غامض، مجهول. وأنا عدا

ذلك إنسان مكتمل التكوين، متعظِّم الجسم، متخدر الإحساس، و. . .
و. . . هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أنه عندنا، أقصد عندنا في روسيا، ولا سيما في أوساطنا البطرسبرجية، ما أن يلتقي شخصان ذكيان لا يعرف أحدهما الآخر بعدُ معرفةً جيدةً، ولكنهما بالمناسبة يحترمان بعضهما البعض احتراماً تاماً مثلنا نحن، أنا وأنت، إن صح التعبير حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر؟ أن كلاً منهما ينظر إلى صاحبه ككلبين من خزف، وأن كلاً منهما يجلس قبالة الآخر ويخشى صاحبه ويخاف منه. أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه، السيدات مثلاً. . . أو أفراد المجتمع الراقي. . . أفراد الطبقة العليا. . . نعم، أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه c'est de rigueur «ذلك واجب لا مفرّ منه»[25] ولكن أفراد الطبقة المتوسطة. . . الأفراد الذين هم مثلنا. . . يكونون دائماً مرتبكين صموتين. . . أعني منهم أولئك الذين يفكِّرون. فما سبب هذا يا عزيزي؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه؟ لا أدري. . . فما رأيك أنت؟ ولكن هلاً تركت قبعتك! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً. هذا مؤسف. أما أنا فمسرور حقاً. . .

ترك راسكولنيكوف قبعته، ولكنه ظل صامتاً متجهم الوجه يصغي بجدٍ ورصانة إلى ثرثرات بورفيري بتروفتش المفككة، متسائلاً بينه وبين نفسه: «أيريد حقاً أن ينوِّم انتباهي بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف؟»

وواصل بورفيري بتروفتش كلامه يقول:

- لست أقدم لك قهوة، فليس هذا بالمكان المناسب. ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق. . . لتسلِّيه قليلاً. . . هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم. . . وأرجوك خاصةً يا عزيزي أن لا

تزعل إذا رأيتني على هذه الحال أسير في الغرفة طولاً وعرضاً. . .
معذرةً يا عزيزي. . . أنني أخشى كثيراً أن أزعلك. . . ولكن لا بد لي
من شيء من الرياضة. . . أنني جالس دائماً. . . ويسرني كثيراً أن يتاح
لي الآن أن أمشي قليلاً خلال خمس دقائق. . . هي البواسير يا
عزيزي. . . وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية. . . يقال إن
رجالاً من مستشاري الدولة، رجالاً من كبار موظفي الدولة(26)، يقفزون
على الحبل كل يوم على نظام مطرد، ويجدون في ذلك لذة. نعم، ها
هو معنى العلم في أيامنا. . . أما التزاماتي هنا، أما هذه الاستجوابات
وهذه الشكليات كلها التي جئتَ على ذكرها، فعليك أن تعلم حقاً يا
عزيزي روديون رومانوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تحيِّر القاضي
أكثر مما تحيِّر المتهم. . . كما ألمحت أنت إلى ذلك بكثير من رهافة
الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمح إلى شيء من
هذا البتة). نعم، إن المرء ليرتبك، ليرتبك حقاً، وتختلط عليه الأمور.
وهذا يتكرر هو نفسه دائماً، يتكرر مراراً وتكراراً، على وتيرة واحدة،
كقرع الطبل. . . نغمة واحدة. . . على أننا موعودون الآن بإصلاحات،
فستتغير أسماؤنا(27) على الأقل. هئ هئ هئ!. . أما عن أساليبنا
القضائية - على حدِّ تعبيرك الظريف الفكه - فأنا أوافقك على رأيك كل
الموافقة. قل لي من فضلك: أيُّ متهم لا يعرف، ولو كان أجهلَ فلاح،
أن المحقق إنما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدِّ تعبيرك المناسب
الموفَّق)، بأن يلقي عليه أسئلة لا تمت إلى الموضوع بصلة، ثم يهوي
على رأسه بالموضوع كأنه يهوي عليه بفأس. . . هئ هئ هئ. . . على
رأسه بالذات. . . بتعبيرك الموفق أيضاً. . . هئ هئ!. . إذن لقد ظننتَ
فعلاً أنني حين حدثتك عن مسألة السكن على نفقة الدولة إنما كنت
أريد. . . هئ هئ! يا لك من مازح! لا، لن أستمرَّ في ثرثرتي، إذن. . .
آ. . . بالمناسبة. . . أن كلمة تستدعي كلمة أخرى، وأن فكرة تستحضر
فكرة ثانية. . . لقد أشرتَ، منذ قليل، إلى أصول الاستجواب

وقواعده، كما تتذكر . . . أشرتَ إلى الشكل الذي يجب التقيد به في الاستجواب. ولكن قل لي: ما هو الشكل؟ أن الشكل، في كثير من الأحيان، لا يكون له أي معنى. ورب حديث ودي أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل، ويلتزم فيه القواعد والأصول. طبعاً . . . أما الشكل فلا مفرَّ منه في أية حال، وفي وسعك أن تطمئن من هذه الناحية. ولكن اسمح لي بالسؤال ما هو الشكل في حقيقة الأمر؟ ليس ينبغي للشكل أن يعرقل عمل قاضي التحقيق في كل لحظة. أن مهنة قاضي التحقيق فنٌ حر إن صح التعبير . . . أو هي شيء من هذا القبيل . . . هئ هئ هئ! . .

توقف بورفيري بتروفتش ليسترد أنفاسه. كان يتكلم متدفقاً كالسيل، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل، وتارةً يدس كلمة صغيرة غامضة وغريبة، ليعود بعد ذلك فوراً إلى هذره التافه ولغوه السخيف. وكان كمن يركض في الغرفة ركضاً، هازاً ساقيه القصيرتين السمينتين مزيداً من الهزّ، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره، وهو يحني رأسه محركاً باستمرار يده اليسرى بإشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً.

ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب، وبدا عليه أنه يصيخ بسمعه لحظة. تساءل راسكولنيكوف «أهو ينتظر شيئاً؟»

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال مرحاً وهو يلقي نظرة ساذجة إلى درجة عجيبة، أرعشت الشاب وجعلته يتحفز فوراً:

- الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من إجراءاتنا القضائية بمثل هذه الطريقة الظريفة . . . هئ هئ . . . إن أساليبنا - بعضها لا كلها طبعاً - توهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة، مع أنها في حقيقة الأمر مضحكة تماماً، بل هي في كثير من الأحيان عقيمة، ولا سيما عند التقيد

بالشكل تقيداً دقيقاً. ولكن. . . فلنعد إلى مسألة الشكل هذه نفسها: لنفرض أنني مكلف بالتحقيق في قضية، وأنني أعرف أو قل أعتقد أنني أعرف أن الجاني هو فلان أو فلان. . . أنت تتهيأ لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش، أليس كذلك؟

- نعم، كنت أدرس القانون.

- طيب، هذا إذاً مثال صغير يمكن أن يفيدك في المستقبل، إن صح التعبير. آ. . . لا يذهبن بك الظن إلى أنني أريد أن ألقنك دروساً أنت الذي تكتب مثل هذه المقالات الجدية عن الإجرام. لا، أبداً، فإنما أجرؤ على أن أضرب لك هذا المثال من حيث هو واقعة. لنفرض أنني ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجاني. فعلام أُقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة، حتى ولو ملكت أدلةً عليه؟ صحيح أنني قد أضطر أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعة، ولكن فلاناً الآخر الذي ليس له ذلك الطبع نفسه، قد أتركه يتجول في المدينة، هه؟ أحسب أنك لا تفهم عني تماماً، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد من الوضوح. لنفرض أنني قبضت عليه قبل الأوان، أفلست أمنحه بذلك نوعاً من عون نفسيٍّ؟ هئ هئ! أيضحكك هذا الكلام؟ (أن راسكولنيكوف لم يخطر بباله قطُّ أن يضحك. كان جالساً، كازاً شفتيه، لا يحوّل عن عيني بورفيري بتروفتش نظرته المتقدة الملتهبة). هذا هو الأمر رغم ذلك، ولا سيما مع بعض الأفراد. نعم نعم، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً، ولا بد من تنويع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد. قد تقول لي أن هناك أدلّة. . . طيب: لتسلّم بأن هناك أدلّة! ولكن الأدلّة يا عزيزي تكون في أكثر الأحيان ذات حدَّين، وأنا قاضي تحقيق، فعندي إذاً نواحي ضعف، أعترف لك بذلك. أنا أتمنى أن يكون دليلي قاطعاً صارماً كاستدلال رياضي، كبرهان رياضي. أنا في حاجة إلى برهان بديهي كقولك أن اثنين واثنين أربعة، أو إلى شيء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً في وضوحه وجلائه. فإذا اعتقلتُ الشخص قبل الأوان، فإنني مهما يكن

اقتناعي قوياً بأنه هو الجاني، أحرم نفسي بذلك من الوسائل التي ستحمله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم. لماذا؟ لأنني أكون قد ألزمته بوضع معيَّن إن صح التعبير، أي أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية فيفلت مني ويدخل في قوقعته، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر. يقال إن الناس الأذكياء في سيباستوبول، بعد معركة ألماً[28] رأسا، قد خافوا كثيراً في أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولي على سيباستوبول في الحال. فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول، فبدأ يحفر الخندق الأول، سُرُّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً. فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت. ما بالك تضحك أيضاً؟ أما تزال لا تصدقني؟ أنت على حق، من وجهة نظرك، على حـ. . .ق! هذه حالات خاصة، وأنا أوافقك كل الموافقة. أن الحالة التي أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً. ولكن يجب علينا يا عزيزي روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التي تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة، والتي على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتُسجَّل في الكتب، لا وجود لها على الإطلاق، وذلك لسبب بسيط هو أن كل فعل، ولنفرض أنه جريمة، سرعان ما يتحول إلى حالة خاصة، بل إلى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أي فعل آخر. وفي بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة في نوعها. ففي تلك الحالات أدع الشخص وحيداً، لا أزعجه، لا أعتقله، ولكنه إذا علم أنني في كل ساعة، بل في كل دقيقة، أعرف كل شيء، وأنني أراقبه ولا تغمض عيني عنه؛ إذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل، فيميناً ليأخذنّه عندئذ دوار، وليأتينّ من تلقاء نفسه. وقد يحدث أيضاً أن ينساق إلى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضي. وتلك هي المتعة واللذة في الأمر. يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط، ويمكن أن يحدث لرجل من

أشباهنا، لرجل ذكي عصري مثقف. ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزي أن نعرف الاتجاه الذي تطور فيه شخص من الأشخاص. ثم إن هناك الأعصاب، الأعصاب، أتراك نسيت الأعصاب؟ الأعصاب هي الضعيفة الآن، هي المريضة، هي المستثارة. وما قولك في الاهتياج؟ أن اهتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم في الناس! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب! فهل يضيرني إذاً أن أترك الجاني يتجول في المدينة حراً طليقاً؟ ألا فليستمر على التجول. إنني لا أعترض على هذا أي اعتراض. فأنا أعلم، مهما يحدث، أنه «فريستي العزيزة» وأنه لن يفلت مني! إلى أين عساه يهرب؟ إلى الخارج؟ قد يهرب بولندي إلى الخارج، أما هو فلن يهرب، لا سيما وأنه تحت بصري وسمعي، وأنني اتخذت الاحتياطات اللازمة. أتراه يفر إلى آخر البلاد؟ ولكن في آخر البلاد لا يعيش إلاّ فلاحون، لا يعيش إلا روس حقيقيون، أما هو الذي تثقف ثقافة حديثة، فإنه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا... هئ هئ... على أن هذا كله أمازيح على الهامش. ما الهرب؟ أمر شكلي صرف. ليس هذا هو الشيء الأساسي. فالرجل لن يهرب، لا لأنه لن يعرف إلى أين يذهب فحسب، بل هو لن يهرب لأسباب سيكولوجية أيضاً... هئ هئ... تعبير موفق جداً، هه؟ لا، لا، أنه لن يهرب، وذلك بفعل قانون طبيعي، حتى ولو عرف إلى أين يذهب! أما رأيتَ فراشة تحوم حول شمعة؟ ألا أنه سيدور حولي دوران الفراشة حول الشمعة. ستأخذ تثقل عليه الحرية، وسيأخذ يفكر، وسيرتبك؛ سيقع في شباك ينسجها هو نفسه، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً. بل أنه سيهيئ لي مهزلة رياضية يبدعها هو، مهزلة من نوع «اثنين زائد اثنين يساوي أربعة»، شريطة أن أدع له فرصةً بطبيعة الحال. وسيظل، بغير انقطاع، يحوم حولي على دوائر ما تنفك تضيق، ثم إذا هو يسقط في فمي دفعةً واحدة، فأبلعه، وما ألذَّ هذا! هئ هئ، ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف. ظل جالساً، شاحب الوجه، جامداً، ما ينفك يحدِّق إلى وجه بورفيري بتروفتش بانتباه ثابت.

حدّث نفسه يقول متجمداً من الرعب: «هذا درس رائع... ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبث بالفأرة كما كانت بالأمس. لا، ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لي في غير طائل، أو أن يوحي إليَّ به... هو أذكى من أن يفعل ذلك. إن له الآن هدفاً آخر، فما هو هذا الهدف؟ دعك يا صاحبي، غباءٌ ما تفعل، سخافات... أنت تحاول أن تخيفني... أنت تمكر وتحتال... ليس لديك أي دليل. ورجل الأمس لا وجود له. أنت تحاول أن تربكني وأن تشوشني وأن تثير أعصابي سلفاً حتى تهوي عليَّ بالضربة المفاجئة متى انهدّت قواي... ولكن خاب فألك، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً، نعم، سوف تطيش ضربتك... ولكن ما باله يوحي إليَّ بما يجب أن أعمله! إلى هذا الحد، ليس الأمر طبيعياً!.. أهو يعوِّل على أعصابي المريضة؟ لا، لا يا صاحبي، لقد أخطأ ظنك، وعميَ بصرك... ومهما تكن قد أعددت من شيء... طيب، سنرى ماذا ما أعددت!..»

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها، يستعد لمواجهة نازلة رهيبة مجهولة. ودَّ في بعض اللحظات لو ينقضّ على بورفيري بتروفتش فيخنقه في الحال. أنه منذ دخوله قد خشي أن يشعر بمثل هذا الغضب. وهو يشعر الآن بأن فمه جاف، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً، وبأن الزبد يتقاطر على شفتيه. ومع ذلك قرر أن يصمت، وأن لا يقول كلمة واحدة قبل أن يحين الحين. أدرك أن هذه هي الخطة المثلى في ظرف كظرفه، فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب محدِّثه بصمته، فلعلَّ محدِّثه هو الذي سيفضح نفسه ويكشف عن نياته إذ يتكلم. ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل.

استأنف بورفيري كلامه بمزيد من المرح، حتى لقد كان ينقنق تلذذاً، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة:

– لا، أنت لا تصدقني. أرى أنك لا تصدقني. تظن أنني أمطرك بأمازيح صغيرة تافهة. وأنك لعلى حق طبعاً. فإن الله نفسه قد وهب لي مظهراً جسمياً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين إلا خواطر مضحكة. أنا bouffon! «مُهرِّج!»[29] ولكن إليك ما أريد أن أقوله لك، بل أن أكرره على مسامعك، يا عزيزي روديون رومانوفتش: يجب عليك أن تعذر الشيخ الذي يكلمك. أنت شاب، أنت في زهرة العمر إن صحَّ التعبير، وانت لذلك تقدر الذكاء الإنساني أكثر من أي شيء آخر، كسائر الشباب. أن حدة الفكر وحجج العقل المجردة تفتنك. أنت على وجه العموم تشبه «المجلس الحربي الأعلى»[30] الذي كان بالنمسا في الماضي، هذا إذا صدق حكمي في الشؤون العسكرية: أن أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابليون وأسروه، في خططهم التي وضعوها على الورق. نعم، إنهم في مكاتبهم، قد هيؤوا كل شيء، ورتبوا كل شيء، بدقة كاملة، ونظام رائع. ذلك ما فعلوه على الورق. أما في الواقع فإن قائدهم الجنرال ماك هو الذي استسلم مع جيشه كله[31]... هئ هئ هئ... أنني أرى، يا عزيزي روديون رومانوفتش أنك تسخر مني، لأنني أنا المدني المحض أضرب أمثلةً مستمدة من التاريخ الحربي. ولكن ما حيلتي؟ هذه نقطة الضعف فيَّ، أنني أحب فن الحرب، وأبلغ من حبه أنني أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد. لا شك أنني أخطأت في اختيار مهنتي في هذه الحياة. كان عليَّ أن أعمل في الجيش. هذا حق. لو عملت في الجيش، فلعلني لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون، ولكنني أصبح «ميجر» ناجحاً... هئ هئ هئ... الخلاصة... ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه الحالة الخاصة، فإن الواقع والطبيعة، يا سيدي العزيز، هما من الأمور الهامة جداً وفي بعض الأحيان فإنهما يدحضان أكثر الحسابات حكمةً! نعم، صدِّق شيخاً مثلي. أنني أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفيري بتروفتش هذا الكلام، فإنه وهو الذي لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً؛ حتى

أن صوته تغير، وظهره تحدب). ثم أنني رجل صريح. ألست رجلاً صريحاً؟ ما رأيك؟ أظن أن هذا واضح. أعتقد أنني صريح أكثر من اللازم: أنا أقول لك هذا كله مجاناً، لا أطلب جزاء ولا شكورا، هئ هئ... فلأكمل كلامي: أن يكون ا لمرء ذكياً فتلك ميزة لامعة في رأيي. أن الفكر زينة الطبيعة إن صح التعبير، وهو عزاء الحياة. وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكي أن يعمد إليه من حيل. فكيف تريد لقاضي تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل في شعاب هذه الحيل، ولا سيما إذا كان خياله نفسه يضلّله لأنه إنسان كسائر البشر، أليس كذلك؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب إلى نجدة قاضي التحقيق المسكين، فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق. وذلك هو البلاء، وذلك هو ما ينساه شبابنا «الذكي» الذي «يتخطى جميع الحواجز» (على حد التعبير الذي استعملته أنت بالأمس في كثير من الرهافة والمكر). قد يعمد صاحبنا إلى الكذب - أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين، عن حالة خاصة عن incognito «رجل مجهول»[32] - وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر. وقد يظن عندئذ أنه سينتصر، أنه سيقطف ثمرات مكره، ولكن ها هو ذا يغمى عليه فجأة في اللحظة الحرجة الخطرة! لنسلِّم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه. فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد في غرفة فاسدة الهواء. ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدَّم إلينا قرينة من القرائن. صحيح أنه ذرَّ الرماد في العيون بكثير من الحذق والبراعة، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة إلى درجة كافية. وذلك هو الفخ! وفي مرة أخرى ينساق مع ذكائه المتوقد، فيأخذ يعبث بالشخص الذي يشتبه فيه؛ فيُشحب لونه عمداً كأنما ليتسلى، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعي فكأنه شحوب حقيقي، غير أنه شحوب زائد، وهذه قرينة أخرى يقدمها. وهبه استطاع أن يخدع محدثه في تلك اللحظة، فإن محدثه، إنْ لم يكن غبياً، لا بد أن يرجع عن خطئه في الليل. نعم، هكذا تجري الأمور في كل خطوة. ثم أنه يبادر هو نفسه إلى السبق، فيأخذ يتدخل في أمور لا يسأله أحد عنها، ويثرثر دون

انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه، ويسترسل في تلميحات وإلماعات. نعم... يجيء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة: «لماذا لم يُعتقل حتى الآن؟» ألخ. هئ هئ... وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل، يمكن أن يقع لعالم نفسي، يمكن أن يقع لأديب. أن الطبيعة مرآة، أن الطبيعة أصفى مرآة، فيكفي المرء أن ينظر فيها. نعم، هذا هو الأمر. ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتش؟ هل ينقصك هواء؟ أأفتح النافذة؟

هتف راسكولنيكوف يقول:

- لا، لا تزعج نفسك! - ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله:

- أرجوك، لا تزعج نفسك!

وقف بورفيري أمامه، وانتظر قليلاً، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجلاً. فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهستيري فجأة، وقال بصوت قوي متميز، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين:

- يا بورفيري بتروفتش، إنني أرى أخيراً بوضوح أنك تشتبه فيَّ وتنسب إليَّ مقتل هذه العجوز وأختها إليزافيتا. وأني لأعترف لك من جهتي بأنني قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة. فإن كنت تعتقد أن من واجبك أن تلاحقني ملاحقة قانونية فلاحقني، وإن كنت تعتقد أن من واجبك أن تعتقلني فاعتقلني، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك عليَّ وأن يعذبني هذا التعذيب.

وأخذت شفتاه ترتجفان، وسطعت عيناه غضباً، ودوَّى صوته دوياً قوياً بعد ان كان حتى ذلك الحين مكظوماً. قال يصرخ بكل قواه، وهو يضرب المكتب بقبضة يده:

- لا، لن أسمح بهذا أبداً، هل تسمع يا بروفيري بتروفتش؟ لن أسمح بهذا أبداً!

فصاح بورفيري بتروفتش يقول مرتاع الهيئة:

- آه.. يا رب!.. ماذا هنالك؟ عزيزي روديون رومانوفتش، صديقي، ماذا أصابك؟

فصرخ راسكولنيكوف يردِّد مرة أخرى قوله:

- لن أسمح بهذا أبداً!

فدمدم بورفيري بتروفتش يقول بارتياع ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف:

- طيب، طيب، أخفض صوتك! وإلا قد يسمعون فيجيئون، فما عسى نقول لهم إذا جاءوا؟ هلاّ فكرت في هذا!

فكان راسكولنيكوف يردِّد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً:

- لن أسمح بهذا أبداً، لن أسمح بهذا أبداً!

فاستدار بورفيري وهرع إلى النافذة يفتحها بسرعة شديدة، قائلاً:

- ليدخل شيء من هواء. وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي إذا شربت قليلاً من الماء، فهذه نوبة...

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء، غير أن إبريقاً ملآن كان يوجد هناك، في محلِّه، في ركن من أركان الغرفة، فدمدم يقول وهو يركض نحو الإبريق:

- اشرب يا صديقي العزيز، فعسى أن يحسن إليك شرب قليل من الماء...

دُهش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف اللذين اظهرهما له بورفيري بتروفتش، واللذين كانا طبيعيين إلى درجة أنه سكت ووقف فاغر الفم يلاحظ صاحبه باستطلاع شديد. لكنه رفض الماء.

قال بورفيري بتروفتش:

- روديون رومانوفتش، عزيزي! لسوف تفقد صوابك إن أنت أصررت هذا الإصرار، أؤكد لك... خذ... إشرب... اشرب ولو جرعةً واحدة.

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس. وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس إلى شفتيه بطريقة آلية، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئزاز.

قال بورفيري بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب:

- نعم، هذه نوبة حقاً!.. هأنت ذا قد عدت إلى مرضك القديم. رباه! هل يمكن أن لا يداري المرء نفسه إلى هذا الحد؟ لقد جاءني دمتري بروكوفتش أيضاً، أمس... أنا أوافق... أوافق على أن لي طبعاً سيئاً... أتكلم... وأتكلم... وهذه هي النتائج التي تستخرجها أنت من كلامي! رباه! نعم، جاءني أمس، مساءً، بعدك، وتعشينا، وتكلم، وتكلم، فلم أفعل إلا أن أرفع ذراعي إلى السماء! بالمناسبة يخطر ببالي الآن هذا السؤال: أتراك أنت أرسلته؟ ولكن اجلس يا عزيزي! هلاّ جلست! إجلس، ناشدتك الله!..

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة:

- لا، لم أرسله أنا... ولكني علمت أنه جاء إليك، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً...

- كنت تعرف سبب مجيئه؟

- نعم، كنت أعرف سبب مجيئه، فماذا تستنتج من ذلك؟

- يا عزيزي روديون رومانوفتش، هل تظن أنني أجهل أي عمل من أعمالك؟ أنني أعرف كل شيء، إنني مطلع على كل شيء! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت تستأجر تلك الشقة عند هبوط الليل، وأنك شددت حبل الجرس، وأنك ألقيت أسئلة عن الدم، وأنك حيَّرت العمال والبوابين.

أنني أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها. . . ولكنني أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً، أحلف لك! . . سوف يستولي عليك الجنون. فالغضب الذي أثارته فيك الإساءات، إساءات القدر أولاً وإساءات رجال الشرطة بعد ذلك، هذا الغضب، مهما يكن غضباً نبيلاً، يغلي غلياناً شديداً في نفسك، وأنت لذلك تندفع إلى هنا وهناك، لتجبر الناس، إن صح التعبير، على أن يصغوا إليك، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدةً إلى الأبد. نعم، لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات، وسئمت جميع هذه الشبهات. أليس هذا صحيحاً؟ ألم أدرك حالتك النفسية؟ . . ولكنني أقول لك: أنك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك، وإنما ستجعل صديقنا رازوميخين يفقد عقله أيضاً. أنه أطيب كثيراً من أن يُقحمَ في مثل هذه الأمور، وأنت تعلم ذلك حق العلم. إنك أنت مريض، أما هو فإنسان طيب، وسيلتصق مرضك به. . . سأقصُّ عليك هذا حين تهدأ يا عزيزي. . . ولكن ما بالك لا تجلس؟ اجلس يا عزيزي، ناشدتك الله! أرجوك، استرح، إن وجهك منقلب. . . هلاّ جلست! . .

جلس راسكولنيكوف. لقد انقطع ارتجافه، ولكن جسمه كله كان يحترق من الحمى. وكان يصغي إلى بورفيري بتروفتش الذي يتحرك حوله بكثير من المودة والصداقة، كان يصغي إليه بدهشة ذاهلة وانتباه شديد، لكنه كان لا يصدِّق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضي التحقيق، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً إلى التصديق. إن الأقوال المفاجئة، غير المتوقعة، التي قالها بورفيري عن الشقة قد صعقته صعقاً، «كيف؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه؟ ويتحدث عنها هو نفسه؟»

تابع بورفيري كلامه فقال بسرعة:

– نعم، في حولياتنا القضائية مرّت حالة تشبه هذه الحالة تقريباً، حالة سيكولوجية مرضية، كالحالة الراهنة. اتهم رجل نفسه بارتكاب

جريمة قتل. يا لها من قصة! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام، وقدَّم وقائع، ووصف ظروفاً... شابك بعضها ببعض! لماذا؟ لأنه، على غير إرادة منه إطلاقاً، كان مسؤولاً بعض المسؤولية عن جريمة القتل تلك - بعض المسؤولية فقط - فلما عرف أنه قد أمدَّ الفاعلين بسبب دفعهم إلى ارتكاب جريمة القتل، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب، وأخذ يرتكب حماقات، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام، واختلطت في عقله الأمور، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل. ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً[33]، فبُرِّئ المسكين، وجعل تحت الوصاية. شكراً لمحكمة النقض! آ... آ... طبعاً يا عزيزي... من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة إلى الاهتياج هذا الجنوح، وحين يذهب في الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء... إن هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية. حتى لقد يحدث لإنسان في مثل هذه الحالات أن يرغب في إلقاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس. هذا إحساس له إغراء شديد. هو المرض يا روديون رومانوفتش، هو المرض! أنت قد أسرفت في إهمال معالجة مرضك! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً، لا صاحبك السمين البسيط ذاك! هو الهذيان يا صاحبي! كل شيء مردهُ عندك إلى الهذيان!

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف، لحظة.

«هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن؟ مستحيل، مستحيل!» ومضت في ذهنه هذه الفكرة، وهو يطردها عنه لأنه كان يحس مدى ما تدفعه إليه من حنق مسعور، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله.

صاح يقول وهو يركِّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ إلى لعبة بورفيري:

- أنا لم أكن أهذي! كنت أملك نفسي تماماً، أملك نفسي تماماً، أملك نفسي تماماً، هل تسمع؟

- نعم، أسمع وأفهم. أمس أيضاً قلتَ أنك لم تكن تهذي، حتى لقد ألححت على هذه النقطة. كل ما يمكن أن تقوله، أنا أفهمه. هئ هئ!.. ولكن أصغِ إليّ قليلاً يا عزيزي الشهم، يا عزيزي الطيب روديون رومانوفتش. هبنا سلّمنا بهذا... لو كنت أنت الجاني حقاً، لو كنت أنت الجاني فعلاً، أو لو كان لك أي شأن في هذه القضية المشؤومة، أكنت تلح هذا الإلحاح على أنك لم تكن تهذي، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعياً كل الوعي؟ أهذا ممكن؟ أسألك: هل هذا ممكن؟ في رأيي أنك كنت ستعمد عندئذ إلى نقيض ذلك تماماً! لو كنت تشعر بأنك الجاني، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحَّ، خلافاً لذلك، على أنك إنما فعلت ما فعلت وأنت في حالة هذيان؟ أليس كذلك؟

شعر راسكولنيكوف في هذا السؤال بشيء من المكر. وارتدّ إلى الوراء مستنداً إلى ظهر الأريكة حينما مال بورفيري بتروفتش نحوه صامتاً، فأخذ راسكولنيكوف يحدّق إليه مدهوشاً متحيراً.

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال:

- كلمة أخرى عن السيد رازوميخين، أقصد عن مسألة كونه أتى إليّ من تلقاء نفسه أو بتحريض منك. لقد كان من الأفضل لك أن تقول إنه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء إليّ بتحريض منك.

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحَّ على هذا في وقت من الأوقات. وشعر بقشعريرة تسري في ظهره. ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد تقبضت شفتاه على ابتسامة أليمة:

- إن ما تقوله كذب!

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما يجب أن يزنها:

- أنت تريد أن تبيّن لي من جديد أنك ترى مكري رؤية واضحة،

وأنك تعرف كل أجوبتي سلفاً. أنت تحاول أن تخيفني، أو أنت تسخر مني لا أكثر.

وفيما كان يقول له هذا الكلام، ظل يحدِّق إليه، ثم إذا بعداوة لا حدود لها تسطع في عينيه، فهتف يقول:

- أنت لا تقول شيئاً غير الكذب! أنك تعلم حق العلم أن خير خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق في حدود الإمكان، وأن لا يخفى ما لا حاجة إلى إخفائه. أنا لا أصدِّقك!

قال بورفيري ضاحكاً ساخراً:

- ما أحذقك! إن المرء لا يعرف حقاً من أي طرف يمسكك. هذه إذاً فكرة ثابتة عندك! أنت إذن لا تصدقني؟ ولكني أؤكد لك أنك تصدقني، وأنك صدّقتني حتى الآن بعض التصديق، وسأفعل ما يجعلك تصدقني تصديقاً كاملاً، لأنني أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً، ولأنني أتمنى لك الخير مخلصاً.

أخذت شفتا راسكولنيكوف ترتجفان.

وتابع بورفيري بتروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف إمساكاً رقيقاً، بمودة وصداقة، فوق الكوع قليلاً:

- نعم، أتمنى لك الخير، ثق بهذا... وأقول لك مرةً أخيرة إن عليك أن تعتني بصحتك. من أجلك إنما جاءت أسرتك، فكِّر في هذا ولا تنسه! يجب عليك أن تهدئ روع أهلك، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروِّعهم...

- ما شأنك أنت وهذا؟ ثم من أين علمت ذلك؟ وفيم يهمك ويعنيك؟ أنت إذن تراقبني، وتحرص على أن أعرف هذا!

- اسمع يا عزيزي، أنا إنما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت، منك أنت! ألست تلاحظ أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقصُّ كل شيء، عليَّ وعلى الآخرين؟ ولقد عرفت أيضاً، في مساء

أمس، تفاصيل شائقة جداً، من السيد رازوميخين، دمتري بروكوفتش رازوميخين. لقد قاطعتني الآن، ولكنني أقول لك أنك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحذرك القدرة على إدراك الأشياء إدراكاً سليماً. انظر مثلاً في مسألة الجرس تلك التي أتينا على ذكرها منذ قليل، والتي هي واقعة هامة جداً، ثمينة جداً (هي كذلك بلا جدال): طيب، لقد أطلعتك بنفسي على هذه الواقعة، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أي ارتياب؟ بالعكس، فلو كنت أرتاب فيك حقاً، لكان عليَّ أن أنوِّم مخاوفك، وأن لا أدعك ترى أنني على علم بهذه الواقعة، وأن أوجِّهك في اتجاه آخر تماماً ثم أهوي عليك بها فجأة كأنها ضربة فأس (على حد تعبيرك). لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقي عليك أسئلة كهذه الأسئلة: «قل لي أيها السيد: ما الذي ذهب بك إلى شقة المجني عليها، في الساعة العاشرة من المساء، بل في الساعة الحادية عشرة تقريباً؟ لماذا شددت حبل الجرس؟ ولماذا ألقيت أسئلةً عن الدم؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيِّر البوابين، وأردت أن تقاد إلى قسم الشرطة؟» كان ينبغي لي، وفقاً للأصول المتبعة، أن أنتزع منك إفادة، ثم إن أفتش منزلك، وربما أن أعتقلك. ولكنني فعلت خلاف ذلك تماماً. وإذن فأنا لا أشتبه فيك أي اشتباه. حقاً لقد فقدت القدرة على إدراك الأشياء إدراكاً سليماً، فأنت لا ترى شيئاً... أكرر لك هذا!..

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفيري بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك.

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة:

- أنت لا تقول شيئاً غير الكذب! لست أفهم نياتك، ولكنك تكذب، تكذب. منذ قليل لم تكن تكلمني بهذا المعنى. لا يمكن أن يخطئني ظني. أنت تكذب!

استأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال متحمساً، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية، دون أن يبدو عليه أي اكتراث بما قد يكون رأي راسكولنيكوف فيه:

- أنا أكذب؟ أنا أكذب؟ عجيب كلامك! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل، أنا قاضي التحقيق؟ لقد أوحيت إليك أنا نفسي بالوسائل التي تستطيع أن تدافع بها عن نفسك؟ لقد عرضت عليك أنا نفسي تلك السيكولوجيا كلها: «المرض، الهذيان، قسوة الإهانات، الكآبة، رجال الشرطة...»، الخ الخ. هئ هئ هئ! ومع ذلك أسارع فأقول لك أن جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه، وجميع أساليب التملص هذه، وجميع هذه الأعذار والتعليلات والمراوغات ليست قوية متينة، حتى أنها ذات حدين. فإذا أنت تعللت «بالمرض والهذيان» وإذا أنت قلت «إنك قد راودتك هلوسات، وأنك أصبحت لا تتذكر شيئاً»، فإن كلامك هذا كله يكون صحيحاً، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ: لماذا تراودك هذه الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً، أليس كذلك؟ ما رأيك؟ هئ هئ هئ!

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار. ثم قال بصوت قوي وهو ينهض فيصدم بورفيري قليلاً:

- باختصار يا بورفيري بتروفتش: أريد أن أعرف أأنت تعدني مبرأً من كل شبهة أم لا؟ تكلم يا بورفيري بتروفتش، تكلم كلاماً واضحاً، بسرعة، حالاً!

هتف بورفيري بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أي ارتباك:

- حقاً إنك لمتعب!.. ما حاجتك إلى أن تعرف هذا، إلى أن تعرف هذا كله. مع أن أحداً لم يبدأ حتى في أن يقلق راحتك أي إقلاق؟ يا لك من طفل! وتقول كالطفل: «أريد أن ألعب بالنار!» فلماذا، لماذا تعذب

نفسك هذا التعذيب كله؟ هلاً شرحت لي الأسباب التي تدفعك إلى أن تلفت نظرنا إليك؟ ما هي هذه الأسباب؟ هه؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً:

- أكرر لك أنني أصبحت لا أطيق أن أحتمل. . .

- أن تحتمل ماذا؟ عدم اليقين؟ - كذلك قاطعه بورفيري.

فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد:

- كفى سخرية! لا أستطيع! هل تفهم؟ أقول لك: لا أريد! لا أستطيع ولا أريد! . . هل تسمع؟ هل تسمع؟ . .

- اخفض صوتك، اخفض صوتك، وإلا سمعوك! إنني أنبهك إلى هذا جاداً. حذار! لست أمزح!

كذلك قال بورفيري متمتماً، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما كان عليه منذ قليل، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مروَّعة. بالعكس: هو الآن يلقي أوامر. أنه قاسي الهيئة، مقطب الحاجبين، فكأنه عدل دفعةً واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالماعات الملتبسة. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة.

اضطرب راسكولنيكوف، وأوشك أن يندفع في نوبة غضب جديدة، ولكن الشيء الغريب أنه خضع في هذه المرة أيضاً للأمر الذي صدر إليه، فخفض صوته.

وهمس يقول من جديد:

- لن أرضى بأن أُعذب هذا التعذيب. . .

لقد أدرك، وهو يشعر بألم يمازجه كره، أنه لا يستطيع إلا أن يخضع لهذا الأمر القاطع. ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً. وأضاف يقول هامساً:

- اعتقلني! فتش بيتي! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبث بي هذا العبث!. . ليس من حقك أن. . .

فقاطعه بورفيري قائلاً وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها، مع تظاهره بالسرور من التمتع برؤية راسكولنيكوف:

- لا تقلق بشأن الشكل والقواعد يا عزيزي! أنا إنما دعوتك بغير كلفة، دعوتك كما يدعو صديق صديقه.

- لا أريد صداقتك، لا أريدها، أنا أبصق عليها، هل تسمع؟ انظر: هأنا ذا أتناول قبعتي وأنصرف. فما عساك تقول الآن إذا كان في نيتك أن تعتقلني؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب.

فقال بورفيري مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد، فوق الكوع قليلاً، ويوقفه قرب الباب:

- ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة؟

كان مرح بورفيري يزداد ازدياداً واضحاً، وكان مزاجه يظهر ظهوراً أقوى، فانتهى ذلك إلى إخراج راسكولنيكوف عن طوره. فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة، وينظر إلى بورفيري مذعوراً:

- أي مفاجأة صغيرة؟ ماذا تعني؟

- المفاجأة الصغيرة قابعة هناك، وراء هذا الباب، هئ هئ هئ! حتى لقد أقفلت عليها بالمفتاح، مخافة أن تهرب. - قال بورفيري ذلك وهو يومئ بيده إلى الباب المغلق في الحاجز، الباب المفضي إلى شقته.

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه:

- ماذا؟ أين؟..

ولكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح فعلاً.

قال بورفيري:

- الباب مقفل. إليك المفتاح!

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه.

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه:

- أنت تكذب! أنت لا تفعل غير أن تكذب! أنت تكذب أيها المهرّج اللعين! - زعق راسكولنيكوف وهجم على بورفيري، فتراجع بورفيري نحو الباب، ولكن دون أن يظهر عليه أي رعب.

- أفهم كل شيء، كل شيء! - صرخ راسكولنيكوف وهو يقبل مهرولاً على بورفيري. - أنت تكذب وتعبث بي لأفضح نفسي...

- ولكن يا عزيزي روديون رومانوفتش، لستَ تستطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا. لقد خرجتَ عن طورك. لا تصرخ، وإلا استدعيت رجالي!

- أنت تكذب! لن يحدث شيء! استدع رجالك! لقد كنت تعلم أنني مريض، فأردت أن تهيج أعصابي وترهقني إرهاقاً يدفعني إلى أن أفضح نفسي! تلك كانت غايتك. لا... لا بد لك من وقائع! أريد وقائع! لقد فهمتُ الآن كل شيء. أنت لا تملك وقائع، أنت لا تملك إلا افتراضات تافهة سخيفة حقيرة، هي افتراضات زاميوتوف! كنتَ تعرف طبعي، فأردت أن تخرجني عن طوري لتفقدني بعد ذلك صوابي بقساوسة ونواب[34]... ألست تنتظرهم... هم؟ ماذا تنتظر؟ أين هم؟ ائتِ بهم!

- أي نواب تعني يا عزيزي؟ ما هذا الكلام العجيب؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها! ليس في وسعي، من باب «التقيد بالشكل ومراعاة الأصول»، على حد تعبيرك، ليس في وسعي أن... إنك تجهل أصول الإجراءات القانونية يا عزيزي! ولكنك سترى... سوف نتقيد بالشكل ونراعي الأصول.

بهذا جمجم بورفيري، وكان أثناء ذلك يصيخ بسمعه صوب الباب.

وفعلاً، سُمعت في تلك اللحظة ضجة في الغرفة المجاورة.

هتف راسكولنيكوف يقول:

- آ. . . ها هم أولاء يجيئون! لقد استدعيتَهم، لقد كنت تنتظرهم، لقد كنت تعوِّل عليهم. . . طيب. . . ائتِ بهم جميعاً إلى هنا. . . ائتِ بالنواب، وبالشهود، وبجميع من تشاء. . . ائت بهم! أنا مستعد، مستعد!

غير ان حادثاً غريباً قد وقع حينذاك، حادثاً يبلغ من البعد عن التوقع والتنبؤ به في سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفيري بتروفتش كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة.

الفصل السادس

إليكم كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره في المستقبل: إن الضجة التي سُمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعة شديدة، ثم شُقَّ الباب قليلاً. فصاح بورفيري بتروفتش يسأل غاضباً:

- ماذا هنالك؟ ألم أنبهكم مع ذلك؟

فلم يحصل على جواب، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقفون وراء الباب يحاولون، أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه. فسأل بورفيري بتروفتش متوجساً:

- ماذا هنالك؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً:

- جيء بالمعتقل نيقولاي.

فصرخ بورفيري قائلاً وهو يهرع نحو الباب:

- لا داعي إلى ذلك! اذهبوا! يمكن الانتظار! من الذي جاء به إلى هنا؟ ما هذه الفوضى؟

فبدأ ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال:

- ولكنه. . .

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة.

إن صراعاً حقيقياً قد نشب في ثانيتين، وبدا ان أحداً من الناس كان يُصدُّ بالقوّة عن الدخول، ثم إذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم غرفة بورفيري بتروفتش.

إن مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة. كان شاخصاً ببصره إلى أمام، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً. وفي عينيه يسطع عزم وحشي، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت نفسه، كأنه قد اقتيد إلى المقصلة. وشفتاه بيضاوان بياضاً تاماً، وهما تختلجان قليلاً.

هو رجل ما يزال شاباً، يرتدي ثياب عامة الناس، متوسط الطول، نحيل الجسم، قد قُصَّ شعره على صورة صحن، وقسمات وجهه دقيقة قاسية.

وكان الرجل الذي دفعه نيقولاي عنه فجأة أولَ من وثب راكضاً إلى الغرفة وراءه واستطاع أن يمسكه من كتفه - كان هو حارساً، لكن نيقولاي شدَّ ذراعه وأفلت من بين يدي الحارس مرةً ثانية.

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون، وكان بعضهم يحاول أن يدخل.

ان هذا المشهد الذي وصفناه الآن لم يدم إلا دقيقة واحدة.

قال بورفيري بتروفتش مدمدماً من بين أسنانه، منزعجاً أشد الإنزعاج، خارجاً عن طوره:

- اذهب! لم يحن الحين بعد! انتظر حتى أستدعيك! لماذا أسرعتم في المجيء به هذا الإسراع كله؟

ولكن نيقولاي جثا على ركبتيه. فهتف بورفيري بتروفتش يقول مذهولاً:

- ماذا دهاك؟

فقال نيقولاي فجأة، بصوت مختنق لكنه قوي:

- أنا الجاني! هذه جريمتي! أنا القاتل!

فخيَّم صمتٌ مطبق خلال عشر ثوان، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا. وحتى الحارس سقطت يداه، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك.

وهتف بورفيري بتروفتش يسأل نيقولاي بعد أن خرج من ذهوله القصير:

- ماذا هنالك؟

فكرر نيقولاي بعد صمت قصير:

- أنا... القاتل!

- كيف... أنت؟ كيف؟ من ذا قتلت؟

وارتبك بورفيري بتروفتش، كما يبدو، ارتباكاً تاماً. وصمت نيقولاي برهةً قصيرة.

- آليونا إيفانوفنا وأختها إليزافيتا إيفانوفنا. قتلتهما بفأس...

وأضاف يقول فجأة:

- كنت قد فقدت عقلي...

وصمت مرةً أخرى، وكان ما يزال راكعاً.

بدت علائم التفكير على بورفيري بتروفتش بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسته فجأة، فأومأ للحضور بحركة من يده أن يخرجوا. فأسرعوا يطيعون أمره؛ وأُغلق الباب من جديد. وبعد ذلك، نظر بورفيري بتروفتش إلى راسكولنيكوف الذي كان واقفاً في ركن من الغرفة يتأمل نيقولاي زائغ الهيئة. واتجه إليه وهمّ أن يكلّمه، ولكنه أمسك فجأة، وتفرس فيه، ثم أسرع ينقل بصره إلى نيقولاي، ثم إلى راسكولنيكوف، ثم إلى نيقولاي مرة أخرى.

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضب الذي استبد ببورفيري بتروفتش على حين فجأة، فإذا هو يهجم على نيقولاي فيقول له بلهجة تشبه أن يكون فيها كره:

- لماذا تجيء تقول لي منذ الآن أنك كنت قد فقدت عقلك؟ أنا لم أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا! قل: أأنت الذي قتلت؟

قال نيقولاي:

- نعم، أنا الذي قتلت. أصرِّح بذلك.

- هيه... وبماذا قتلت؟

- بفأس كنت قد حملتها.

- ألا أنك لمتعجل حقاً! وحدك؟

لم يفهم نيقولاي السؤال.

- هل قتلتهما وحدك؟

- نعم. لكن ميتكا بريء. لم يشارك في الجريمة أية مشاركة.

- لا تتعجل هذا التعجل كله في الكلام عن ميتكا! هيه... ولكن كيف فعلت... كيف فعلت لتنزل السلَّم؟ لقد رآكما البوابون كليكما.

أجاب نيقولاي متعجلاً، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى سرعة:

- إنما ركضت عندئذ... مع ميتكا... دفعاً للشبهات...

هتف بورفيري بتروفتش يقول بحنق:

- هذا هو الأمر! إذن هذا هو الأمر!

وجمجم يقول بينه وبين نفسه:

- إنه يكرر ما لُقِّن من كلام.

وإذا به يلمح راسكولنيكوف فجأة من جديد. أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولاي أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة

من الزمان. وها هو ذا قد تذكره الآن فجأة، حتى لقد تحيَّر. . .

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمي نحوه:

- روديون رومانوفتش، عزيزي، معذرة. ليس في إمكانك أن تبقى هنا، أرجوك. . . حقاً لم يبق لك هنا شأن. . . وأنا نفسي. . . هل ترى هذه المفاجأة؟!. . أرجوك. . .

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه، ويشير له إلى الباب.

طبيعي أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعد ماذا جرى، ولكنه قد استرد ثقته. فقال يخاطب بورفيري بتروفتش:

- لكأنك لم تكن تتوقع هذا.

فأجابه بورفيري:

- ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزي! انظر كيف ترتجف يدك!

- وأنت أيضاً ترتجف يا بورفيري بتروفتش!

- نعم، أنا أيضاً أرتجف. . . لأنني لم أكن أتوقع هذا.

وكانا قد وصلا إلى الباب. وكان بورفيري ينتظر خروج راسكولنيكوف نافد الصبر.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- وأين المفاجأة الصغيرة؟ لماذا لم تطلعني عليها؟

قال بورفيري بتروفتش مقهقهاً:

- إنه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك! هيه! إنك لا تخلو من سخرية. هيَّا، إلى اللقاء!

- أحسب أن من الأفضل أن تقول: الوداع!

فغمغم بورفيري بتروفتش يقول متقبِّض الشفتين كأنه يبتسم:

- كل شيء مرهون بإرادة الله، كل شيء مرهون بإرادة الله وحده.

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدِّق إليه. وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور بوابيْ تلك العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاداه إلى قسم الشرطة. كانا واقفين، وكأنهما ينتظران شيئاً ما. لكنه ما إن صار على السلم حتى سمع وراءه صوت بورفيري بتروفتش من جديد. فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهاثاً قوياً.

- كلمة، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش. فيما يتعلق بكل ما حدث ستجري الأمور على مشيئة الله، ولكن ما يزال عليَّ، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول، أن ألقي عليك بعض الأسئلة. لهذا سنلتقي مرةً أخرى، أليس كذلك؟

قال بورفيري بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً. ثم أردف يقول مرة أخرى:

- أليس كذلك؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك.

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً، وأصبح يشعر برغبة قوية في التفاخر:

- وأنت أيضاً، يا بورفيري بتروفتش، لا تؤاخذني على ما بدر مني منذ قليل. لقد اندفعت بعض الاندفاع...

فعاد بورفيري بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح:

- لا قيمة لهذا... لا قيمة لهذا... أنا أيضاً سيئ الطبع... أعترف بذلك، أعترف بذلك. ولكننا سنلتقي من جديد، إن شاء الله. سنلتقي أكثر من مرة.

قال راسكولنيكوف:

- وسنتعارف تعارفاً نهائياً. أليس كذلك؟

فقال بورفيري بتروفتش مؤيِّداً:

- نعم، ستتعارف تعارفاً نهائياً.

قال ذلك وهو ينظر إلى راسكولنيكوف في جد ورصانة، رغم أنه يغمز بعينه. وأضاف يسأله:

- أأنت ذاهب الآن إلى عشاء عيد ميلاد؟

- بل إلى عشاء جنازة.

- نعم نعم، عشاء جنازة! راع صحتك... الصحة أهم شيء، هه؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم:

- لا أدري حقاً يا بورفيري بتروفتش ما الذي يجب أن أتمناه لك.

ولكنه التفت فجأة، فأضاف يقول وهو يقابل بورفيري وجهاً لوجه:

- أردت أن أتمنى لك نجاحاً أكثر. ولكن ما أسخف وظيفتك!

وكان بورفيري يهمُّ أن ينصرف، ولكنه ما أن سمع هذا الكلام حتى سأل ناصباً أذنيه:

- وظيفتي سخيفة؟ لماذا؟

- لا شكّ في أنك عذَّبت هذا المسكين نيقولاي عذاباً شديداً، عذاباً سيكولوجياً... على طريقتك... إلى أن اعترف. لا شك في أنك ظللت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك: «أنت القاتل، أنت القاتل». والآن وقد اعترف ستمضي تحقنه بنغمة أخرى قائلاً له: «أنت تكذب. لست أنت القاتل. لا يمكن أن تكون أنت القاتل. لقد دُفعتَ إلى التظاهر بأنك أنت القاتل، ولكن...» فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه؟

- هئ هئ هئ!.. إذن لقد لاحظتَ منذ قليل ما قلته أنا لنيقولاي من أنه «يردِّد ما لُقن»؟

- كيف لا ألاحظ ذلك؟!

- ها... أنك لحاضر الذهن حقاً! إنك تلاحظ كل شيء! إن لك

فكراً فكهاً حاداً! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية. هيه. . . يقال إن جوجول كان، بين سائر الكتاب، هو الذي يَملك هذه الموهبة إلى أقصى درجة[35]، أليس كذلك؟

- نعم، جوجول.

- صحيح. هو جوجول. إلى اللقاء!

عاد راسكولنيكوف إلى بيته رأساً. وكان قد بلغ من شدة الإرهاق والإعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتمى على ديوانه. فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء إلا ليستريح ويستجمع شتات أفكاره. لم يحاول حتى أن يعلّل سلوك نيقولاي. كان مذهولاً مشدوهاً. كان يرى في اعتراف نيقولاي شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب. شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه الآن وأن ينفذ إلى كنهه. ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية: أن كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ولا بد أن يعودوا إليه ويتشبثوا به من جديد. على أنه سيبقى حراً إلى أن يحين ذلك الحين. فينبغي له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه!

لا يمكن تفاديه؟ إلى أي حد؟ وأخذ الموقف يتضح. فحين تذكّر راسكولنيكوف، على وجه الإجمال، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفيري، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً. صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفيري بعد، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته. ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من اللعبة التي حاولها بورفيري. لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفيري وقائع ثابتة. كان بورفيري يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضي، وقد نفذ إلى حقيقة طبعه منذ أول نظرة، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة، وإن يكن قد أسرف التعجل بعض الإسراف. صحيح أن

راسكولنيكوف قد تورَّط في كلامه مع بورفيري، ولكنه لمَّا يقدِّم له وقائع ثابتة. فليس هناك حتى الآن إلا ظنون وتخمينات. ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته؟ ألم يكن مخطئاً البتة؟ ما هي النتيجة المعينة المحدَّدة التي كان بورفيري يسعى إليها اليوم؟ هل كان قد دبَّر شيئاً لهذا اليوم نفسه؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة؟ أكان يتوقع شيئاً ما؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت، بفضل نيقولاي، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان؟

كان بورفيري قد كشف كل لعبته تقريباً. صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الإسراف، ولكنه قد كشف لعبته على كل حال. ولو كان يملك معلومات أخرى (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) لما قصَّر في إظهارها والاستناد إليها. ثم ما هي تلك «المفاجأة» التي ألمع إليها؟ أكانت هذه مزاحة؟ وهل لهذه المزاحة من معنى أم هي ليست بذات معنى؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس؟ وأين اختفى ذلك الرجل؟ أين هو اليوم؟ ذلك أنه إذا صدق أن بورفيري يملك شيئاً إثباتياً، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس.

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره، مائلاً إلى الأمام، واضعاً كوعيه على ركبتيه، دافناً وجهه في يديه. وما يزال ارتعاش عصبي يهز جسمه كله. ونهض أخيراً، فتناول قبعته، ولبث يحلم خلال لحظة، ثم اتجه نحو الباب.

إن نوعاً من إحساس تنبؤي كان يقول له إنه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان. وشعر فجأة بشيء من فرح: أراد أن يذهب إلى كاترينا إيفانوفنا بأقصى سرعة. كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً، ولكنه يستطيع أن يصل إلى المأدبة في حينها، فيرى هنالك صونيا فوراً.

توقف، وفكَّر، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة. وقال يردد بينه وبين نفسه:

- اليوم! اليوم! في هذا اليوم نفسه! لا بدَّ!..

وفي اللحظة التي همَّ فيها أن يفتح الباب، فُتح الباب من تلقاء نفسه فجأة. ارتعش راسكولنيكوف، وتراجع إلى الوراء بوثبة. كان الباب ينفتح ببطء ورفق. وظهر شكل إنساني، هو شكل الرجل الذي خرج بالأمس من تحت الأرض.

وقف الرجل على العتبة، ونظر إلى راسكولنيكوف صامتاً، ثم تقدم في الغرفة خطوة. هو اليوم كما كان بالأمس: نفس الهيئة واللّباس، لكنَّ وجهه ونظرته تغيرا تغيراً شديداً: كانت عيناه حزينتين وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة. ليس يعوزه إلا أن يسند خده على راحة يده، وأن يميل برأسه إلى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه.

سأله راسكولنيكوف كالمجنون:

- ماذا تريد؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخرى، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال.

صاح راسكولنيكوف يسأله:

- ماذا تفعل؟

فقال الرجل بصوت خافت:

- أنا مذنب!

- ما ذنبك؟

- إنني راودتني أفكار شريرة خبيثة!

ونظر كل منهما إلى الآخر. وتابع الرجل كلامه فقال:

- كنتُ منزعجاً. فلما جئتَ أنت في ذلك اليوم، ولعلك كنت عندئذ في حالة سكر، فطلبتَ من البوابين أن يقتادوك إلى قسم الشرطة، وألقيتَ أسئلة عن الدم، آلمني أن أرى أنهم لم يكترثوا بالأمر، وعدُّوك سكران لا أكثر، وبلغتُ من شدة الألم أنني أرقت فلم أستطع إلى النوم سبيلاً. وإذ حفظت عنوانك، فقد جئت مساء أمس أسألك...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك:

- من الذي جاء؟

- أنا، أنا الذي أسأت إليك.

- أأنت إذاً من تلك العمارة؟

- نعم، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين، ألا تتذكر؟ لي هنالك دكان صغيرة، منذ زمن طويل. أنا أعمل في إصلاح الفراء، وأقوم بعملي في بيتي. والأمر الذي آلمني خاصةً...

تذكر راسكولنيكوف تذكراً واضحاً، على حين فجأة، كل المشهد الذي جرى تحت الباب الكبير. فقال لنفسه: حقاً كان هنالك، عدا البوابين، أشخاص عدة بينهم نساء. وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده إلى قسم الشرطة. أنه لم يرَ وجه الرجل الذي تكلم حينذاك؛ ولو قد رآه لما كان في وسعه أن يتعرفه على كل حال. ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه.

هذا هو إذاً تفسير ليلة الأمس تلك المروِّعة! وأفظع ما في الأمر أنه كاد يضيِّع نفسه فعلاً بسبب حادثة تافهة إلى هذا الحد من التفاهة. إن هذا الرجل لا يستطيع إذاً أن يروي شيئاً آخر غير ذهابه إلى الشقة وسؤاله عن الدم. معنى هذا أن بورفيري أيضاً لا يملك أي دليل قاطع، لا يملك أية واقعة ثابتة، عدا ذلك الهذيان، عدا تلك السيكولوجيا ذات الحدين. هو لا يتصور إذاً واقعة أخرى (ولا يجب عليه أن يتصور، لا يجب عليه، لا يجب عليه).. ما الذي كان يمكن أن يصنعوه به إذاً؟ كيف كان

يمكن أن يربكوه وأن يورِّطوه في الاعتراف ولو اعتقلوه؟ وينتج عن هذا إذاً أن حادثة ذهابه إلى الشقة لم يعلم بها بورفيري بتروفتش إلا منذ قليل، وكان قبل ذلك يجهلها.

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت في ذهنه فكرة مباغتة:

- أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفيري. . . أنني ذهبت إلى هناك؟

- بورفيري؟ أي بورفيري؟

- نعم، قاضي التحقيق.

- صحيح. قلت له ذلك. فلأن البوابين لم يذهبوا إليه في ذلك اليوم، ذهبتُ إليه أنا.

- اليوم؟

- قبل أن تصل بدقيقة واحدة. وقد سمعت كل شيء، كل شيء، سمعت كيف كان يعذبك.

- أين؟ كيف؟ متى؟

- منذ قليل، هناك، عنده، وراء الحاجز. بقيت هنالك طوال الوقت.

- كيف؟ أأنت «المفاجأة الصغيرة» إذاً؟ ولكن كيف تمَّ هذا؟ قل!

بدأ الرجل يتكلم فقال:

- حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعوني، ويرفضون أن يذهبوا إلى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر، وأن قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا إليه بسرعة أكبر، تضايقت كثيراً، وأرقت طوال الليل، وأخذت أسأل الناس، وحصلت على معلوماتي. فلما حصلت عليها، ذهبت إلى قسم الشرطة في هذا الصباح. في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك، فرجعت بعد ساعة، فلم أُستقبل. وفي

المرة الثالثة قبلوني. رويت للقاضي الأشياء كما وقعت، فأخذ يركض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده، ويقول: «ماذا تفعلون معي يا عصابة من قطاع الطرق؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئونني به!». وبعد ذلك خرج راكضاً، ونادى أحداً، فأخذ يكلمه في ركن. ثم عاد نحوي، وأخذ يلقي عليَّ أسئلة ويشتمني. لامني كثيراً. وقصصت أنا عليه كل شيء، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيبني، وقلت له إنك لم تتعرفني. عندئذ عاد يجري في الغرفة ويلطم صدره. كان يركض ركضاً، وهو غاضب.. يركض... ويركض... ومنذ ذُكر له أنك أتيت، قال لي: «أسرع، اختبئ وراء الحاجز، وابق هنالك بدون حراك، مهما تسمع». وحمل إليَّ بنفسه كرسياً، وأغلق عليَّ الباب قائلاً: «قد استدعيك». ولكن حين جيء بنيقولاي، صرفني بعد أن صرفك فوراً. وقال لي: «سأستدعيك مرةً أخرى لأستجوبك».

- وهل استجوب نيقولاي أمامك؟

- صرفني بعد أن صرفك فوراً، وأخذ يستجوب نيقولاي.

توقف الرجل عن الكلام، وانحنى مرة أخرى، ولامست إحدى أصابعه الأرض مرة أخرى، وقال:

- أغفر لي وشايتي والإساءة التي ألحقتها بك.

فأجابه راسكولنيكوف:

- الله يغفر لك!

وبعد أن نطق راسكولنيكوف بذلك الكلام انحنى الرجل له مرة ثالثة، ولكنه لم ينحن في هذه المرة حتى الأرض، بل حتى الحزام فقط، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «كل شيء ذو حدين، كل شيء هو الآن ذو حدين». ثم غادر الغرفة هو أيضاً، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أي وقت مضى.

قال وهو يهبط السلم ويبتسم ابتسامة ساخرة: «الآن سنتابع الصراع». وكانت الابتسامة الساخرة موجهة ضدَّ نفسه في هذه المرة: كان يتذكر عندئذ «جبنه»، بكره واحتقار.

الجُزْءُ الخَامِسُ

الفصل الأول

غداة اليوم المشؤوم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بيوتر بتروفتش وبين دونيا وبولخيريا ألسكندروفنا، استيقظ بيوتر بتروفتش من نومه وثاب إلى صوابه، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض، أنه مضطر أن يقبل، قبوله لواقع راهن حاسم، الأمرَ الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً. إن الأفعى السوداء، أفعى الأنانية الجريحة المهانة، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل. فما أن نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر إلى وجهه في المرآة. لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في إفراز الصفراء الصغيرة. غير أن كل خطر من هذه الناحية كان، حتى الآن على الأقل، قد تمَّ تفاديه. فلما تأمل في المرآة وجهه النبيل الأبيض المتعجِّن قليلاً منذ بعض الوقت، عزَّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد في مكان ما خطيبةً في بيت قد يكون مناسباً أكثر من الناحية الأخلاقية. ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن معه. ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بيوتر بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينهما في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجَّلها له. وتضاعف غضبه وحنقه حين قدَّر فجأة أنه ما كان ينبغي له أن

يطلع أندريه سيميونوفتش على نتائج المقابلة. هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ الأمس بشدة الاندفاع، وفورة الغضب، وتسرّع البوح. . .

وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح، كأنما عن عمد، أن تنصّب عليه المزعجات تلو المزعجات، فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره إخفاق في القضية التي كان يعالجها وقد أحنقه خاصةً مالكُ الشقة التي استأجرها بيوتر بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب، وأصلحها على نفقته هو. فمالك الشقة هذا، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بغض الغنى، وأصله ألماني، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الإيجار، وأصرّ على أن يدفع له بيوتر بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد، رغم أن بيوتر بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جُدِّدت تجديداً شبه تام. وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث، إذ إن صاحب المتجر لم يشأ إطلاقاً أن يردّ إليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث، رغم أن قطعةً واحدةً من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد. قال بيوتر بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه: «هل أتزوج يا ترى، خصيصاً من أجل أثاث؟». وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد، فتساءل: «أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة؟» وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الآخاذة، فتمزق قلبه حسرةً ولوعةً من جديد، وعانى عِذاباً أليماً خلال دقيقة، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله، لرغب تلك الرغبة على الفور.

وقال لنفسه وهو يعود إلى ليبزياتنيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزيناً: «من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً! شيطان يأخذني! ما بالي تصرفت تصرف يهودي بخيل؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح، وإنما أنا أردت أن أبقيهم في حالة الحاجة والعوز، حتى أجعلهم

يعدُّونني منقذاً ومخلِّصاً... آه... لو أنني أعطيتهم خلال هذه المدة... ألفاً وخمسمائة روبل مثلاً، لإعداد جهاز العرس... لو أنني قدمت هدايا صغيرة، لو أنني قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التي يجدها المرء في متجر كنوب أو في المتجر الإنجليزي(36) بأثمان بخسة، لو أنني فعلت ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح، ولقامت المسألة على أسس أقوى وأوطد. ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف. ذلك شأن هذا النوع مِن الناس: يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ الخطوبة إلى ردِّ الهدايا والمال جميعاً. فلو كنت قد قدمت إليهم هدايا ومالاً لعزَّ عليهم ولشق عليهم أن يردُّوا... ثم إن ضميرها كان سيعذبها إذا هي فكرت في فسخ الخطوبة: كانت ستقول لنفسها: كيف؟ أأطرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً في جميع الأوقات؟ هِمْ... لقد ارتكبت خطأً فاحشاً». ثم أسرع بيوتر بتروفتش ينعت نفسه بأنه غبي - بينه وبين نفسه طبعاً - وهو يصرف بأسنانه من جديد.

فلما وصل إلى هذه النتيجة عاد إلى بيته وقد ازداد الشر والحنق في نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه. وقد لفتت انتباهه الاستعدادات التي كانت قائمة في غرفة كاترينا إيفانوفنا لمأدبة الجنازة. كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً، حتى لقد كان يخيَّل إليه أنه يتذكر أنه هو نفسه دُعي إلى هذه المأدبة، ولكنه لاستغراقه في همومه الخاصة لم ينتبه إلى أي شيء عداها. وأسرع يستطلع مدام ليبفكسل التي كانت أثناء غياب كاترينا إيفانوفنا في المقبرة منهمكةً حول المائدة، وكانت تهمُّ أن تنهض، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع المستأجرين مدعوون إليها، حتى أولئك الذين لم يعرفوا المتوفى، بل وحتى أندريه سيميونوفتش ليبيزياتنيكوف، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترينا إيفانوفنا، وأنه هو نفسه، بيوتر بتروفتش، ليس مدعواً

فحسب، بل هو إلى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأناً وأعظمهم قدراً. وقد دُعيت أيضاً آماليا إيفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال، رغم ما وقع بينها وبين كاترينا إيفانوفنا في الماضي من حوادث طارئة مؤسفة، وهي الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة. وهي فوق هذا كله، رغم ارتدائها ثياب الحداد، تتبختر بثوب من حرير، جديد أنيق رشيق، مزدان بزخارف كثيرة، وتبدو فخورة به متباهيةً معتزة.

هذه الوقائع والمعلومات كلها أوحت إلى بيوتر بتروفتش بفكرة ما، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة، ذاهلاً بها عمّا عداها. ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المَدعوين.

لسبب من الأسباب قضى آندريه سيميونوفتش ذلك الصباح كله في غرفته. وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بيوتر بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال: كان بيوتر بتروفتش يحتقر ليبزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره، تقريباً منذ اليوم الذي أقام فيه عنده؛ ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية. لقد نزل عند آندريه سيميونوفتش منذ وصوله إلى بطرسبرج، لا بسبب البخل الشديد فحسب - رغم أن هذا هو الدافع الرئيسي في حقيقة الأمر- بل لسبب آخر أيضاً. أنه، وهو في الريف، قد سمع عن ربيبه اليتيم آندريه سيميونوفتش، سمع أنه شاب تقدمي متطور، بل إنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التي أصبحت أشبه بالأساطير. فتأثر بيوتر بتروفتش بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه. إن هذه الفئات القوية، العالمة بكل شيء، التي تحتقر جميع الناس، وتفضح جميع الناس، كانت توحي إليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال. لا شك أنه لإقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكوِّن لنفسه

فكرة دقيقة (حتى ولا تقريبية) عن شيء من هذا النوع. كل ما هنالك أنه سمع، كسائر الناس، أنه يوجد، في بطرسبرج خاصةً، أناس يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين[37]، الخ، ولكنه كان، ككثير من الناس، يضخِّم دلالة هذه الألفاظ ومعناها، حتى ليشوِّهها تشويهاً عجيباً. وهو منذ بضع سنين إنما يخشى التشهير أكثر مما يخشى أي شيء آخر. نعم، ذلك هو الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة، ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله إلى بطرسبرج. بهذا المعنى نستطيع أن نقول أنه كان مروَّعاً حقاً كما يُروَّع الأطفال الصغار في بعض الأحيان. إنه قبل هذه الآونة ببضع سنين، قد شهد في الريف، وكان ما يزال في بداية مزاولته مهنته، حالة رجلين من أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك التشهيرات فنالت منهما بقسوة شديدة، وقد دافع هو عن ذينك الرجلَيْن فكانا يحميانه ويرعيانه بعد ذلك. فأما إحدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذي ناله التشهير إلى الفضيحة والجرصة، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من المتاعب والنكد. ذلكم هو السبب الذي جعل بيوتر بتروفتش يحرص منذ وصوله إلى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء، وان يفهم الأحوال، وأن لا تفوته المبادرة إذا اقتضى الأمر ذلك، في سبيل أن ينال الحظوة لدى «أجيالنا الشابة». وكان يعوِّل في هذا على آندريه سيميونوفتش. وعلى هذا النحو إنما استطاع، مثلاً، حين التقى براسكولنيكوف، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره . . .

وهو لم يلبث، بطبيعة الحال، أن اكتشف في آندريه سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً إلى أبعد الحدود. ولكن ذلك لم يغيِّر رأيه، ولبث قلقاً غير مطمئن. إنه على وجه الإجمال لا شأن له بهذه الأفكار والتعاليم والاعتقادات كلها (التي كان آندريه سيميونوفتش يقرِّع بها أذنيه، ويصدِّع بها رأسه)، وإنما كانت له غاية معينة وهدف محدَّد: كان يريد أن يعرف، بأقصى سرعة، ماذا حدث هنا وكيف؟ هل هؤلاء الناس

أقوياء لهم حول وطول، وسلطان ونفوذ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما؟ أتراه يوشى به إذا هو شرع في هذا الأمر أو ذاك؟ وإذا وُشي به، فما هي، على وجه التحديد، النقاط التي ستكون الآن محل الوشاية وموضع التنديد والتشهير؟ بل أكثر من ذلك: ألا يستطيع المرء، إذا هم كانوا أقوياء ذوي سلطان، أن يتسلل إليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشّهم ويضلّلهم؟ أهذا ضروري حقاً أم لا؟ أليس في وسع المرء، بواسطتهم، أن يهيئ لنفسه نجاحاً في عمله وتقدماً في مهنته مثلاً؟ بإيجاز: كانت مئات من الأسئلة تلقي نفسها عليه.

وكان آندريه سيميونوفتش هذا، وهو مستخدمٌ في مكان ما بمثابة موظف، كان رجلاً هزيلاً بائساً عليلاً؛ وهو قصير القامة، أشقر شقرةً غريبة، له على جانبي خديه سالفان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً. وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع في عينيه دائماً على وجه التقريب. وإذا كان طبعه رخواً فإن أحاديثه تدل على غرور يبلغ في بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة، وذلك يتنافى مع شكله الهزيل تنافياً مضحكاً. على أنه كان عند آماليا إيفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين، لأنه كان لا يشرب، ويدفع أجر غرفته في موعده على نظام مطرد لا يتخلّف. غير أن آندريه سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا رجلاً غبياً في حقيقة الأمر. إن العاطفة الهوجاء هي التي ربطته بالآراء التقدمية و«أجيالنا الصاعدة». وهو واحد من تلك الفئة الكبيرة المتعددة الأنواع من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي يعرفون أنها رائجة رواج «الموضة»، والذين يفسدون ويشوّهون لتوّهم كل ما يستعملونه هم أنفسهم، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً في بعض الأحيان.

ثم أن ليبزياتنيكوف، رغم أنه مسالم إلى أبعد حدود المسالمة، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بيوتر بتروفتش الذي كان في الماضي وليّ أمره والوصيّ عليه، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكنته في غرفته. ونشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاء نفسه. لقد أخذ

آندريه سيميونوفتش يلاحظ، رغم غبائه، أن بيوتر بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره، وأنه «ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو». وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين[38]، ولكن بيوتر بتروفتش أصبح يحلو له، ولا سيما في الأيام الأخيرة، أن يصغي إلى كلامه ساخراً مستهزئاً، حتى لقد أصبح يمضي في ذلك إلى حد إهانته. وإنما نشأ عن ذلك أن بيوتر بتروفتش قد اكتشف بغريزته أن ليبزياتنيكوف ليس رجلاً غبياً فحسب، بل إنه أيضاً متبجح ليس له أية علاقات هامة حتى في بيئته، وأنه لم يسمع ببعض الأفكار إلا على نحو غير مباشر، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء من المقدرة في مجال الدعاية، لأنه يضطرب في الكلام ويرتبك في الحديث، فأنّى له أن يشهِّر بأحد أو بشيء! وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين إلى أن بيوتر بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل، برضى وارتياح، الأماديح التي كان يكيلها له آندريه سيميونوفتش، حتى ولو كانت غريبة جداً، أو قل على الأقل أنه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها. كان يصمت مثلاً حين ينسب إليه آندريه سيميونوفتش أنه ينوي أن يعاون قريباً، بل قريباً جداً، في إنشاء كومّونة جديدة في مكان ما بشارع ميشيانسكايا[39] أو حين ينسب إليه أنه ينوي أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج؛ أو حين ينسب إليه أنه لن يعمِّد الأولاد الذي سيولدون له، الخ. كان بيوتر بتروفتش، على عادته، لا يُنكر المزايا التي تُنسب إليه، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع، فإلى هذا الحد كان يحب أن يُمدح.

إن بيوتر بتروفتش الذي بدَّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب، جالسٌ الآن إلى المنضدة يراجع عدَّ حزم الأوراق المالية. وهذا آندريه سيميونوفتش الذي لم يكد يملك مالاً في يوم من الأيام يتجول في الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر إلى حُزم الأوراق المالية بغير

اكتراث، بل وباحتقار. ولكن بيوتر بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدِّق أن آندريه سيميونوفتش ينظر إلى هذه الحزم بغير اكتراث حقاً. وكان آندريه سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المرارة أن بيوتر بتروفتش ربما كانت تدور في رأسه تلك الفكرة، وربما كان يجد فيها لذة، وربما كان يريد أيضاً، بعرض هذه الأوراق المالية، أن يسخر من صديقه الشاب، وأن يذكِّره على هذا النحو بكل تفاهته، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التي تفصلهما.

وقد وجده في ذلك اليوم أكثر حدة، وأقلّ انتباهاً منه في أي وقت مضى، رغم أنه هو آندريه سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضَّلة في ضرورة إقامة «كومونة» جديدة من نوع خاص. إن الملاحظات القصيرة التي كان يرسلها بيوتر بتروفتش مع انشغاله بتنقيل الكرات على أسلاكها في جهاز العَدّ، كانت تتسم بسخرية واضحة وتتصف بقلة الكياسة. ولكن آندريه سيميونوفتش، هذا الداعية من دعاة «الأفكار الإنسانية»، كان ينسب اعتكار مزاج بيوتر بتروفتش إلى الأثر الذي أحدث في نفسه فسخ الخطبة؛ وكان يحترق شوقاً إلى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة، لأنه يريد أن يدلي في هذا الصدد ببعض الآراء التقديمة التي قد تواسي صديقه المحترم، والتي «لا بد» أن تكون نافعة في تطوره المقبل. قاطع بيوتر بتروفتش صاحبه في أهمِّ موضع من حديثه سائلاً على حين فجأة:

– ما مأدبة الجنازة هذه التي تُهيَّأ عند تلك... الأرملة؟

فأجابه آندريه سيميونوفتش باستغراب قائلاً:

– كأنك لا تعلم! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس، حتى لقد شرحت لك آرائي في هذا النوع من الاحتفالات. ثم إنني قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً، وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس...

– ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغبية في سبيل حفلة عشاء، كل المال الذي أخذته من ذلك الغبي الآخر... اقصد راسكولنيكوف! لقد

دُهشت منذ قليل حين مررت بمسكنها. استعدادات عظيمة! حتى الخمر لا ينقص هذه المأدبة!

وتابع بيوتر بتروفتش كلامه يريد أن يجرَّ الحديث إلى غاية لا يعرف المرء ما هي:

- دُعي أشخاص كثيرون... الشيطان وحده يعلم...

ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه:

- ماذا؟ تقول إنني مدعو أيضاً؟ متى دعيت؟ أذكر أنني دعيت! على أنني لن أحضر. ما عساني فاعلاً هناك؟ كل ما في الأمر أنني قلت لها بالأمس، عابراً، أن في وسعها أن تحصل، لأنها أرملة موظف معوزة، على معونة يساوي مقدارها مرتبات سنة. أتراها دعتني لهذا السبب وحده؟ هئ هئ!..

قال ليبزياتنيكوف:

- أنا أيضاً لا أنوي أن أحضر.

- آمل ذلك. فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك، فمن الطبيعي جداً أن يعذبك ضميرك إذا أنت فكرت في الذهاب إلى عندها.

سأله ليبزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه:

- من ذا ضربت ضرباً مبرحاً؟ عمن تتكلم؟

- عن كاترينا إيفانوفنا طبعاً. لقد ضربتَ كاترينا إيفانوفنا منذ شهر، أو هذا ما سمعته أمس على الأقل. انظروا إلى رجال المبادئ والعقائد هؤلاء! هذه طريقتهم في حل قضية المرأة! هئ هئ هئ!

وكأنما خففت هذه الكلمات عن بيوتر بتروفتش، فعاد ينهمك في حساباته.

وصاح ليبزياتنيكوف يقول بلهجة حانقة مغتاظة، وكان لا يطيق أن يذكِّره أحد بتلك القصة:

- ما هذه إلا حماقات ونمائم. ما هكذا جرت الأمور، وإنما جرت الأمور على نحو آخر تماماً! لم يطلعوك على الواقع كما حدث. هذه أقاويل، هذه أقاويل لا أكثر! أنا إنما دافعت عن نفسي فحسب! فهي التي هجمت عليَّ مكشِّرة عن أنيابها منشبةً مخالبها، فما زالت بي حتى نتفت لي سالفاً بكامله! أحسب أن من حق كل إنسان أن يدافع عن نفسه. ثم إنني لا أسمح لأي مخلوق أن يعمد في معاملتي إلى العنف، وذلك إيماناً مني بمبدأ لا أحيد عنه، لأن العنف استبداد. فماذا كان يجب عليَّ أن أفعل؟ أأبقى أمامها مبسوط الذراعين؟ كل ما فعلته هو أنني دفعتها عني.

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية:

- هئ هئ هئ!..

- أنت تسعى إلى مشاجرتي، لأنك معتكر المزاج. وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة إطلاقاً، إطلاقاً. لقد فهمتَ الأمر مقلوباً. إنني لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساويات للرجال في كل شيء[40]، حتى في باب القوة (كما يُؤكَّد هذا منذ الآن)، فقد وجب الإبقاء على المساواة في هذه الحالة أيضاً. طبعاً... أنا قلت لنفسي بعد ذلك أن أمثال هذه المسائل ينبغي أن لا تُطرح أصلاً، لأن المنازعات ما ينبغي أن توجد، حتى أنها ستكون في مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها، وأنه لشيء غريب، تبعاً لذلك، أن ننشد المساواة في مشاجرة. أنا لست غبياً إلى الحد الذي... رغم أن المشاجرات ما تزال قائمةً طبعاً بانتظار ذلك... أعني أن المشاجرات ستزول في المستقبل، لكنها ما تزال إلى اليوم موجودة... هوه! أن المرء ليرتبك حين يكلمك، وتختلط عليه الأمور... مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب في أنني لن أحضر العشاء. وإنما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ، حتى لا أشارك في هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية،

أعني مأدبة الجنازة. نعم، ذلك هو السبب. على أنني قد أحضر المأدبة، ولو لأضحك منها، واستهزئ بها. . . من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس، وإلا لما فوّت على نفسي فرصة الحضور.

- أي أنك كنت ستجلس إلى مائدة الناس لتبصق بعد ذلك في الأطباق، ولتبصق أيضاً في قلوب أولئك الذين دعوك؟ أليس كذلك؟

- ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج. أنا إن فعلت ذلك فإنما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة. ففي وسعي بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر. أن على كل إنسان أن يساهم في تنمية الدعاية، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى. أن في إمكاني أن أبذر الفكرة، أن ألقي البذرة. ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة. فيم أسيء إليهم إذا أنا فعلت ذلك؟ قد يشعرون في أول الأمر طبعاً بأن إساءةً لحقتهم، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أنني كنت نافعاً لهم. انظر إلى قضية المرأة تيربيبفا عندنا (المرأة التي تنتمي الآن إلى الكومونة). . . لقد تركت أهلها. . . واستسلمت لرجل، فأخذوا عليها أنها كتبت إلى أبويها قائلةً إنها أصبحت لا تريد أن تعيش في الأوهام الاجتماعية، وأنها تؤثر الزواج الحر. لقد قال الناس عندئذ إن تصرفها إزاء أبويها كان فيه كثير من الغِلظة، وأنها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل في رسالتها أسلوباً أرق. أما أنا فأرى أن هذه الكلام كله سخف، وأن على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً. بالعكس: لا بد من الاحتجاج. . . وانظر إلى المرأة فارنتس: لقد عاشت مع زوجها سبع سنين، ثم تركته وتركت ولديها؛ وفي الرسالة التي بعثت بها إليه لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام، فقالت: «أدركت أنني لن أستطيع أن أكون سعيدة معك. ولن أغفر لك، ما حييت، أنك أخفيت عني أن هناك تنظيماً آخر للمجتمع على أساس الكومونة. لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسأنشئ معه كومونة. أقول لك هذا بصراحة، لأنني أعتقد

أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف في شيء أن أكذب عليك وأن أخدعك. دبّر أمورك على النحو الذي يرضيك، ولا تأمل أن تراني عائدة إليك. . . إنك متخلف مسرف في التخلف. أتمنى لك أن تكون سعيداً». هكذا إنما ينبغي أن تُكتب أمثال هذه الرسائل!

- أليست تيربيبفا هذه هي تلك التي قلت لي إنها الآن في زواجها الحر الثالث؟

- لا، بل هي في زواجها الحر الثاني إذا نحن أحسنا النظر في الأمور. وهبها في زواجها الحر الرابع عشر أو الخامس عشر، فأي ضير في هذا؟ لئن أسفت يوماً على موت أبويَّ فإنما أسفت على ذلك في هذا اليوم. حتى لقد اتُّفق لي مراراً أن قلت لنفسي: لو كان أبواي حيين لعرفت كيف أحتجّ عليهما! نعم، لو كانا حيين لفعلت ذلك عامداً، فأظهرتهما على آرائي، وأدهشتهما أيما إدهاش! حقاً أنني أتمنى لو أراهما حيين. . . حقاً أنه ليؤسفني أنهما ماتا!

قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً:

- لتستطيع أن تدهشهما؟ هئ هئ!. . طيب. . . افعل ما يحلو لك. . . ولكن قل لي: أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً، تلك الفتاة الصغيرة النحيلة، فهل صحيح ما يقال عنها؟

- ما قيمة هذا؟ في رأيي، أعني في قناعتي الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعي للمرأة. لم لا؟ أقصد distinguons![41] لا شك أن وضعها هذا ليس في المجتمع الحالي وضعاً طبيعياً، لأنه ناشئ عن اضطرار وإكراه، أما في المجتمع المقبل، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً، لأنه سينشأ عن اختيار حر. ثم إن هذه الفتاة من حقها، الآن أيضاً، أن تعيش كما تعيش. أنها تتألم، وجسدها هو رأس مالها إن صحَّ التعبير، ففي وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذي تشاء. صحيح أن رؤوس الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود، ولكن دور

البغي سيتخذ دلالة أخرى، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً. ولنرجع الآن إلى شخص صونيا سيميونوفنا: أنني أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاج قوي مجسَّد على نظام المجتمع؛ وأنا لهذا السبب أحترمها احتراماً عميقاً، بل أكثر من ذلك أنني أغتبط لرؤيتها على هذه الحال.

- لكنني سمعتُ أنك شخصياً قد طردتها من هذا البيت.

اعتَرَتْ ليبزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف، وزأر يقول:

- هذه أيضاً نمائم! إن الأمور لم تجر على هذا النحو، لم تجر على هذا النحو قط! حقاً إنها لم تجر على هذا النحو! إن كاترينا إيفانوفنا هي التي اخترعت كل شيء، لأنها لم تفهم شيئاً. أنا لم أحاول في يوم من الأيام أن أحظى بصونيا سيميونوفنا: كنت أكتفي بتثقيفها بعيداً عن كل مصلحة، بريئاً من كل غاية؛ كنت أحاول أن أنمِّي فيها روح الاحتجاج. لم أكن في حاجة إلا إلى احتجاجها وحده. ثم إن صونيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الإدراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا في مسكن مفروش.

- هل كنت تدعوها إلى الاشتراك في الكومونة؟

- أنت لا تجيد إلا السخرية، ولكنك تخطئ هنا خطأً فادحاً... اسمح لي أن أقول لك ذلك!.. إنك لا تفهم من أمر الكومونة شيئاً. في الكومونة، لا وجود لهذا الدور. وإنما نُظِّمت الكومونة من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود. في الكومونة سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً، فما هو غبي هنا سيصبح ذكياً هنالك، وما يبدو هنا في الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً. كل شيء مرهون بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان. كل شيء تحدده البيئة، والإنسان في ذاته لا شأن له. أما صونيا سيميونوفنا فإن علاقتي بها ما تزال طيبة حتى الآن، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الايام عدواً أو مسيئاً. نعم، إنني أحاول الآن أن أجتذبها إلى الكومونة، ولكن لأسباب أخرى تماماً.

لماذا تضحك؟ إننا نريد أن ننشىء كومونةً خاصةً بنا، ولكننا نريد أن ننشىء هذه الكومونة على أسس أوسع من الأسس السابقة. لقد مضينا في اعتقاداتنا إلى مدى أبعد[42]، وأنكرنا أشياء أكثر، فلو خرج دوبروليوبوف من قبره لتشاجرت معه حتماً، ثق بذلك! أما بيلنسكي فلو خرج من قبره لأبدته إبادة! وأنا الآن مستمر في تنشئة صونيا سيميونوفنا. إن لها طبيعة طيبة حسنة، حسنة جداً!

– هيًا! إنك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة! هئ هئ!..

– أنا؟ لا، لا! بالعكس...

– بالعكس؟ أأنت تقول هذا الكلام؟

– في وسعك مع ذلك أن تصدقني. ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني إلى إخفاء الحقيقة عنك؟ هلاً أجبتني من فضلك؟ نعم، هناك ظاهرة غريبة، بل غريبة بالنسبة إليَّ أيضاً: لكأنها معي متحرجة، وجلة، بل وخجلة!

– وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتها! هئ!.. تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هي إلا غباوات وبلاهات!..

– لا، لا!.. آه... ما أغلظ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة «التنشئة»، اعذرني! ألا إنك إذاً لا تفهم شيئاً على الإطلاق! آه... يا رب!.. ما أشد تخلفك حتى الآن!.. نحن ننشد حرية المرأة، وأنت ليس في رأسك إلا... إذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام، وهي شيء لا جدوى منه في ذاته، بل هي شيء سخيف أيضاً، فإنني أقبل تحفُّظها معي كل القبول: فما دامت هذه إرادتها فمن حقها أن... طبعاً، إذا قالت لي في ذات يوم: «أنا أريدك»، فسأعدُّ ذلك حظاً سعيداً، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً. أما الآن، الآن على الأقل، فربما كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة ومراعاة. إنني انتظر وآمل، هذا كل شيء.

- الأفضل أن تقدم إليها هدية صغيرة. أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك، أليس كذلك؟

- أنت لا تفهم شيئاً، سبق أن قلت لك ذلك! صحيح أنها مومس، ولكن المسألة ليست هنا، ليست هنا البتة! أنت تحتقرها، لا أكثر ولا أقل. إنك بالاستناد إلى واقعة مخلة بالشرف في رأيك، تأبى على كائن إنساني أن ينظر إليها نظرة فيها روح إنسانية. ألا إنك تجهل حتى طبيعتها! إن هناك شيئاً واحداً آسف له، أنها منذ زمن قد انقطعت عن القراءة انقطاعاً تاماً، وأصبحت لا تستعير مني أي كتاب. كانت قبل ذلك تستعير مني كتباً. ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم كل ما تملكه من طاقة كبيرة، ورغم كل ما تتصف به من عزم على الاحتجاج لقد سبق أن برهنتْ على ذلك مرةً على أنه لا يبدو فيها قدر كاف من الاستقلال، قدر كافٍ من. . . من الرفض، قدر كافٍ من التأهب للتحرر نهائياً من رواسبها الاجتماعية. . . وسخافاتها. ومع ذلك فهي تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً. لقد أدركت أكمل الإدراك مسألة تقبيل اليد، مثلاً. لقد أدركت أحسن الإدراك أن الرجل حين يقبل يد المرأة إنما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً. لقد ناقشنا هذه المسألة عندنا، وناقشتها معها. وقد أصغت إليَّ بانتباه شديد أيضاً حين كلمتها عن النقابات العمالية في فرنسا. وأنا الآن بسبيل أن أشرح لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما ستُطرح هذه المسألة في المستقبل.

- ما هذه المسألة أيضاً؟

- لقد أثيرت في الآونة الأخيرة هذه المسألة: هل من حق عضو الكومونة، رجلاً كان أو امرأة، أن يدخل غرفة عضو آخر، رجلاً كان أو امرأة، في أية ساعة من الساعات. . . وقد تقرر أن له هذا الحق.

- غريب! ماذا لو كان العضو، الرجل أو المرأة، مشغولاً في تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية؟ هئ هئ! . .

غضب آندريه سيميونوفتش، وصاح يقول:

– آه. . . هأنت ذا تعود إلى هذه المسألة! إن الأمر الهام في نظرك إنما هو هذه «الحاجات» اللعينة! ألا إنني لأحقد على نفسي لأنني تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة! شيطان يأخذك! هذه عثرتك وعثرة جميع أشباهك. وأنكى ما في الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هي المسألة. كأن ذلك من حقهم! وكأن في ذلك ما يدعو إلى الفخر والاعتزاز! آ. . . لقد سبق أن قلت غير مرة إن هذه المسألة ما ينبغي أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين إلا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم إلى المذهب. بتعبير آخر: ما ينبغي أن يعالج هذه المسألة إلا إنسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تنشئة مناسبة. ثم قل لي: ما الذي تراه في المراحيض من شيء مخجل إلى هذا الحد محتقر إلى هذه الدرجة؟ إنني مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحيض. وصدِّقني إذا قلت لك إن هذا لا ينطوي على أي تضحية من جهتي. ذلك عمل كغيره من الأعمال، بل أنه لأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً[43].

– وأكثر نبلاً، أكثر نبلاً، هئ هئ! . .

– ما معنى كلمة «النبل» هذه؟ إنني لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط إنساني. «أكثر نبلاً! أكثر سماحةً»! . هذه ترهة، هذه سخافة، هذه رواسب اجتماعية بالية أرفضها وأحتقرها. الشيء النبيل هو الشيء النافع للإنسانية. ذلك هو الشيء النبيل حقاً. أنا لا أفهم إلا كلمة واحدة، وهذه الكلمة هي النافع. اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك، فذلك هو اعتقادي!

ضحك بيوتر بتروفتش ضحكاً شديداً. لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتِّب ماله. ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة، لا يدري أحد لماذا.

إن «مسألة المراحيض هذه» كانت، رغم تفاهتها، سبباً لمشاجرات عدة بين بيوتر بتروفتش وصديقه الشاب. والغباء في الأمر أن آندريه سيميونوفتش كان يغضب فعلاً، أما لوجين فما كان يرى في هذا إلا فرصة للتسلية والاسترخاء. وكان في تلك اللحظة خاصة يشتهي أن يُغيظ ليبزياتنيكوف.

- بسبب إخفاقك مساء أمس إنما أنت معتكر المزاج إلى هذا الحد اليوم.

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليبزياتنيكوف الذي كان رغم كل «استقلاله» ورغم كل روح «الاحتجاج» لديه، لا يجرؤ في العادة أن يعارض بيوتر بتروفتش معارضة صريحة، وكان على وجه العموم يلتزم في معاملته ما ألف أن يلتزمه في معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام.

وقد قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض:

- قل لي: هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي إلى هنا، إلى هذه الغرفة، حالاً؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة. لقد سمعت وقع أقدام، و... أودُّ لو أرى هذه الفتاة.

سأله ليبزياتنيكوف مدهوشاً:

- ولكن لماذا؟

فأجابه:

- هكذا... يجب أن أكلمها. أنني سأرحل بين يوم ويوم، وأحب أن أنقل إليها... في وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال، بل ذلك أفضل، وإلا فقد تتخيل ما لا يعلمه إلا الله!..

- لن أتخيَّل شيئاً البتة... وإنما أنا ألقيت سؤالي هكذا... فإذا

كنت في حاجة إلى أن تراها فلا أسهل من إحضارها. أنا ذاهب لأجيئك بها. وثق أنني لن أزعجك.

وعاد ليبزياتنيكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق. دخلت صونيا مدهوشة أشدَّ الدهشة، خجلةً وجلةً إلى أقصى حد، على عادتها. إنها خجلة وجلة دائماً في مثل هذه الأحوال. كانت منذ طفولتها تخشى التعرف إلى أناس جدد، وتخاف من الوجوه الجديدة، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن.

استقبلها بيوتر بتروفتش استقبالاً «لطيفاً مهذباً»، ولكنه أضاف إلى هذا الاستقبال، والحق يقال، نوعاً من المرح والألفة يليقان، في رأيه، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار وإحترام، حين يعامل مخلوقة شابة إلى هذا الحد، شائقة إلى هذه الدرجة، بمعنى من المعاني.

وأسرع بيوتر بتروفتش «يطمئن» صونيا، ويُجلسها أمام المائدة قبالته. جلست صونيا وألقت نظرةً حولها - على ليبزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة، ثم على بيوتر بتروفتش فجأة من جديد. ومنذ تلك اللحظة لم تحوِّل بصرها عنه، كأن شيئاً ما كان يشدها إليه.

اتجه ليبزياتنيكوف نحو الباب، فنهض بيوتر بتروفتش، وأوقفه عند الباب وهو يدعو صونيا بإشارة من يده إلى أن تبقى جالسة. وقال يسأل صاحبه همساً:

- هل راسكولنيكوف ذاك هناك؟ هل جاء؟

فأجابه ليبزياتنيكوف:

- راسكولنيكوف؟ نعم، هو هناك. وماذا يعني ذلك؟ نعم، هو هناك. وصل منذ قليل، رأيته. ما الأمر؟

- إذاً، أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا، أن لا تتركني في خلوة مع هذه... الفتاة. هذه قضية لا قيمة لها، ولا يعلم إلا الله ما عسى يُستنتج منها إذاً... لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقول هناك... هل تفهم إلى ماذا أشير؟

أجاب ليبزياتنيكوف وقد أدرك الأمر:

- أفهم، أفهم. نعم، أنت على حق. في قناعتي الشخصية إنك تضخِّم الأخطار تضخيماً كبيراً.. ولكنك مع ذلك على حق. طيب. سأبقى. سأمكث هنا، قرب النافذة، حتى لا أضايقك... في رأيي أنك على حق...

عاد بيوتر بتروفتش نحو الأريكة، وجلس قبالة صونيا، ونظر إليها بانتباه، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية، وهو يقول لها بينه وبين نفسه «لا تخطرنَّ ببالك الخواطر يا جميلة!»

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها. وبدأ بيوتر بتروفتش كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد، ولكنها لهجة متوددة في الوقت نفسه:

- أرجوك أولاً أن تتكرمي يا صونيا سيميونوفنا، فتعتذري عني لأمك المحترمة... أليست كاترينا إيفانوفنا بمثابة الأم لك؟ أليس هذا صحيحاً؟

كان يبدو على بيوتر بتروفتش أنه يضمر أحسن نيات الصداقة.

فأسرعت صونيا تجيبه مروَّعة:

- نعم، حقاً، هي لي بمثابة الأم.

- فاعتذري لها عن أنني لا أستطيع، بسبب ظروف مستقلة عن إرادتي، أن أجيء عندكم فآكل... أقصد أن أشارك في مأدبة الجنازة، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها إليَّ.

- سأقول لها هذا، فوراً...

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة.

فقال بيوتر بتروفتش وهو يمنعها من القيام، ويبتسم لسذاجة الفتاة

ولجهلها بالمواضعات الاجتماعية.

- ليس هذا كل شيء بعدُ. أنك لتجهلينني إذن، يا صونيا سيميونوفنا العزيزة، إذا كنت تتصورين أنني لسبب يبلغ هذا المبلغ من التفاهة ولا يتعلق إلا بي أنا، يمكن أن أسمح لنفسي بأن أزعج شخصاً مثلك. إن لي هدفاً آخر تماماً.

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة. وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد، فسرعان ما أشاحت وجهها عنها بقوة، ونظرت إلى بيوتر بتروفتش. لقد لاح لها فجأة أنه عار رهيب عليها أن تنظر إلى مال ليس مالها، لا سيما وهي ما هي. توقّف بصرها في أول الأمر على المونوكل ذي الإطار الذهبي، الذي كان بيوتر بتروفتش يمسكه بيده اليسرى، وعلى الخاتم الجميل جداً، الضخم جداً، المزدان بحجر أصفر، الساطع في الإصبع الوسطى من تلك اليد نفسها. ولكنها حوَّلت بصرها فجأة، وإذ لم تعرف إلى أين توجه عينيها، حدَّقت بهما إلى عيني بيوتر بتروفتش لا تحركهما يمنة ولا يسرة.

وبعد فترة من صمت تابع بيوتر بتروفتش كلامه بلهجة فيها مزيد من الجد أيضاً:

- أتيحت لي أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترينا إيفانوفنا؛ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أنها تعيش في حالة منافية للطبيعة، إن صح التعبير.

فقالت صونيا مؤيدة:

- نعم... في حالة منافية للطبيعة.

- أو في حالة مرضية إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح.

- نعم، إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح... نعم... هي مريضة.

- هذه هي المسألة. . . وقد هزتني مشاعر إنسانية ومشاعر عطف إن صح التعبير، فوددت لو أنفعها في شيء ما، لأنني أتنبأ بالمصير الشقي البائس الذي ستؤول إليه لا محالة. يُخيَّل إليَّ أن الأسرة التعيسة كلها قد أصبحت تعتمد عليك وحدك.

سألته صونيا فجأة وهي تنهض:

- اسمح لي أن أسألك. . . هل صحيح أنك كلمتها أمس عن إمكان الحصول على معاش تقاعد؟ . لقد قالت لي أمس أنك مستعد لأن تتولى القيام بالمساعي اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش. فهل هذا صحيح؟

- غير صحيح البتة، بل هو أيضاً سخف. كل ما فعلته هو أنني أشرت إلى جواز الحصول على نجدة مؤقتة يمكن أن تُدفع لأرملة موظف مات أثناء الخدمة - وهذا لا يتحقق طبعاً إلا إذا كان هنالك أناس يرعون هذه الأرملة ويحمونها - ولكنني أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين المطلوبة في الوظيفة، حتى أنه في الآونة الأخيرة لم يعمل إطلاقاً. ومعنى ذلك، باختصار، أن الأمل الصغير الذي كان يمكن أن يراودنا يضعف في هذه الأحوال مزيداً من الضعف، لأن حق أبيك في التعويض في مثل هذه الأحوال لا وجود له. . . بالعكس. . . فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن في معاش! . . هئ هئ هئ! يا للسيدة المتعجلة! . .

- نعم. . . هي. . . معاش. . . لأنها سريعة التصديق. . . وطيبة. . . وهي لأنها طيبة، تظن أن. . . وتصدِّق. . . ثم إن فكرها قد خلق هكذا. نعم. . . معذرة. . .

كذلك قالت صونيا مشوّشة وهي تنهض من جديد لتنصرف.

قال بيوتر بتروفتش:

- اسمحي لي! . . إنك لم تسمعي بعدُ كل شيء.

فجمجمت صونيا تقول:

- نعم، لم أسمع بعد كل شيء.

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب.

وتابع بيوتر بتروفتش كلامه فقال:

- إنني، وقد رأيت الحالة التي هي فيها مع ولدين بائسين، رغبت، كما سبق أن قلت لك ذلك، في أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لي وسائلي، نعم، بمقدار ما تتيحه لي وسائلي، لا أكثر من ذلك. فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتتاب تبرعات، أو حتى أن ننظِّم سحب يانصيب، أو أي شيء آخر من هذا القبيل... كما يحدث هذا في حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجانب يريدون أن يهبوا إلى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر. فعن هذا المشروع إنما أردت أن أحدثك. أنه مشروع ممكن التحقيق.

تمتمت صونيا تقول محدقةً إلى بيوتر بتروفتش في عناد وإصرار:

- نعم، ذلك شيء حسن جداً... جزاك الله خيراً...

- الأمر ممكن، ولكن... سنتكلم عن ذلك فيما بعد... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم. على كل حال سنلتقي في هذا المساء، وسنتفق. سنرسي الأسس، كما يقال. تعالي إليَّ هنا في نحو الساعة السابعة... وسيحضر آندريه سيميونوفتش حديثنا فيما آمل... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه إبرازاً خاصاً منذ الآن. ومن أجل هذا الأمر يا صونيا سيميونوفنا إنما أَبَحْتُ لنفسي أن أزعجك باستدعائك إلى هنا. في رأيي أن المال الذي سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترينا إيفانوفنا نفسها، حتى أن في ذلك خطراً. ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك: إن كاترينا إيفانوفنا وهي لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً، ولا تملك حذاءين تنتعلهما فتقي نفسها السير حافية، لا تحجم

اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكي بل والنبيذ الماديري... والقهوة، إذا لم يخطىء ظني. لقد رأيت هذا كله عابراً. وغداً يقع كل شيء على عاتقك أنت، ويكون عليك أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومي، وذلك أمر لا يُعقل! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال إن صح التعبير، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت. ألست على حق؟

- لا أدري!.. في هذا اليوم وحده إنما هي... ذلك لا يحدث إلا مرةً واحدةً في الحياة... إنها شديدة الرغبة في أن تكرم ذكرى الراحل... وهي ذكية جداً. على كل حال، افعلْ ما تراه مناسباً... وسأكون... وسيكونون جميعاً... وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء...

لم تكمل صونيا جملتها، وأجهشت باكية.

قال بيوتر بتروفتش:

- فكِّري جيداً في ما قلته لك. والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلي عن أمك هذا المبلغ، بمقدار ما تتيحه لي وسائلي مشاركةً مني في اكتتاب التبرعات. وأني لآمل خاصةً أن لا يُذكر اسمي في هذه المناسبة. يؤسفني أن أعبائي الكثيرة لا تسمح لي بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ...

قال بيوتر بتروفتش ذلك ومدَّ إلى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عُني بطيِّها طياً دقيقاً. فتناولت صونيا الورقة المالية محمّرة الوجه خجلا، ثم نهضت بوثبة واحدة، ودمدمت ببضع كلمات، واستأذنت بالانصراف مسرعةً إسراعاً شديداً. فشيَّعها بيوتر بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال. وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلةً عصبيةً مرهقةً، وعادت إلى كاترينا إيفانوفنا وهي على حال من الاضطراب الشديد.

طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كان آندريه سيميونوفتش، الذي لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث، كان يبقى ساكناً قرب النافذة

تارة، أو يسير في الغرفة تارةً أخرى. فلما خرجت صونيا اقترب من بيوتر بتروفتش فجأة، ومدَّ إليه يده يصافحه برصانة ووقار، قائلاً له:

- لقد سمعت كل شيء ورأيت كل شيء (ألحَّ آندريه سيميونوفتش على كلمة «رأيت» هذه إلحاحاً خاصاً). هذا عمل نبيل، أقصد هذا عمل إنساني! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان، لاحظتُ أنا ذلك. صحيح أنني من ناحية المبدأ أعارض كل إحسان أو بِرّ، لأن الإحسان أو البر لا يستأصل الشر استئصالاً قاطعاً، بل يبقيه ويغذيه بمزيد من التغذية، ولكنني لا أملك مع ذلك إلا أن أعترف بأنني تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرَّة واللذة. نعم، نعم، أعجبني عملك.

جمجم بيوتر بتروفتش يقول متأثراً بعض التأثر، متأملاً ليبزياتنيكوف في شيء من الحذر والريب:

- هذه كلها أمور تافهة!

- لا، ليست أموراً تافهة! إن رجلاً جُرح جرحاً حاداً كما جُرحت أنت بإساءة الأمس، ثم هو قادر في الوقت نفسه على أن يفكر في شقاء الآخرين وبؤسهم، إن رجلاً كهذا الرجل - رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأً من الناحية الاجتماعية - جدير بالتقدير وخليق بالاحترام. الحق أنني لم أكن أتوقع هذا منك يا بيوتر بتروفتش، لا سيما وأن آراءك... آه... ما أشد الحرج الذي ما تزال تسببه لك هذه الآراء! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك! (بهذا هتف آندريه سيميونوفتش الساذج، وقد شعر نحو بيوتر بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج الشرعي، يا بيوتر بتروفتش، النبيل جداً، اللطيف جداً، ما حاجتك إلى هذه الشرعية في الزواج؟ أضربني إن شئت، ولكني أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم، وأنك حر، وأنك لم تمت بعدُ موتاً تاماً بالنسبة إلى الإنسانية. نعم، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك. هأنت ذا ترى أنني أصارحك بما في قلبي.

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما:

- إذا كنت أحرص على الزواج، فلأنني لا أريد أن ينبت لي قرنان، وأن أربي أولاد الآخرين، كما يحدث في الزواج الحر الذي تدعو إليه.

جفل آندريه سيميونوفتش كحصان المعركة الذي سمع صوت البوق، وسأل صاحبه متحمساً:

- الأولاد؟ قلتَ الأولاد؟ إنني أسلِّم بأن الأولاد يثيرون مشكلة اجتماعية هامة حداً، ولكن مسألة الأولاد ستُحل بطريقة أخرى تماماً. إن بعضهم يمضي إلى حد إنكار الأولاد إنكاراً تاماً، كما ينكر كل إشارة إلى الأسرة على كل حال. وسنتحدث عن مشكلةِ الأولاد فيما بعد. أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه، لأنني أحبها حباً خاصاً. ألا فاعلم أن هذا التعبير السيىء المستمد من لغة الفرسان، المستعار من كلام رجال مثل بوشيكن، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبذاً تاماً. ما هذه القرون التي تتحدثون عنها؟ هه! كم أنت مخطئ! لماذا تتحدثون عن قرون؟ نعم، هناك قرون. ولكن الزواج الحر هو الذي لن تكون فيه قرون؟ ليست القرون إلا نتيجة طبيعية للزواج الشرعي. إنها تعديل له إن صح التعبير. إنها الاحتجاج عليه. وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيءٌ من مذلة. فلو اضطررتُ يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً وهذا افتراض مستحيل لكان يسرني ويسعدني أن ينبت لي قرنان من تلك القرون الملعونة التي تتحدثون عنها. سوف أقول عندئذ لزوجتي: «يا صديقتي، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحببتك، أما الآن فأنني أضيف إلى الحب احتراماً، لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً». أتضحك؟ أنت تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الرواسب الاجتماعية. أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته في الزواجَ الشرعي، ولكن هذا بعينه إنما هو النتيجة البائسة لواقعة هي أيضاً بائسة، بالنسبة إلى الطرفين كليهما. أما حين يحمل

الرجل قرنين صراحةً، كما هي الحال في الزواج الحر، فإن القرنين ينعدم عندئذ وجودهما إن صح التعبير، ويصبح من غير الممكن تصورهما، ويفقدان حتى اسم القرنين؛ بل إن في وسعي أن أقول إن امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها، وبأنك متطور متقدم إلى الحد الذي يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً. يميناً أنه ليخطر ببالي أحياناً أنني إذا تزوجت زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً، سيان فلربما أجيء لامرأتي بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها. ولأقولنَّ لها عندئذ: «يا صديقتي، أنا أحبك، ولكنني أريد بالإضافة إلى ذلك أن تحترميني. إنني أحرص على هذا. إليك عشيقاً!». ألست على حق؟ ألست على حق؟

كان بيوتر بتروفتش يصغي إليه ضاحكاً، ولكن دون أن يبدي كثيراً من الاهتمام، حتى أنه لم ينتبه إلى الكلام إلا قليلاً، لأنه كان يفكر في شيء آخر تماماً، وقد لاحظ ليبزياتنيكوف ذلك آخر الأمر.

لقد كان بيوتر بتروفتش يعاني اضطراباً شديداً، فكان يفرك يديه ويمعن في التفكير.

ذلك كله تذكره آندريه سيميونوفتش فيما بعد، وفهمه...

الفصل الثاني

يصعب علينا أن تحدِّد، على وجه الدقة، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترينا ايفانوفنا المختل فكرة مأدبة الجنازة هذه. لا بد أنها أنفقت على هذه المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً التي أخذتها من راسكولنيكوف لإنفاقها على احتفالات دفن مارميلادوف. لعل كاترينا ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة إلى تكريم ذكرى الراحل تكريماً «لائقاً»، حتى يعلم جميع المستأجرين، ولا سيما آماليا ايفانوفنا، أن الراحل لم يكن أدنى قيمةً منهم، بل ربما كان أعلى كثيراً، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُدلَّ بنفسه» حين يفكِّر فيه. ولعلها كانت تنقاد «لزهو الفقراء» الخاص بهم الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصلة، إلى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون من مال، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» وحتى لا «يحكم عليهم» أولئك الآخرون. ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترينا ايفانوفنا في ذلك الظرف بعينه، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين الحقراء» الذين هم المستأجرون، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل، وأنها نشأت لتحيا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف، وأنها تربَّت في «منزل نبيل، بل ومنزل

أرستقراطي، منزل كولونيل»، وأنها إذاً لم تُخلق لتتولى بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد في الليل. إن اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً، وتستبد بأناس بؤساء، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل في بعض اللحظات إلى حاجات حقيقية، حاجات ماسة قوية. ثم إن كاترينا ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتي يُجندلن بسهولة: فقد كان من الممكن أن تسحقها الظروف الرهيبة، غير أن لا شيء يمكن أن يجهز على عزيمتها وأن يهدِّم إرادتها. ثم إن صونيا كانت على حق حين قالت إن دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً. الواقع أن الأمر لم يتضح بعد، ولكن لا شك أن كاترينا ايفانوفنا قد تحمَّلت من المحن منذ بعض الوقت، ولا سيما في السنة الأخيرة، ما لا بد أن يكون له أثر في عقلها. ثم إن مرض السل يهيئ المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة.

لم تكن الخمور كثيرة جداً ولا متنوعة جداً، ولم يكن هناك خمرة ماديرية، فتلك مبالغة. ومع ذلك كان ثمة خمرة: نبيذ وفودكا وروم وبورتو. وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً، ولكن مقاديره كانت كافية. وقد هيؤوا، بالإضافة إلى حلوى الأرز التقليدية، ثلاثة أصناف أو أربعة من الطعام (منها فطائر) أُعدَّت في مطبخ آماليا ايفانوفنا. وحُضِّر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا «البنش» بعد الوجبة.

إن كاترينا ايفانوفنا هي التي تولَّت بنفسها شراء الأشياء، يساعدها في ذلك أحد المستأجرين وهو بولندي رث مسكين لا يعلم إلا الله لماذا يسكن عند السيدة ليبفسكل. إن هذا البولندي لا يكف عن السعي هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصةً إلى هذا الأمر)؛ وهو في كل لحظة، بأي مناسبة وبغير مناسبة، يخف إلى كاترينا ايفانوفنا، بل يثب ركضاً إلى السوق المشهورة باحثاً عنها، ويغدق عليها لقب «السيدة الليوتنانة» بغير حساب، إلى أن ضاقت به ونفد صبرها عليه، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لولا هذا الرجل

«الخدوم الكريم» لضاعت. لقد كان من طبع كاترينا ايفانوفنا أن تضفي أجمل الألوان على أول شخص تلقاه، وأن تغرقه بالمدح إلى أن يشعر بحرج وخجل، وأن تنسب إليه مزايا لا وجود لها في الواقع ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرائية ثم إذا بأوهامها تتبدد، وإذا هي تخاشنه وتغلظ له القول، وإذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة. إن لها طبعاً مرحاً ميالاً إلى التسامح، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الإخفاق التي تلاحقت عليها أخذت تطالب في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح، وأن لا يجرؤ أحد أن يعيش على غير هذا النحو؛ فإذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها في الحال. فهي بعد أن تكون قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأماني وأسطع الأخيلة وأبهى الأوهام تأخذ، في لحظة واحدة، تلعن الأقدار وتشتم الدهر، وترغي وتزبد، وتعصف وترعد، وتخرب كل ما يقع تحت يدها، وتضرب برأسها الجدران.

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا، هي أيضاً، على حين فجأة، قيمة عظيمة وشأناً كبيراً في نظر كاترينا ايفانوفنا، لا يدري أحد لماذا... فأصبحت كاترينا تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً... ولكن لعل مردَّ ذلك إلى المأدبة التي تريد كاترينا أن تقيمها، وإلى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في إعداد هذه المأدبة: لقد تعهدت بنصب المائدة، وتقديم المفرش، وتأمين الصحون، الخ، وتعهدت بإعداد الطعام في مطبخها. حتى إن كاترينا ايفانوفنا نفسها، حين ذهبت إلى المقبرة، قد خولتها كل السلطات، وفوَّضتها في كل أمر؛ والحق أن كل شيء قد أُعدَّ على أحسن وجه، وهيئت المائدة تهيئة لا مأخذ عليها. صحيح أن الصحون والشوكات والسكاكين والكؤوس الكبيرة والصغيرة، والفناجين، كانت غير متجانسة، من مصادر شتى وأنواع متباينة، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين، ولكن كل شيء كان في

الساعة المحددة قد وُضع في مكانه، حتى إن آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه، والتي كانت تتحلى بثوبها الأسود وتضع على راسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة، قد أخذت تستقبل المدعوين، عند عودتهم من المقبرة، بشيء من الافتخار والاعتزاز. وهذا الاعتزاز، رغم أنه مشروع، قد ساء كاترينا ايفانوفنا، لا يدري المرء لماذا! فكانت كاترينا تقول لنفسها: «لكأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا!». وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة. فكانت تقول لنفسها: «تُرى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والإحسان؟ إن المائدة، في منزل والد كاترينا ايفانوفنا الذي كان عقيداً وكاد يكون محافظاً، كانت تُعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك في المطبخ!..» واشتد أزر كاترينا ايفانوفنا بهذه الخاطرة، وقررتْ في دخيلة نفسها، أنه لا بد من تفتير همَّة آماليا ايفانوفنا بعد المأدبة رأساً وبلا تردد أو إمهال، ووضعها في مكانها الحقيقي لأنها تتباهى وتتبختر أكثر من اللازم، أما الآن فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفتور والبرود. وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في إحناق كاترينا ايفانوفنا: وهو أن المستأجرين الذين دُعوا إلى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم في الموكب، عدا البولندي الذي شيَّع جثمان المتوفى إلى المقبرة. أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فإن الفقراء والتافهين وحدهم هم الذين حضروها، حتى إن بعضهم قد جاء إليها بثياب هي خرق رثة وأسمال بالية: أي أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الإجمال شيء من أبهة. لكأن المتقدمين في السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور. من ذلك مثلاً أن بيوتر بتروفتش لوجين، وهو الذي يمكن أن يقال إنه أعلاهم قدراً وأرفعهم

شأناً، لم يحضر المأدبة، مع أن كاترينا ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لآماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندي) أن بيوتر بتروفتش رجل من أنبل الناس وأكرمهم، وأنه ذو صلات عالية، وأنه غني جداً، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول، وأنه قد سبق أن استُقبل في منزل أبيها، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعي من أجل أن تحصل على معاش تقاعدي كبير.

يجب أن نذكر هنا أن كاترينا ايفانوفنا إذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة، فإنها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة مُنَزَّهة عن المنفعة، لا يدفعها إلى ذلك أي حساب شخصي، وإنما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة، لا ترجو إلا لذة مدح أحد الناس وإضفاء قيمة كبيرة عليه.

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة، امتنع كذلك عن حضورها - ربما من باب «الاقتداء به» - ذلك الوغد المشؤوم ليبزياتنيكوف. «ماذا يظن نفسه؟ نحن ما دعوناه إلا شفقة عليه وبراً به، ولأنه يسكن في نفس الغرفة التي يسكن فيها بيوتر بتروفتش الذي هو من معارفه، فكان من المحرج لنا أن لا ندعوه...». وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً في السن) لم تلبيا الدعوة أيضاً. إن هاتين المرأتين، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا إلا منذ أسبوعين، قد شكتا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من غرفة أسرة مارميلادوف، ولا سيما حين كان المتوفى يعود إلى البيت سكران، وهذا أمر قد وصل إلى مسامع كاترينا ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا، وذلك حين هددتها هذه، أثناء تشاجرها معها، بأنها ستطردها من البيت هي وأسرتها، صارخةً بأعلى صوتها أنهم «يزعجون جيراناً نبلاء لا يرقون هم إلى مستوى نعالهم». ولقد قررت كاترينا ايفانوفنا، عامدةً، أن تدعو هاتين المرأتين اللتين «لا ترقى هي إلى مستوى نعليهما!»، وكانت تحرص على دعوتهما حرصاً خاصاً لأنها كانت إذا اتفق أن التقت بإحدى هاتين

المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار. قالت كاترينا ايفانوفنا لنفسها: «بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل إلى حدِّ نسيان الإساءات والإهانات، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترينا ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف». وكانت تنوي أن تشرح لهما هذه الحقيقة على المائدة، وأن تحدثهما كذلك عن منصب «المحافظ» الذي كان يحتله المرحوم أبوها، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقيانها، وأن هذه الحركة حركة غبية.

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجلٌ ضخم الجسم يقولون إنه مقدّم (وهو في حقيقته نقيب محال على التقاعد)؛ ولكن عُلم أنه «طريح الفراش» من فرط السكر منذ الليلة البارحة.

الخلاصة أنه لم يحضر المأدبة إلا هؤلاء: البولندي؛ وموظف هزيل قميء وعلى وجهه بثور، يرتدي فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى، كان في الماضي يشغل وظيفة في إدارة البريد لا يدري أحد ما هي، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدري أحد لماذا؛ وقد جاء إلى المأدبة ملازم متقاعد سكران لم يكن في حقيقة أمره إلا موظفاً في إدارة التموين، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً في كل لحظة، ولا يرتدي صديرة «فتصوروا قلة الحياء وفرط الوقاحة، يا للعار»! وقد جاء رجل آخر فجلس إلى المائدة رأساً حتى دون أن يحيي كاترينا ايفانوفنا، وجاءت في النهاية «شخصية» أخرى تلبس روب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً. ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن إخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي. ثم إن البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل.

ذلك كله أزعج كاترينا ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول: «أمن أجل هؤلاء» إذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها»؟

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا إلى العدول عن إجلاس الأولاد إلى المائدة، التي كانت تكاد تشغل وحدها كل الغرفة. لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بآخر الغرفة على صندوق، وأُجلس الولدان الأصغران على دكة، وعُهد إلى بوليتشكا، بصفتها الكبرى، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما، «كما يُفعل بأولاد أسر راقية».

الخلاصة أن كاترينا ايفانوفنا قد اضطرت، راضيةً أو كارهة، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة، بل وبشيء من التعالي والعجرفة، حتى لقد ألقت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة، ثم دعتهم أن يجلسوا إلى المائدة وقد ظهرت في هيئتها معاني الاحتقار والازدراء. وقد اعتقدت، لسبب أو لآخر، آن آماليا ايفانوفنا هي المسؤولة عن غياب المدعوين المرموقين، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك، فاستاءت أشد الاستياء، وأضمرت أكبر الضغن. إن بداية كهذه البداية لا تبشر بخير.

وجلس الجميع أخيراً إلى المائدة.

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظة العودة من المقبرة تقريباً. فسعدت كاترينا ايفانوفنا أقصى السعادة، أولاً لأنه بين سائر المدعوين «الرجل المثقف الوحيد» الذي «سيحتل بعد سنتين، كما يعرف الجميع، كرسيَّ أستاذ جامعتنا»؛ وثانياً لأنه ما إن وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك في الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير.

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترينا ايفانوفنا؛ فقد أجلسته إلى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست إلى اليمين)، ورغم مشاغلها المتصلة

من حيث هي ربة البيت، ورغم السعال الرهيب الذي كان يقطع كلامها ويخنقها في كل لحظة، والذي كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين، فإنها لم تنقطع عن التحدث إلى راسكولنيكوف، وعن أن تفضي إليه همساً بكل ما كان يعتلج في قلبها، ولا سيما باستيائها الشديد من إخفاق المأدبة. على أن ضحكاً مجلجلاً كان يعقب ذلك الاستياء في كثير من الأحيان، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه، وهو ضحك على المدعوين وعلى صاحبة البيت خاصة.

– ذلك كله إنما سببه هذه البومة! (كانت كاترينا ايفانوفنا تقول ذلك وتومئ لراسكولنيكوف بحركة من رأسها إلى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا). انظر إليها! أنها تحملق بعينيها؛ هي تعلم أننا نتكلم عنها، ولكنها لا تستطيع أن تفهم، أن عينيها تخرجان من رأسها! هؤ... هؤ!.. بومة حقاً! هأ هأ هأ! هئ هئ هئ! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليه بقبعتها هذه؟ هئ هئ هئ! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملأ جميعاً بمظهر محميتها، وأن تبيِّن أنها إنما تشرِّفني إذ تحضر هذا العشاء؟ لقد طلبت منها، لاعتقادي بأنها إنسانة لائقة، أن تدعو أناساً محترمين، وأن تدعو خاصةً أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل. فانظر بمن جاءتني: لقد جاءتني بمهرِّجين وصعاليك قذرين! انظر إلى ذاك الرجل الذي على وجهه بثور! حقاً أنه مخاط يمشي على قدمين لا أكثر! وما قولك بهؤلاء البولنديين الحقراء؟ هأ هأ هأ! هئ هئ هئ! ما من أحد سبق أن رآهم هنا، لا ولا رأيتهم أنا، في يوم من الأيام! فلماذا إذن جاؤوا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا جاؤوا؟ ما أعظم وقارهم في جلوسهم واحداً إلى جانب واحد! ما أظرفهم! هيه، يا «بان»! – كذلك نادت أحدهم فجأة ناطقة باللغة البولندية – هل أخذتَ فطائر؟ خذ مزيداً، واشرب بيرة، اشرب بيرة! واشرب فودكا! ألا تريد أن تشرب فودكا؟ – انظر إليه، لقد نهض بوثبة واحدة، وها هو ذا ينحني انحناءً شديداً... انظر... انظر! مساكين... لا بد أنهم جائعون جداً! لا

بأس! فليأكلوا! هم لا يحدثون ضجة على الأقل.. ولكن.. ولكن. . . لا أكتمك أنني أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهي لصاحبة البيت. يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبةَ البيت فجأةً بصوت عالٍ تقريباً). . . إنني أنبهك منذ الآن إلى أنني غير مسؤولة إذا هم سرقوا ملاعقك!

وسُرت كاترينا ايفانوفنا من قولتها هذه، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً، ثم عادت تومئ برأسها إلى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف:

- إنها لم تفهم! في هذه المرة أيضاً لم تفهم! ما تزال فاغرة الفم، محملقة العينين، جوَّالة الطرف! انظر إليها، انظر! هي بومة حقاً، بومة. . . قلت لك إنها بومة. . . ولكن بأشرطة جديدة! هأ هأ هأ!. .

وهنا استحال ضحكها إلى سُعال لا يطاق، استمر خمس دقائق. تلطخ منديلها بالدم، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ؛ أرت راسكولنيكوف بقعة الدم في صمت، وما أن استردت أنفاسها حتى دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قانية وبلغت أقصى الاضطراب.

- انظر مثلاً: لقد عهدت إليها بمهمة دقيقة جداً هي أن تدعو تلك السيدة وابنتها. هل تعرف من أعني؟ فكان عليها في مثل هذه الحالة أن تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحذق، ولكنها لم تحسن التصرف، فإذا بتلك الحمقاء المتغطرسة، إذا بتلك المخلوقة القروية. . . ذلك أنها ليست في الواقع إلا أرملة رائد جاءت إلى هنا تسعى إلى الحصول على معاش تقاعدي، فهي تنتظر في حجرات الدخول متنقلة متسكعة هنا وهناك، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والكُحل والأصباغ رغم أنها في الخمسين من عمرها (هذا معروف). . . إذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجيء، بل ولا ترسل كلمة اعتذار، كما يليق بالمرء أن يفعل في مثل هذه الأحوال إذا كان علي شيء من الأدب والتهذيب! وبيوتر بتروفتش، أنني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً! ولكن أين صونيا؟ أين ذهبت؟ آ. . . ها هي ذي أخيراً! أين كنت يا صونيا؟ غريب منك أن

تكوني قليلة التقيد بالمواعيد حتى في يوم جنازة أبيك. أفسح لها مكاناً إلى جانبك يا روديون رومانوفتش. هذا مكانك يا صونيتشكا! أغرفي لك طعاماً! خذي سمكاً، فهذا أحسن الطعام. سنجيئك بفطائر فوراً. والأولاد، هل غُرِف لهم طعام؟ هل أصبتم من كل شيء يا بوليتشكا؟ هئ هئ هئ! طيب، عظيم! كوني هادئة عاقلة يا لينيا! وأنت يا كوليا لا تهزز ساقيك هكذا! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة. ماذا تقولين يا صونيتشكا؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بيوتر بتروفتش، محاولةً أن تتكلم بصوت قوي حتى يسمع جميع الضيوف كلامها، ومستعملةً أرقى التعابير، حتى تلك التي كان يصطنع استعمالها بيوتر بتروفتش، بعد أن تُجمّلها مزيداً من التجميل أيضاً. وأضافت إلى ذلك قولها إن بيوتر بتروفتش قد رجاها أن تبلغ أمها أنه سيجئ متى أتيحت له الفرصة ليتحدث في الأعمال على انفراد، وليتفق على الإجراءات الواجب اتخاذها في المستقبل، ألخ، ألخ...

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدّئ كاترينا ايفانوفنا، ويدغدغ غرورها، ويرضي كبرياءها خاصة. وجلست إلى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيّته بسرعة، ونظرت إليه نظرة مستطلعة. على أنها طوال ما بقي من وقت كان يلوح عليها أنها تتحاشى أن تنظر إليه وأن تكلمه. كانت تبدو ذاهلة، رغم أنها لم تحوّل عينيها عن كاترينا ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها. ولم تكن صونيا ولا كاترينا ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد، لأنهما لا تملكانها، كانت صونيا ترتدي ثوباً بنياً قاتماً، وكانت كاترينا ايفانوفنا ترتدي ثوباً كستنائياً ذي خطوط داكنة، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه.

وقد أحدثت اعتذارات بيوتر بتروفتش أحسن الأثر. فبعد أن أصغت كاترينا ايفانوفنا إلى كلام صونيا برصانة ووقار، سألت عن صحة بيوتر بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه. ثم لم

تبطئ، فأسرعت «توشوش» راسكولنيكوف قائلة بصوت قوي إن رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بيوتر بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا «القطيع العجيب من الناس»، مهما يكن إخلاصه للأسرة، ومهما تكن روابط الصداقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها.

ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً:

- من أجل ذلك تراني، يا روديون رومانوفتش، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحتقر دعوتي ولم ترفض حضور مأدبتي رغم هذه البيئة وهذا الجو. وإني لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجي هي التي حملتك وحدها على أن تفي بالوعد.

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس إلى الطرف الآخر من المائدة: «هل تريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو؟». فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين. كان فاغر الفم ينظر حواليه في كل جهة، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح.

- يا للغبي الأبله! انظر! ولماذا جيء به إلى هنا؟

وتابعت كاترينا ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف:

- أما بيوتر بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة.

والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروِّعة، وأردفت تقول صارخة:

- هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتي ما كنَّ ليُقبلن عند أبي حتى خادمات في المطبخ، واللواتي إذا ارتضى زوجي الراحل أن يشرِّفهن باستقبالهن فإنه ما كان ليفعل ذلك إلا من فرط طيبة قلبه.

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا الثانية عشرة:

- نعم، كان يحب أن يشرب. . . هذا صحيح. . . كان يحب مجالسة الزجاجة حباً كثيراً! . .

أجابت كاترينا ايفانوفنا باندفاع شديد:

- نعم، كان لزوجي هذا الضعف، وهذا معروف، لكنه كان رجلاً طيباً نبيلاً، يحب أسرته ويحترمها. إن عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه إلى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن إليهم. . . الله يعلم مع من كان يعاقر الخمرة. . . مع رجال لا يساوون نعلي حذاءيه! تصور يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا في جيبه ديكاً صغيراً من حلوى! كان لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كلَّ مأخذ!

صرخ موظف التموين السابق يسأل:

- ديكاً صغيراً؟ هل قلتِ ديكاً صغيراً؟

أبت كاترينا ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه، وها هي ذي تغرق في نوع من أحلام اليقظة، وتتنهد. ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

- لعلك تظن، كما يظن جميع الناس، أنني أسرفت في القسوة عليه. ولكن هذا غير صحيح. لقد كان يعتبرني، كان يعتبرني كثيراً، كثيراً. ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه! ولكم كنت أشفق عليه، في بعض الأحيان! كان يتفق له أن يجلس في ركن من الأركان، ويأخذ ينظر إليَّ من ركنه ذاك، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنني أود لو ألاعبه، ولكنني كنت أقول لنفسي: «لو دلَّلته فسوف يسكر من جديد». لم يكن يمكن صدُّه عن الشراب وردعه عنه إلا بإظهار شيء من القسوة.

زأر موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديدةً من الفودكا:

- نعم، كان يُشدُّ له شعره! حدث هذا مراراً!

أجابت كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة، وهي تتجه إلى موظف التموين:

- إن أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم فحسب، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشة! ولست أتكلم الآن عن الراحل...

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب، وارتفع صدرها، ولم يبق إلا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترينا ايفانوفنا شجاراً فاضحاً. وكان كثيرون يضحكون مقهقهين، يجدون في ذلك لذة ومتعة. أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه، هامسين له بأشياء في أذنه. كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً.

بدأ الموظف كلامه فسألها:

- اسمحي لي أن أسألك عمَّن كنت تتكلمين إذن... على كل حال، لا بأس... فما هذه كلها إلا ترهات! أرملة، أرملة مسكينة! أنا أغفر وأعفو وأصفح! دعونا...

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا.

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغي بصمت واشمئزاز. لم يكد يلمس الطعام الذي كانت كاترينا ايفانوفنا لا تنقطع عن ملء صحنه به، بل إنه لم يتظاهر بأنه يأكل إلا من أجل أن لا يزعجها. وكان يحدِّق إلى صونيا ولا يحوِّل عنها بصره. ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً. إنها توجس، هي أيضاً، أن المأدبة لن تنتهي بسلام، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترينا ايفانوفنا، خائفةً وجلة. وكانت تعلم، فيما تعلم، أنها، هي صونيا، السبب الرئيسي للاحتقار الذي حمل المرأتين الجديدتين على أن ترفضا دعوة كاترينا ايفانوفنا. لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت إلى حد الاستياء من توجيه الدعوة إليهما، وتساءلت: «كيف يمكنني أن أُجلس ابنتي إلى جانب تلك «الآنسة»؟ وكانت صونيا تقدِّر أن كاترينا ايفانوفنا قد وصل إلى مسامعها شيء من هذا الكلام؛ وأن إهانة يلحقها أحد بصونيا لهي أشد وقعاً في نفس كاترينا ايفانوفنا من إهانة تُلحَق بها هي أو بأولادها أو بأبيها، فهذه

إهانة قاتلة، وصونيا تعلم أن كاترينا ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن «تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كلتيهما. . .»، الخ الخ! وشاءت المصادفات، بما يشبه العمد، أن ينقل أحدهم إلى صونيا صحناً فيه قلبان من لبِّ خبز أسود يخترقهما سهم. فاحمرت كاترينا ايفانوفنا غضباً، وأسرعت تقول بصوت عال إن المسؤول عن إرسال هذا الصحن ليس إلا «حماراً سكران»، لا أكثر ولا أقل.

وكانت آماليا ايفانوفنا، من جهتها، توجس أن نازلةً ستقع، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترينا ايفانوفنا يهينها إلى أعماق قلبها، فمن أجل أن تغيِّر الجوَّ السيئ الذي يسود الحفل، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها في نظر الناس في الوقت ذاته، أخذت على حين فجأة تروي أن شخصاً من معارفها اسمه «كارل، وهو مساعد صيدلاني»، قد استأجر عربة في الليل، فأراد الحوذي أن «يقتله، فأخذ كارل يتوسل إليه أن لا يفعل، وضمَّ يديه باكياً، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يثب من مكانه». وكان في نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة، فقالت لها كاترينا ايفانوفنا، وهي تبتسم، أن عليها أن لا تروي نوادر باللغة الروسية. فازداد استياء آماليا ايفانوفنا، فردَّت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية، وتسودها لكنة ألمانية، إن أباها البرليني كان «رجلاً خطير الشأن جداً، وأنه كان يتجول واضعاً يديه في جيوبه دائماً». ولم تطق كاترينا ايفانوفنا الساخرة صبراً، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً، فكان على آماليا ايفانوفنا التي نفد صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر.

وعادت كاترينا ايفانوفنا توشوش راسكولينكوف بما يشبه المرح قائلة:

- يا للبومة العجوز! أرادت أن تقول إن أباها كان يتجول واضعاً يديه في جيوبه، فإذا هي تقول إن أباها كان ينبش جيوبه دائماً! هئ هئ هئ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب في بطرسبرج، ولا سيما الألمان، الذي يتقاطرون علينا من كل حدب

وصوب، هم جميعاً أغبى منا. انظر بنفسك: هل يمكن أن يروي أحد أن «كارل، مساعد الصيدلاني، كاد يثب قلبه من مكانه»، وأن هذا الأبله قد «ضمَّ يديه باكياً» (ذلك الجبان!)، بدلاً من أن يوثق الحوذي؟ آه! يا للغبية الحمقاء! هي تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً. إنها لا تدرك مدى ما في هذه القصة من سخافة وبلاهة! في رأيي أن هذا الموظف السكِّير أذكى منها كثيراً! إن المرء يرى على الأقل أنه ترك البقية الباقية من عقله في قاع كأسه، أما الآخرون فهم جادُّون وقورون!.. انظر كيف تُجيل عينيها وتديرهما! أنها غاضبة، أنها غاضبة! هأ هأ هأ! هئ هئ هئ!

وإذ انشرحت كاترينا ايفانوفنا هذا الانشراح، أسرعت تندفع في سرد طائفة من التفاصيل، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذي ستحصل عليه، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النبيلات في مدينة «ت...» التي وُلدت فيها. ولم تكن كاترينا ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا. لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً، وأخذت تصف الحياة الرائعة التي ستعيشها وصفاً مسهباً. ولا يدري أحد كيف وُجدت بين يديها، على حين فجأة «شهادة التقدير» تلك التي سبق أن تحدث عنها المرحوم مارميلادوف إلى راسكولنيكوف حين ذكر له في أول لقاء بالخمارة أن زوجته كاترينا ايفانوفنا قد رقصت، في يوم تخرجها من المدرسة الداخلية، رقصة وعلى كتفيها شال، «أمام المحافظ وشخصيات رسمية أخرى». كان واضحاً أن الغرض من إبراز هذه الشهادة هو أن تثبت أن كاترينا ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية؛ ولكن كان الغرض الرئيسي من إبرازها أيضاً هو أن تخرس تينك المرأتين الفاسدتين إذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترينا ايفانوفنا تنتمي إلى أسرة نبيلة، بل يمكن القول أسرة أرستقراطية، فهي ابنة عقيد، وهي أفضل كثيراً من «أولئك النسوة المغامرات التافهات اللواتي ازداد عددهن ازدياداً كبيراً في الآونة الأخيرة». وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعوين السكارى،

وذلك أمر حاذرت كاترينا ايفانوفنا أن تعترض عليه أي اعتراض، لأن الشهادة[44] كانت تنص en toutes lettres على أن كاترينا ايفانوفنا هي فعلاً بنت مستشار قضائي، أي بنت عقيد تقريباً. وقد تحمست كاترينا ايفانوفنا فأفاضت في الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التي تنتظرها في مدينة «ت. . .»، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم إلى التدريس في مدرستها، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذي علَّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة في المدرسة الداخلية، والذي ينهي الآن أيامه في مدينة «ت. . .»، ولا شك أنه سيقبل أن يدرِّس في مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا، فقالت أن «صونيا ستذهب هي أيضاً إلى مدينة ت. . .، وأنها ستنفعها هنالك في أمور كثيرة». ولكن حين قالت كاترينا ايفانوفنا هذا الكلام، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة. فتظاهرت كاترينا ايفانوفنا بأنها لم تسمع الضحكة، ورفعت صوتها لتعدد المزايا الأكيدة التي تتحلى بها صونيا سيميونوفنا، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا «جديرة بأن تساعدها، لما تمتاز به من رقة وعذوبة، وصبر ودأب، وتضحية وبذل، ونبل نفس وحسن تربية». ثم ربتت على خديَّ صونيا، ونهضت تقبلها بحرارة مرةً أولى فمرةً ثانية. واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً. ثم ما لبثت كاترينا ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهي تقول «أنها ليست مخلوقة بلهاء بائسة محطمة الأعصاب، وأنها قد نفد صبرها وبارحتها قواها. . . وأن الطعام قد انتهى فليصبُّوا الشاي!»

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك في الحديث، حتى أن أحداً لم يستمع لها ولم يصغ إلى كلامها، فقامت في تلك اللحظة بمحاولة أخيرة. استجمعت شجاعتها ووجَّهت إلى كاترينا ايفانوفنا، رغم ما توجسه في قرارة نفسها من قلق وخشية، ملاحظة هي من أعمق الملاحظات وأشدها جرأة، إذ قالت لها أنه سيكون عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصة بالملاءات

النظيفة للبنات (قالت كلمة الملاءات بالألمانية)، «وأن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة»، وأن عليها كذلك أن لا «تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات في الليل سراً». وكانت كاترينا ايفانوفنا ثائرة الأعصاب مهدودة القوى، ناهيك عن إزعاجات المأدبة، فسرعان ما انفجرت تتهجم على آماليا ايفانوفنا قائلةً لها إنها تقول «سخافات وحماقات» وإنها لا تفهم شيئاً من شيء: «فالاهتمام بالملاءات في المدرسة الداخلية النبيلة لا يقع على عاتق المديرة بل هو من اختصاص الفرّاشة. أما قراءة الروايات فإن الإشارة إليها هي في حد ذاتها أمر غير لائق، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً.

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء، فقالت غاضبة إن «نياتها حسنة» وإنها لا تريد لها إلا «خيراً كثيراً» رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أي مال (قالتها بالألمانية) من أجرة المسكن. فسرعان ما ردّتها كاترينا ايفانوفنا إلى مكانها، إذ قالت لها إنها تكذب في إدعائها أنها «تريد لها الخير»، لأنها في الليلة البارحة نفسها، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة، جاءت تعذبها بمسألة أجرة المسكن هذه. وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا في الردّ فقالت لها إنها «دعت السيدات، ولكن تلك السيدات لم يجئن، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلبين دعوة سيدة غير محترمة». فأسرعت كاترينا ايفانوفنا تلحُّ فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم، لأنها هي نفسها غير محترمة وغبية. ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة، فسرعان ما أعلنت أن «أباها البرليني» (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً، جداً، وأنه كان يمشي واضعاً يديه في جيبيه، وأنه كان دائماً يزفر هكذا: بوف. . . بوف! . . ومن أجل أن تعطي عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك، نهضت عن مكانها ودسّت يديها في جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمة لكنها تشبه «بوف، بوف»، فكان جميع

المستأجرين يضجون بضحك صاخب، وكان يحلو لهم، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض.

طفح الكيل بالنسبة إلى كاترينا ايفانوفنا، فسرعان ما أعلنت بصوت واضح وقوي يسمعه الجميع أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها «أب» أصلاً، وأنها ليست إلا سكيرة فنلندية من بطرسبرج، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طباخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً.

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وزعقت تقول: «إن كاترينا ايفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين، وكان يرتدي ردنجوتاً طويلاً، وكان ينفخ دائماً: «بوف، بوف».

قالت كاترينا ايفانوفنا باحتقار «إن أصلها هي يعرفه الجميع وإن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع أن أباها كان عقيداً. أما أبو آماليا ايفانوفنا (إذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان بائع حليب، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً، والدليل على ذلك أننا لا ندري حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها إلى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا».

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعولت تقول: «إن اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا، وأن أباها كان اسمه يوحنا، وأنه كان عمدة مدينة، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترينا ايفانوفنا في يوم من الأيام».

اصفر وجه كاترينا ايفانوفنا اصفراراً شديداً، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره الهدوء: إذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرةً واحدة أخرى «فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له، وبين أبيها هي، فلتنزعنَّ عنها قبعتها ولتدوسنَّها بقدميها». فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض في

الغرفة طولاً وعرضاً، وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت، وأن على كاترينا ايفانوفنا أن «تخلي المسكن فوراً». ثم أسرعت تجمع لغرض ما ملاعقها الفضية من على المائدة. وأعقبت ذلك جلبة لا توصف، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك، والأولاد أخذوا يبكون؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترينا ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا صرخت تقول شيئاً عن البطاقة الصفراء، فما كان من كاترينا ايفانوفنا إلا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لإنفاذ التهديد الذي أعلنته بصدد القبعة.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب، وظهر في العتبة بيوتر بتروفتش لوجين فجأةً.

توقف لوجين لحظة، وألقى على الحضور جميعهم نظرة صارمة فاحصة، فهرعت كاترينا ايفانوفنا نحوه.

الفصل الثالث

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- بيوتر بتروفتش! أنت على الأقل، أنجدني، أغثني! أفهِمْ هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدةً من أسرة كريمة أخنى عليها الدهر، وأن هناك محاكم لهذا الأمر... سوف أشتكي إلى المحافظ بشخصه... سوف تحاسب على ما فعلت!.. تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به أبي... كن حامياً لليتامى...

قال بيوتر بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترينا ايفانوفنا بحركة من يده:

- اسمحي لي يا سيدتي، اسمحي لي، اسمحي لي يا سيدتي. أنا لم أتشرف بمعرفة أبيك في يوم من الأيام، وأنت تعلمين هذا حق العلم... اسمحي لي يا سيدتي! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً). ولست أنوي أن أشارك في مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا... أنا إنما جئت لأمر... شخصي، أنا إنما جئت أطلب على الفور إيضاحاً من ابنة زوجك صونيا ايفانوفنا... هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أمرَّ...

قال بيوتر بتروفتش ذلك وترك كاترينا ايفانوفنا واتجه إلى الركن المقابل من الغرفة، حيث كانت صونيا.

تجمدت كاترينا ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة. لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بيوتر بتروفتش أن أباها قد أكرم ضيافته. إنها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدِّقها وتؤمن بها هي نفسها. وهذه اللهجة التي تكلم بها بيوتر بتروفتش، هذه اللهجة الخشنة، الرسمية، التي فيها احتقار وتهديد، قد أدهشتها أيضاً. على أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بيوتر بتروفتش. إن «رجل الأعمال الجاد» هذا يفوق سائر الحضور شأناً، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه إنما جاء لأمر خطير، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه إلى المجيء إلى هذه البيئة، ولا بد إذن أن يقع حادث ما بعد قليل. وكان راسكولنيكوف إلى جانب صونيا فتنحى حتى يدع له أن يمر. وبدا على راسكولنيكوف أن بيوتر بتروفتش لم يلاحظه. وبعد دقيقة ظهر ليبزياتنيكوف في عتبة الباب هو أيضاً. لم يدخل الغرفة، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك، حتى ليكاد يكون مدهوشاً. وقد أصاخ بسمعه مصغياً، لكنه ظل مدةً طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذي يدور عليه الكلام.

قال بيوتر بتروفتش يخاطب الجمع:

- اغفروا لي إزعاجكم، غير أن القضية هامة خطيرة، بل إنني يهمني أن تنجلي الأمور على رؤوس الأشهاد. يا آماليا ايفانوفنا، أرجوك وألح في الرجاء أن تستمعي إلى الحديث الذي سأجريه مع صونيا ايفانوفنا، بصفتك صاحبة البيت.

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التي كانت مذهولة وكانت مروَّعة مذعورة سلفاً:

- يا صونيا ايفانوفنا، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة في غرفة صديقي آندريه سيميونوفتش

ليبزياتنيكوف. فإذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن، وقلت لنا أين توجد، فإن لك عليَّ عهد الشرف - وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول - أن تقف القضية عند هذا الحد؛ وإلا كنت مضطراً أن ألجأ إلى إجراءات أخطر. . . وليس لك عندئذ أن تلومي إلا نفسك! . .

خيَّم على الغرفة صمت مطلق. حتى الأطفال الذين كانوا يبكون سكتوا. وكانت صونيا واقفة، شاحبة كأنها ميتة، تنظر إلى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به. كان يبدو عليها أنها لا تفهم. وانقضت بضع ثوان.

سألها لوجين وهو يحدق إليها:

- هيه؟ ما قولك؟

فقالت صونيا أخيراً بصوت واهن:

- لا أعلم. . . لا أعلم شيئاً. . .

- حقاً؟ لا تعلمين؟ لا تعلمين شيئاً؟

كذلك سألها لوجين مكرراً، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى، ثم استأنف كلامه فكأنه ينذر وينصح:

- فكِّري يا آنسة، فكِّري في الأمر. أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكِّري. اسمعي: لولا أنني واثق بما أقول، موقن منه، فإنني بحكم تجربتي ما كنت لأجازف فأوجه إليك اتهاماً مباشراً إلى هذا الحد، لأنني سأُحاسب أنا نفسي عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رؤوس الأشهاد إذا ظهر أنه خطأ فحسب. ذلك أمر أعرفه. إنني في هذا الصباح قد بدَّلت، لقضاء حاجات شخصية، بضعة سندات ذات ريع، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل. ذلك هو الرقم المسجل في دفتري. فلما عدت إلى مسكني - وإن آندريه سيميونوفتش شاهد على ذلك - أخذت أعدُّ المال من باب التثبت والتحقق، حتى إذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل، رتَّبتها في محفظتي ووضعت المحفظة في الجيب الداخلي من

ريدنجوتي. وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية، منها ثلاث قيمة الواحدة مائة روبل. وفي تلك اللحظة دخلت أنت (تلبيةً لدعوتي)، وطوال المدة التي قضيتها عندي، كان يبدو عليك اضطراب شديد، حتى أنك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات. كنت تريدين أن تخرجي - لا أدري لماذا! - رغم أن محادثتي معك لم تكن قد انتهت. إن آندريه سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله. وأغلب الظن أنك لن ترفضي أنت نفسك، يا آنسة، أن تعترفي بأنني أرسلت آندريه سيميونوفتش في طلبك لهدف واحد هو أن أتكلم معك في الوضع المحزن الذي آلت إليه قريبتك كاترينا ايفانوفنا (التي لم أستطع أن أشارك في مأدبتها)، وفي وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو إقامة يانصيب أو شيء من هذا القبيل. وقد شكرتني، حتى أن الدموع ترقرقت من عينيك (إنني أروي الأشياء كما وقعت، أولاً لأذكِّرك بها، وثانياً لأبيِّن لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد مُحي من ذاكرتي). ثم تناولتُ من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك إياها، دليلاً على اهتمامي بقريبتك، ومشاركةً أولى مني في مساعدتها. وهذا أيضاً قد رآه آندريه سيميونوفتش. ثم شيَّعتك حتى الباب - وأنتِ في نفس الاضطراب والارتباك. وخلوت بعد ذلك إلى آندريه سيميونوفتش. وتحدثتُ معه قرابة عشر دقائق. حتى إذا خرج عدت إلى المائدة أنوي أن أرتب، على حدة، المال الذي كان موضوعاً عليها، وذلك بعد أن أعدَّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل). فما كان أشد دهشتي حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فُقدت. أفصلي في الأمر بنفسك: لا يمكنني بأيّ حال من الأحوال أن أشك في آندريه سيميونوفتش، حتى أن هذه الفكرة وحدها تُشعرني بالخجل والعار. لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت في حساباتي، لأنني قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد تثبت من صحة المجموع. لذلك، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة، ونظراً لاستعجالك الخروج، ونظراً لكونك قد

ظللت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات، ونظراً لوضعك الاجتماعي وما يخلقه من عادات، فقد أُكرهت إن صح التعبير، أُكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها في محلِّها ولها ما يسوِّغها. أضيف وأكرر أنني رغم يقيني البديهي الكامل أدرك أن إلقاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها. ولكنني لم أتردد دقيقة واحدة، كما ترين، بل ثارت ثائرتي واستعرَ حنقي، وسأقول لك الآن لماذا ثارت ثائرتي واستعر حنقي: إن سبب ذلك هو نكرانك الفظيع للجميل يا آنسة؟ كيف؟ أأدعوك إلى مسكني، وأهتم بقريبتك المسكينة، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً مني في مساعدتها، فتكافئيني هذه المكافأة في تلك الدقيقة نفسها! لا، حقاً ليس هذا حسناً! ولا بد أن ألقِّنك درساً! فكِّري في الأمر! ثم إنني أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك في هذه اللحظة صديق خير مني): تذكري هذا، وإلا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة. هل تعترفين بأنك...

دمدمت صونيا تقول مذعورة:

- أنا لم أسلبك شيئاً. أنت أعطيتني عشرة روبلات. ها هي ذي. إنني أردها إليك.

واستلّت صونيا من جيبها منديلاً، واهتدت إلى العقدة التي عقدتها فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدَّتها إلى لوجين. قال لوجين ملحاً، بلهجة اللوم والتقريع، دون أن يتناول الورقة المالية:

- ألا تعترفين إذن بالمائة روبل؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها. كان الجميع ينظرون إليها بعيون قاسية، ساخرة، مبغضة!.. وألقت نظرة على راسكولنيكوف.

كان راسكولنيكوف واقفاً، مسنداً ظهره إلى الجدار، عاقداً ذراعيه على صدره، يحدِّق إليها بعينين ملتمعتين.

وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة:

- يا رب!

قال لوجين في رفق، بل بصوت عذب:

- يا آماليا ايفانوفنا، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسلي أحداً ينادي البواب...

قالت آماليا ايفانوفنا وهي تضرب كفاً بكف:

- غوت دير بارمغيرتسيغيه[45]! كنت أعرف أنها لصة!

قال لوجين:

- ها... كنت تعرفين ذلك؟ لا بد أن يكون هنالك إذاً سبب دعاك إلى استخلاص هذه النتيجة، واستخراج هذا الرأي في الماضي! فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا، المحترمة جداً، أن تتذكري هذه الكلمات التي قلتها الآن، وقد قلتها أمام شهود على كل حال.

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية دفعةً واحدةً في كل جهة من الجهات، وشمل الحفلَ كلَّه اضطرابٌ كبير.

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت إلى رشدها:

- كيف؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرددة:

- كيف؟ أتتهمها بالسرقة؟ أتتهمها هي؟ هي، صونيا؟ آه... يا للأوغاد! يا للأوغاد!

وارتمت على صونيا، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين. وتابعت كلامها تقول:

- صونيا! كيف تجرأت أن تقبلي عشرة روبلات من هذا الرجل؟ يا لك من حمقاء! يا لك من حمقاء! ردِّيها إليه حالاً، ردِّيها إليه حالاً، روبلاته العشرة! خذ...

انتزعت كاترينا ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا، فدعكتها بيديها، ورمتها في وجه لوجين، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على أرض الغرفة. فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها، وغضب بيوتر بتروفتش، وصرخ قائلاً:

- أمسكوا هذه المجنونة!

وفي تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم، عدا ليبزياتنيكوف، السيدتين القادمتين من الأقاليم، اللتين تسكنان هنا منذ مدة قصيرة.

زعقت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- كيف؟ المجنونة؟ أأنا المجنونة؟ يا للأبله! يا للوغد الشقي! يا للرجل الدنيء! صونيا، صونيا، تسرق منه مالاً؟ صونيا، سارقة؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك أنت مالاً يا أبله!

صرخت كاترينا ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هستيرية، وهتفت تقول وهي تركض إلى اليمين وإلى اليسار مشيرة لجميع الناس إلى لوجين:

- أرأيتم إلى هذا الأبله؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت:

- كيف؟ أفأنت أيضاً تدّعين أنها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانية! انظروا أيها الناس، انظروا!

وعادت تخاطب بيوتر بتروفتش فقالت:

- آه... أنت... أنت... أجهلتَ أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة أيها النذل، فما أن خرجتْ من عندك حتى جاءت تجلس إلى جانب روديون رومانوفتش! فتِّشها إذاً! فما دامت لم تذهب إلى أي مكان، فلا بد أن يكون المال معها. ابحث إذاً! ابحث! ابحث! ولكن

إذا لم تجد شيئاً يا عزيزي فلتحاسبنَّ على افترائك! إلى الإمبراطور سأشكوك، إلى الإمبراطور، إلى القيصر الرحيم! لأرتمينَّ على قدميه حالاً، في هذا اليوم نفسه! أنا يتيمة! سيسمحون لي بالدخول! ماذا؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لي بالدخول؟ أنت إذاً مخطئ! لسوف أصل إليه، لسوف أصل إليه! آ... كنت تعوِّل على خجلها وحيائها، على رقتها وخفرها، أليس كذلك؟ على هذا إنما كنت تبني أملك! ولكنني، أنا، لا أستحي يا عزيزي! أنا عيناي ماء! هيًا فتِّش! فتش!

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك خارجةً عن طورها وقد أخذت تهزّ لوجين بكل قواها وتجرّه نحو صونيا.

تمتم لوجين:

- أنا مستعد... أنا مستعد لأن أحاسَبَ... ولكن هدئي روعك يا سيدتي، هدئي روعك! أني لألاحظ حقاً أنك لا تستحين... أمام الشرطة إنما يحسن في الواقع أن... رغم أن ههنا شهوداً يكفي عددهم ويزيد... أنا مستعد... ولكن هذه مهمة محرجة بالنسبة إلى رجل... وذلك بسبب... بسبب الجنس طبعاً... ليتني أستطيع أن أطلب إلى آماليا ايفانوفنا أن تساعدني... رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة... ليست هذه الطريقة... ما العمل؟

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- اختر من تشاء! فليفتشها من يريد أن يفتشها! صونيا! اقلبي جيوبك أمامهم! انظر، انظر أيها الشيطان! وكان ثمة هناك منديل... هأنت ذا ترى أن جيبها خال. أرأيت؟ واقلبي الجيب الآخر الآن! أنظر! أنظر! أرأيت؟ أرأيت؟

ولم تكتف كاترينا ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا، بل شدَّتهما شداً عنيفاً لتظهرهما إظهاراً أوضح. فإذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب الثاني، وهو الجيب الأيمن، فترسم في الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند قدمي لوجين.

جميع الحضور رأوا الورقة، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات. ومال بيوتر بتروفتش على الأرض، فتناول الورقة بإصبعين، وفضّها على مرأى من الشهود كافة. أنها ورقة مائة روبل قد طُويت ثماني طيّات. أجال بيوتر بتروفتش يده في جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة.

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول:

- سارقة! لصة! أغربي عن وجهي! نادوا الشرطة، الشرطة! يجب إرسالهم إلى سيبيريا! أخرجوا من هنا!

وارتفعت صيحات من كل صوب. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحوّل بصره عن صونيا، مع إلقائه نظرةً سريعة على لوجين من حين إلى حين. وما تزال صونيا واقفةً في مكانها كأنها أصيبت بخبال، حتى أنها لا تبدو عليها دهشة. وفجأة احمر خداها احمراراً شديداً، وأطلقت صرخة خفيفة، وأخفت وجهها في يديها، ثم صرخت بصوت ممزّق يقطعه نشيج البكاء، وهي تندفع نحو كاترينا ايفانوفنا، صرخت تقول:

- لا، لستَ أنا!.. أنا لم آخذها! لا أعلم! فاحتضنتها كاترينا ايفانوفنا بذراعيها، وضمتها إليها بقوة كأنها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها.

وصرخت كاترينا ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع، وهي تهدهدها في ذراعيها كما يُهدهَد طفل صغير، وتقبّلها طائشة العقل، وتمسك يديها فتغرقهما لثماً:

- صونيا! صونيا! لست أصدق! هاأنت ذي ترين أنني لا أصدق! أأنت تسرقين؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين؟ يا رب!..

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً:

- أنتم أغبياء! أنتم بلهاء! أنتم إذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبل النفس! أنتم إذن لا تعرفون أية فتاة هي!

أهي تسرق؟ هي؟ ألا إنها لمستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه، ألا إنها لمستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه، إذا كنتم في حاجة إليه! نعم، هذه هي طبيعتها! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة صفراء، فلأن أولادي كانوا يتضورون جوعاً! لقد باعت نفسها في سبيلنا! آه. . . يا زوجي الراحل. . . يا زوجي المسكين الراحل، هل ترى هذا؟ هل ترى؟ انظر إلى مأدبة الجنازة هذه التي تقام لك! رباه! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم؟ ما بالكم تبقون جامدين كالمومياوات؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً؟ . . إنكم جميعاً لا تساوون خنصرها، جميعاً، جميعاً، جميعاً! هلاً دافعتم عنها أخيراً يا رباه! . .

كان لشهقات كاترينا ايفانوفنا المسكينة، المصدورة، التي هجرها جميع الناس أثر قوي في الحضور. إن هذا الوجه الحزين المخرَّب الضاوي من وجوه المصابين بداء السل، وإن هاتين الشفتين اليابستين المدماتين، وإن هذا الصوت الأجش الصافر، وإن هذا النشيج المتشنج الذي يشبه نشيج الأطفال؛ وإن هذه الضراعة التي فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس، إن ذلك كله كان يبلغ من إثارة الشفقة وإيلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثي لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه. وسرعان ما رثى لحالها بيوتر بتروفتش على كل حال. قال يهتف بصوت يعبِّر عن الحماية والرعاية:

- سيدتي، سيدتي! ليس لك في هذا الأمر ضِلْع! ما من أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلبَ جيوبها، فهذا دليل على أنك لم تراودك أية شبهة. إنني مستعد أتمَّ الاستعداد، نعم، أتمَّ الاستعداد، لأن أتسامح إذا كان البؤس هو الذي دفع صونيا سيميونوفنا إن صح التعبير. ولكن لماذا لم تشائي أن تعترفي يا آنسة؟ لعلك كنت تخشين العار؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى في هذا الطريق؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك؟ ذلك

أمر يُفهم تماماً. ولكن لماذا، لماذا وضعت نفسك في موقف كهذا الموقف؟

وأردف بيوتر بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً:

- أيها السيدات والسادة، إنني، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح، رغم الإهانات والشتائم الشخصية التي وُجِّهت إليَّ!

والتفت إلى صونيا، فقال لها:

- نعم يا آنسة، ليكن الخزي الذي أصابك الآن درساً يفيدك في المستقبل. لن أتابع هذه القضية. أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد. يكفي هذا.

وبطرف العين نظر بيوتر بتروفتش إلى راسكولنيكوف، فالتقت نظرتاهما. كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهمّ أن تسحق لوجين سحقاً.

ولم يبد على كاترينا ايفانوفنا أنها سمعت شيئاً. كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة. وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة، وقد أجهشت بوليتشكا باكية، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذي يدور عليه المشهد فهماً واضحاً)، وألقت وجهها الجميل المنتفخ على كتف صونيا، مهتزة الجسم من النشيج.

- أنذل هذا! قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب.

التفت بيوتر بتروفتش. فكرر ليبزياتنيكوف قوله محدقاً إليه متفرساً فيه:

- يا للنذالة!

أصاب بيوتر بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة. لقد لاحظ الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد). تقدم ليبزياتنيكوف بضع خطوات. وقال مخاطباً بيوتر بتروفتش وهو يقترب منه:

- وتجرؤ أن تُشهدني أيضاً؟

- ما معنى هذا... يا آندريه سيميونوفتش؟ عمَّ... تتكلم؟ - دمدم لوجين متعثر اللسان.

أجابه ليبزياتنيكوف بعنف، وهو ما يزال يحدِّق إليه تحديقاً قاسياً بعينين عمشاوين:

- معناه أنك كاذب مفتر... نعم... هذا ما يعنيه كلامي!

كان ليبزياتنيكوف في حالة غضب رهيب. ونظر إليه راسكولنيكوف هو أيضاً، كأنما ليتلقف كلماته ويزنها محاولاً أن يفهم معناها الغامض المكتوم. وساد صمت جديد. كان بيوتر بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً، ولا سيما في الوهلة الأولى.

وبدأ يتكلم فقال متلعثماً:

- إذا كنت تخاطبني أنا... ولكن ماذا دهاك؟ أأنت في تمام عقلك؟

- نعم... أنا في تمام عقلي... ولكنك أنت... نذل! آه... ما أنذل هذا! لقد كنت أستمع إلى كل شيء، وتعمدت أن انتظر لأفهم كل شيء، ذلك أنني حتى هذه الساعة... لا تزال الأمور غير منطقية تماماً، أعترف بذلك!.. نعم، لماذا فعلت هذا؟.. إنني لا أفهم!

- ولكن ما الذي فعلتُه؟ هلا كففت عن الكلام بألغاز غبية؟ لعلك سكران؟ لعلك شربت؟

- بل لعلك أنت الذي شربت، لا أنا، أيها الرجل الدنئ! ثم إنني لا أشرب فودكا أبداً، لأن هذا يخالف مبادئي. هل تتصورون أنه هو نفسه، هو الذي أعطى صونيا سيميونوفنا، بيديه، ورقة المائة روبل هذه؟ لقد رأيته بعيني رأسي، أنا شاهد، وفي وسعي أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان!

وردَّد ليبزياتنيكوف يقول متجهاً إلى الجميع وإلى كل واحد:

- هو! هو!

أعول لوجين يقول:

- أأنت مجنون أيها الغر؟ لقد أقرت هي نفسها، هي الواقفة هناك، بقربك، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ مني إلا عشرة روبلات. وكيف كان يمكنني أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك؟

ردَّد ليبزياتنيكوف يقول صارخاً:

- رأيتُ ما فعلتَه! رأيت بعيني! وأنا مستعد، رغم أن ذلك يخالف مبادئي، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم... لأنني رأيتك تدسُّ لها هذه الورقة خلسةً. ولكنني، لغبائي، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والإحسان. قرب الباب، لحظةَ كانت تودعك، حين التفتتْ ومددتَ لها يدك اليمنى، ودسستَ ورقة المائة روبل باليد اليسرى في جيبها خلسةً. رأيت ذلك! رأيته!

شحب لون لوجين. وصرخ يقول بوقاحة:

- ما هذه السخافات التي تقولها؟ كيف كنت تستطيع، وأنت واقف قرب النافذة، أن تتعرف على هذه الورقة؟ ما هذا إلا وهم!.. ما هذا إلا وهم خلقته عيناك العمشاوان! أنت تهذي!

- لا، ليس هذا وهماً! ورغم أنني وقفت بعيداً، والحق يقال، فقد رأيت كل شيء، كل شيء! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميِّز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة. ولكنني بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة إنما كانت ورقة مالية بمائة روبل، إذ في اللحظة التي أعطيتَ صونيا سيميونوفنا عشرة روبلات، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأنني كنت عندئذ بالقرب منك)؛ ولأن فكرةً ما قد ومضت في ذهني حينذاك، فإنني لم أنس أن هذه الورقة كانت بيدك. لقد طويتها واحتفظت بها في يدك طوال الوقت. ثم لم أفكر أنا بعد ذلك في هذا الأمر التفصيلي، ولكنك حين

نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى؛ وحين فعلتَ ذلك كدتَ تُسقطها على الأرض. فتذكرت ذلك الأمر التفصيلي من جديد، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت في ذهني مرة أخرى: وهي أنك تريد أن تمنَّ على صونيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك. لهذا أخذتُ أراقبك وأرصد حركاتك، فرأيت أنك أفلحت في أن تدسَّ تلك الورقة في جيبها! رأيت ذلك! رأيت! وأني مستعد لأن أحلف يميناً!

كان ليبزياتنيكوف كمن يختنق. وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب. غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً. واقترب الجميع من بيوتر بتروفتش، واندفعت كاترينا ايفانوفنا نحو ليبزياتنيكوف.

- آندريه سيميونوفتش! لقد أخطأت الظن فيك! دافع عنها! أنت الوحيد الذي يدافع عنها! هذه يتيمة! إن الله هو الذي أرسلك لتساعدنا! آندريه سيميونوفتش، يا عزيزي الطيب الشهم آندريه سيميونوفتش!

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك، وارتمت تركع أمامه، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع!

زأر لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب:

- سخافات! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام: «نسيت، تذكرت، نسيت!». ما معنى هذا؟ في زعمك إذن أنني دسست لها الورقة عمداً... ولكن لماذا؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك؟ أي شيء يجمع بيني وبين هذه الـ...

- لماذا؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة! إنني لم أخطئ في شيء أيها الحقير النذل، إنني أتذكر أن فكرةً قد راودتني في تلك المناسبة، حين كنت أشكرك مصافحاً. لقد قلت لنفسي عندئذ: «لماذا دسَّ لها هذه الورقة خلسةً؟ أيمكن أن لا يكون غرضه من ذلك إلا أن يخفي عني عمله، لعلمه بأن مبادئي

تتعارض مع فكرة الإحسان الفردي، الإحسان الذي لن يخفف إطلاقاً عن أحد تخفيفاً جذرياً في يوم من الأيام؟». ثم خطر ببالي أنك ربما كنت تشعر بحرج من إهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضوري؛ ثم اعتقدت أنك إنما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر في جيبها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو المعسول). ولكني قلت لنفسي بعد ذلك أيضاً أنك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها، أي أن تعلم هل تجيء إليك شاكرة بعد أن تجد الورقة. وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك إنما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان، عملاً بالمبدأ القائل إن اليد اليمنى يجب أن تجهل...[46] الخ... آه... ما أكثر الأفكار التي راودت ذهني حينذاك!.. وقد قررت أن أفكر في هذه المسألة على مهل، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين أنني عارف بسرِّك. وقد راودتني عندئذ فكرة أخرى. تساءلت: «ماذا لو أضاعت صونيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده؟» وذلك هو السبب الذي دفعني أن أجيء إلى هنا فأذكِّرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل في جيبها. ولكنني، أثناء الطريق، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف، لأعطيهما كتاب «العرض العام للمنهج الوضعي»[47]، ولأوصيهما خاصةً بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً)، ثم جئت إلى هنا، فانظرْ في وسط أية قصة وقعت! هل كان يمكن أن تخطر ببالي تلك الأفكار كلها، وهل كان يمكن أن أجري تلك الاستدلالات جميعها، لولا أنني رأيتك تدس المائة روبل في جيب صونيا سيميونوفنا فعلاً؟

حين أنهى آندريه سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب، فكان العرق يقطر من جبينه. إنه لا يجيد التعبير باللغة الروسية واأسفاه (وإن كان لا يعرف أية لغة أخرى)، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية إرهاق شديد، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال. لكن حديثه أثَّر تأثيراً خارقاً. لقد تكلم بدون تصنع أو افتعال،

وكان كلامه مقنعاً مفحماً، فصدقه الجميع. وشعر بيوتر بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يحب. فهتف يقول:

- أنا لا تهمني المسائل السخيفة التي خطرت ببالك في قليل ولا كثير! ليس هذا ببرهان. من الجائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كله في حلم. وأنا أقول لك إنك تكذب يا سيد! أنت تكذب، وأنت تفتري عليَّ، يدفعك إلى ذلك حقدٌ شخصي، فأنت تضمر لي الضغينة لأنني لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة. ذلك كل شيء!

ولكن هذه المراوغة لم تعد على بيوتر بتروفتش بأي نفع. بالعكس: ارتفعت الدمدمات من كل جهة.

وصاح ليبزياتنيكوف يقول:

- آ. . . هذا ما تريد أن تصل إليه! أنت تكذب! استدع الشرطة، وسأحلف اليمين. ليس هناك إلا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه: ما الذي دفعه إلى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء؟ يا للحقير! يا للنذل!

- أنا أستطيع أن أشرح السبب الذي دفعه إلى التورط في مثل هذا الفعل. وأني لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً إذا لزم ذلك. قال راسكولنيكوف بصوت قاسٍ وهو يتقدم إلى أمها. كان يبدو حازماً. وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً، وأن الخاتمة قد اقتربت.

وقال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام إلى ليبزياتنيكوف رأساً:

- الآن فهمت كل شيء! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية أن في الأمر مكيدة ما، مكيدة قذرة، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها أحد غيري وسأكشف عنها لكم الآن، لأنها أصل كل شيء. وأنت الذي أضأت لي الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا آندريه سيميونوفتش. أرجوكم جميعاً، جميعاً، أن تصغوا إليَّ. إن هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً إلى لوجين) قد خطب في الآونة

الأخيرة فتاة. . . فتاة. . . هي أختي آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوفا.
لكنه منذ وصوله إلى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بيني وبينه شجار
أثناء أول لقاء بيننا فطردته من مسكني، وذلك بحضور شاهدين اثنين.
إن هذا الرجل مغتاظ جداً وشرير. . . لم أكن أعرف أمس الأول أنه
يسكن في غرفة مفروشة عندك يا آندريه سيميونوفتش، ولم أكن أعرف
إذاً أنه في يوم تشاجرنا نفسه، أي أمس الأول بعينه، قد رأى أنني
بصفتي صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترينا
ايفانوفنا مالاً تنفقه على الاحتفال بالجنازة. ولكنه قد رأى ذلك فسرعان
ما كتب إلى أمي رسالة يبلغها فيها أنني قد وهبت كل ما أملك من مال،
لا لكاترينا ايفانوفنا بل لصونيا سيميونوفنا، واصفاً هذه الفتاة بأحط
النعوت. . . أقصد. . . واصفاً طبيعة علاقاتي بها بأحط النعوت. وهو
يهدف من ذلك طبعاً إلى أن يحدث شقاقاً بيني وبين أمي وأختي، عن
طريق إقناعهما بأنني أتلف في وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان
نفسيهما منه في سبيل سدِّ حاجاتي. وفي مساء أمس، أثناء مقابلة تمت
بيني وبين أمي وأختي، وقد حضر هذه المقابلة، أظهرت الحقيقة مبرهناً
على أنني إنما أعطيت المال لكاترينا ايفانوفنا، لإنفاقه على الاحتفال
بالجنازة، ولم أعطه لصونيا سيميونوفنا، التي كنت منذ ثلاثة أيام لا
أعرفها على كل حال. . . ولكنني أضفت إلى ذلك أنه، هو بيوتر
بتروفتش، بكل مزاياه، لا يساوي خنصر صونيا سيميونوفنا التي يقول
في حقها ذلك الكلام الدنيء! ثم سألني هل أنا مستعد لأن أُجلس صونيا
سيميونوفنا إلى جانب أختي، فأجبته بأنني قد فعلت هذا في ذلك اليوم
نفسه. وأغضبه أشدَّ الغضب أن يلاحظ أن أمي وأختي لا تريدان أن
تتشاجرا معي تصديقاً لنمائمه وافتراءاته، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات
لا تُغتفر. ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبين أختي، وطُرد شرَّ
طردة. ذلك كله حدث أمس. والآن انتبهوا: لو قد أفلح في أن يبرهن
اليوم على أن صونيا سيميونوفنا سارقة، لاستطاع أن يظهر لأمي وأختي
أولاً أنه كان على حق حين اشتبه في أمرها، وثانياً أنه كان على حق حين

غضب إذ علم أنني ساويت بينها وبين أختي، وأنه إذ هجم عليَّ دافع بذلك عن شرف أختي وخطيبته وحافظ عليه. جملة القول إنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل في أن يحدث شقاقاً بيني وبين أسرتي وفي أن يسترد حظوته لديها. ناهيكم عن أنه بذلك ينتقم مني شخصياً، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صونيا سيميونوفنا يهماني كثيراً. ذلكم هو حسابه كله! هكذا أفهم أنا القضية! هذا هو دافعه ولا دافع سواه!

بهذه الكلمات، أو بهذه الكلمات تقريباً، ختم راسكولنيكوف كلامه الذي كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه. ولكن راسكولنيكوف، رغم المقاطعات، تكلم بلهجة جازمة هادئة ثابتة، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شيء. وكان لصوته المختلج ونبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد في جميع الناس.

قال ليبزياتنيكوف مؤيداً بحماسة:

- هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! هذا هو الأمر يقيناً، لأنه سألني، منذ دخلت صونيا سيميونوفنا الغرفة، هل «أنت موجود، وهل رأيتُك في عداد الذين دعتهم كاترينا ايفانوفنا؟». لقد جذبني إلى شقِّ النافذة ليلقي عليَّ هذا السؤال همساً. معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً! هذا هو الأمر تماماً!

كان لوجين صامتاً يبتسم باحتقار. لكنه كان شديد الشحوب. كأنه يفكر في الوسيلة التي يخرج بها من المأزق. لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخرج، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً في تلك اللحظة: فلو خرج لكان معنى خروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموجَّهة إليه، وأنه قد افترى على صونيا سيميونوفنا فعلاً. ثم إن الحضور، وقد سكروا، أخذوا يضطربون اضطراباً شديداً. وهذا موظف

التموين يصرخ صراخاً أعلى من صراخ سائر الناس، رغم أنه لم يفهم كل شيء، مقترحاً اتخاذ إجراءات تسيء إلى لوجين كثيراً. هذا إلى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى: لقد هرع أناس من جميع الغرف. البولنديون الحقراء الثلاثة اهتاجوا اهتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية: «سيد حقير»، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت صونيا تصغي في جهد، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم كل شيء هي الأخرى. لكأنها خارجة من غيبوبة. كانت لا تحوّل عينيها عن راسكولينكوف، شاعرةً أنه سندها الوحيد. وكانت كاترينا ايفانوفنا تتنفس في مشقة، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء، وكانت تبدو مرهقة إلى أبعد حدود الإرهاق. إلا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع، فهي فاغرة الفم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة. كل ما هنالك أنها كانت تحس ان بيوتر بتروفتش في مأزق. وأراد راسكولنيكوف مرةً أخرى أن يتكلم، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات. ومع ذلك لم يفتّ هذا في عضد لوجين. وإذ رأى أن حملته على صونيا سيميونوفيا خاسرة، لجأ إلى الوقاحة عامداً. قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور:

- اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي! أرجوكم لا تهددوني! أؤكد لكم أن هذا لا يجدي، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً! لست بالصبي الغر. . . بالعكس: أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم. لقد انفضحت السارقة، وسأشكوها إلى القضاء. والقضاة ليسوا عمياً، ولا هم سكارى! . . القضاة لن يثقوا بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين، ويتهمانني حقداً وانتقاماً، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما! نعم، اسمحوا لي!

قال آندريه سميونوفتش:

- ألا فليختف كل أثر لوجودك عندي على الفور! هيَّا غادر غرفتي حالاً، ولينته كل شيء بيننا... آه... حين أتذكر كم أرهقت نفسي في أن أشرح له... طوال خمسة عشر يوماً!

- ولكنني قلت لك أنا نفسي منذ قليل، بينما كنت تلحُّ أنت على بقائي عندك، إنني مبارح غرفتك حتماً. هناك شيء واحد أضيفه الآن: هو أنك غبي أبله! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك الحسير. اسمحوا لي يا سادة!

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً. لكن موظف التموين لم يكن يسمعه بهذه الأذن، ولم يشأ أن يخلي سبيله بهذه السهولة، فتناول كأساً عن المائدة فلوَّح بها ثم قذفها إلى جهة بيوتر بتروفتش بكل ما أوتي من قوة. غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً، فأطلقت هذه صرخات حادة، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج بخراقة تحت المائدة بعد أن أفقدته هذه الحركة توازنه.

انسحب بيوتر بتروفتش إلى غرفته، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل.

كانت صونيا، الوجلة بطبيعتها، لا تجهل أن من السهل على أي إنسان أن يسبّب ضياعها وهلاكها هي أكثر من أي شخص آخر. وكانت تعرف كذلك أن أي إنسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية إساءة تقريباً. ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن في وسعها، بطريقة أو بأخرى، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة إذا هي عاملت جميع الناس وكلَّ إنسان بالتأني والحذر، والتواضع والمذلة، والرقة واللطف. فخاب الآن ظنها، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع في نفسها. صحيح أنها كانت تستطيع، مذعنةً مستسلمة، ودون دمدمة تقريباً، أن تحتمل كل شيء، وأن تحتمل حتى

هذا. غير أن هذا قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها، في الوهلة الأولى، درجةً لا تطاق. فهي، رغم انتصارها وتبرئتها، ما أن زال رعبها الأول وما أن أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً، حتى كان شعورها بأنها مهجورة وإحساسها بالإهانة التي أُلحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً، فإذا هي تصاب بنوبة عصبيّة. ثم إذا هي تفقد صبرها فتولّي هاربةً من الغرفة راكضةً إلى مسكنها. حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً.

وآماليا ايفانوفنا التي أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور، فاستعر غضبها، وأخذت تطلق صرخات مجنونة، ثم اتجهت نحو كاترينا ايفانوفنا تحمّلها تبعة كل شيء، وتقول لها:

- ارحلي من بيتي! اخرجي حالاً! هيا، أغربي عن وجهي!

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهي تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترينا ايفانوفنا فتلقيه على الأرض.

وكانت كاترينا ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى، شاحبة الوجه، مهدَّمة، محطَّمة، فلما رأت صاحبة البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليها. ولكن الصراع لم يكن فيه أي تكافؤ، فكانت الألمانية تهزُّ كاترينا وترجُحها كأنها ريشة طائر.

- ماذا؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا افتراءات شيطانية، فهي تهجم عليَّ أنا أيضاً؟ كيف؟ هل أُرمى إلى الشارع في يوم وفاة زوجي؟ أبعد أن تُقبل ضيافتي أُلقىَ إلى الشارع مع اليتامى؟ فإلى أين يمكنني أن أذهب؟

بهذا كانت تعول كاترينا ايفانوفنا مختنقةً من خلال النشيج. وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها:

- هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا إله السماء؟ عمَّن عساك تدافع ومن عساك تحمي إذا لم تدافع عنا نحن اليتامى؟.. لسوف نرى! أن

على الأرض قضاءً ومحاكم! نعم، هناك قضاء ومحاكم! سأتجه إلى المحاكم، سأجد المحاكم! حالاً! فوراً! انتظري قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة! ثم أضافت: يا بوليتشكا، ابقي مع الأولاد! سأعود! انتظري في الشارع إذا لزم الأمر! سوف نرى هل في هذا العالم عدالة وحقيقة!

وألقت كاترينا ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من الجوخ الخفيف، الذي تحدث عنه المرحوم مارميلادوف، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبعثرين فوضى، الذين كانوا لا يزالون محتشدين في الغرفة. واندفعت في الشارع باكية ناشجة، وهي تنوي على نحو غامض أن تمضي باحثةً عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر.

واستولى الرعب على بوليا، فلطت في ركن من الأركان قربَ الصندوق، مع الصغار المرتجفين المرتعدين، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرةً عودة أمها.

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب في الغرفة، وتطلق الصراخ بعد الصراخ، وترعد، وتلقي على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه. وكان المستأجرون يصرخون كلٌ من جهته: فبعضهم يعلقون على الأحداث بطريقتهم، وبعضهم يتشاجرون ويتشاتمون، وبعضهم يغنون.

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «والآن حان حيني أنا أيضاً. سوف نرى يا صونيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن!»

واتجه نحو مسكن صونيا.

الفصل الرابع

ودافع راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعذاباً أليماً. ولكنه شعر بعد تباريح الصباح برضى صادق وارتياح حقيقي لتغير مشاعره التي كان قد أصبح لا يطيق احتمالها، بصرف النظر عن العاطفة التي دفعته إلى التدخل مدافعاً عن صونيا. ثم إنه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة، وهو موعد كانت فكرته تحدث له في بعض الأحيان أشد أنواع القلق. كان عليه أن يبلغها بمَنْ هو الذي قتل اليزافيتا، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض، وكأنه بحركة من يده، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه. لذلك فإنه حين هتف يقول لحظةَ خروجه من عند كاترينا ايفانوفنا: «سوف نرى يا صونيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن» كان ما يزال خاضعاً لحالة الاضطراب الظاهري والتحدي وللأثر الذي أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين. غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك: فإنه حين وصل إلى مسكن كابرناؤموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة، وشعر بخوف يستولي عليه، فاحتار واضطرب، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب: «هل يجب أن يقول لها من الذي قتل اليزافيتا؟». وإنما كان هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر في الوقت نفسه أنه عاجز عن كتمان هذا الأمر بل شعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن

يؤخر اعترافه هذا أي تأخير. كان لا يعرف، بعد، لماذا يستحيل عليه ذلك. وإنما هو يحس تلك الاستحالة إحساساً فحسب، وكان هذا الإحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً. ومن أجل أن يضع حداً لخواطره وتأملاته، وهمّه وقلقه، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه في العتبة.

كانت صونيا جالسةً، واضعةً كوعيها على مائدتها الصغيرة، دافنةً وجهها في يديها. فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبَّت إلى لقائه كأنها كانت تنتظره.

- لولا وجودك لما عرفتُ ما عسى كان يحدث لي حينذاك! قالت بسرعة وهي تدنو منه. من البديهي أن هذا الكلام كان الكلام الوحيد الذي أرادت أن تقوله له بأسرع وقت ممكن، والذي كانت بسببه في انتظاره.

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذي تركته صونيا. كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه، كالبارحة تماماً.

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأة بأن صوته يرتجف:

- هيه صونيا! أرأيت؟ أن أساس الأمر كله إنما «وضعك الاجتماعي والعادات التي يخلقها». هل فهمت؟

ارتسم الألم على وجه صونيا. وقاطعته تقول:

ولكن لا تكلمني كما كلمتني أمس. أرجوك، لا تفعل ما فعلته أمس. كفى تعذيباً!

وأسرعت تبتسم، مخافة أن يسوءه هذا اللوم.

وأردفت تقول:

- كانت حماقةً مني أن انصرفت. فما الذي يجري الآن هناك؟ لقد أردت أن أعود، لكنني كنت أقدِّر طوال الوقت أنك... قد تجيء.

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترينا ايفانوفنا مضت «تبحث عن العدالة» في مكان ما.

هتفت صونيا تقول:

- آه! رباه! هيَّا بنا حالاً، فوراً!

وتناولت خمارها.

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة:

- ما زلت كما كنت! لا تفكرين إلاّ فيهم! هلاً بقيت معي قليلاً!

- لكن... وكاترينا ايفانوفنا؟

- كاترينا ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدي إليك.

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أضاف يقول بحزن:

- ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت. فإن لم تجدك هنا كنت أنت المذنبة.

جلست صونيا وهي فريسة تردد أليم. وصمت راسكولنيكوف مطرقاً إلى الأرض يجتر فكرة ثابتة.

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر إلى صونيا:

- لنسلِّم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر... ولكن لو شاء ذلك، لو كان ذلك داخلاً في حساباته، لاستطاع أن يرسلك إلى السجن لولا وجودي ووجود ليبزياتنيكوف، أليس كذلك؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف:

- نعم!

ثم كررت تقول قلقةً وكأنها غائبة عن نفسها:

- نعم!

قال راسكولنيكوف:

- ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك. أما ليبزياتنيكوف فإنه لم يكن قد رجع إلا مصادفةً.

صمتت صونيا ولم تجب بشيء.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

- فماذا لو أودعتِ في السجن؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ هل تتذكرين ما قلته لك أمس؟

ظلت صونيا صامتة. وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام:

- كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلةً مرة أخرى: «آه... لا تقل هذا الكلام! اسكت!»

ولم تجب صونيا أيضاً، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة:

- هيه! أتعودين إلى الصمت؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما على كل حال! إنني ليهمني كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلّي مسألة من المسائل... على حد تعبير ليبزياتنيكوف (لكأن راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك) - وتابع كلامه: لا، لا، أنا لا أتكلم جاداً. تخيَّلي يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً (يعني لو كنتِ تعرفين بالضبط) جميع نيات لوجين، وأنك كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترينا ايفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً، هي والأولاد أيضاً، وأنك ستضيعين أنت أيضاً زيادةً عليهم (لأنك لا تعتبرين نفسك إنساناً، زيادة عليهم)، وكذلك بوليا... من جهة أخرى... لأن هذا الطريق هو طريقها هي أيضاً... تخيَّلي هذا كله ثم تخيَّلي أنه يتوقف عليك أنت أن يبقى على قيد الحياة إما هذا وإما أولئك، أي إما لوجين مع كل الدناءات التي يرتكبها وإما كاترينا ايفانوفنا، فماذا تقررين؟ أتختارين موته أم تختارين موتها؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال.

نظرت إليه صونيا في قلق. إنها تحزر وراء هذه الكلمات الملتبسة فكرة مخبأة تُقرّبها من شيء ما.

قالت وهي تثبت عليه نظرة فاحصة:

- كنت أوجس أنك ستلقي عليَّ سؤالاً من هذا النوع.

قال راسكولنيكوف:

- طيب، ليكن ذلك. فماذا تختارين؟

سألته صونيا بنفور:

- لماذا تسألني عن شيء لا يمكن أن يحدث؟

- الأفضل إذاً أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر في ارتكاب حقاراته! هذا مع ذلك رأي لا تجسرين أيضاً أن ترتئيه؟

- ليس يخصني أنا أن أنفذ إلى أغراض «العناية الإلهية»... ولماذا تسأل عمّا لا نملك حق السؤال عنه؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قراري أنا؟ من الذي نصبني قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن يجب أن لا يحيا؟

جمجم راسكولنيكوف يقول بلهجة عابسة:

- متى تدخلت «العناية الإلهية» في الأمرِ، لم يبق ما نقوله!

فهتفت صونيا تقول في ألم:

- الأوْلى أن تقول لي ما تريد أن تقوله، بغير لفٍ ولا دوران! إنك ما تزال تجتر شيئاً ما. هل من الممكن أن لا تكون قد جئت إلا لتعذبني؟

ولم تطق صونيا صبراً، فأخذت تبكي بكاءً مراً. فكان ينظر إليها مكفهر الوجه حزيناً. وانقضت على ذلك خمس دقائق.

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب:

- نعم، أنت على حق.

لقد تبدَّل راسكولنيكوف فجأة. إن لهجته التي كان فيها وقاحة مقصودة وتحدٍ متعمَّد قد اختفت. حتى لقد ضعف صوته. وتابع كلامه فقال:

- لقد قلت لك أمس إنني لن أجيئك اليوم مستغفراً، ومع ذلك فإنني بدأت كلامي بالاستغفار تقريباً. فحين تكلمت عن لوجين وعن العناية الإلهية كنت لا أتكلم إلا عن نفسي، وكنت أستغفر يا صونيا. . .

وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم، لكن تعبيراً عن العجز والتعب تجلى في تلك الابتسامة الضعيفة. وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه.

وفجأة، اجتاح قلبه إحساس غريب غير متوقع، إحساس بكره عنيف نحو صونيا. فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روَّعه هذا الاكتشاف، فرفع رأسه بغتةً ونظر إليها محدِّقاً. ولكن نظرته لم تلتق إلا بنظرة الفتاة التي كانت نظرة قلقة زاخرة بضراعة أليمة. لقد كان في تلك النظرة حب. وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل إحساس بالكره، كما يتبدد حلم. لا، لم يكن الأمر كما تصور، لقد أخطأ في فهم طبيعة العاطفة التي شعر بها. ذلك يعني أن اللحظة الحاسمة قد وافت.

ومرةً أخرى دفن وجهه في يديه، وخفض رأسه. واصفر وجهه على حين بغتة، ونهض عن كرسيه ونظر إلى صونيا، ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية، دون أن يقول كلمة واحدة.

كانت هذه الدقيقة، من ناحية الإحساس الذي شعر به، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التي كان فيها واقفاً وراء العجوز، بعد أن أخرج الفأس من العلاّقة، وأحس أنه «لم يبق ثمة لحظة يضيعها».

سألته صونيا مروَّعةً:

- ماذا بك؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة. لم يكن يقدِّر أنه على هذا النحو سينبئها بالأمر. ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث في نفسه في تلك اللحظة.

اقتربت صونيا منه برفق، وجلست على السرير بقربه، وانتظرت دون أن تحوِّل عينيها عنه. وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر.

أصبح الموقف لا يُحتمل. أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت. وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق أية كلمة. استولى الرعب على صونيا. فقالت مردِّدة وهي تبتعد عنه قليلاً:

- ماذا بك؟

فدمدم يقول كإنسان استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدري ماذا يقول:

- لا شيء يا صونيا. لا تخافي. حقاً، متى فكَّر المرء في هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحماقات!

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إليها:

- لماذا جئت أعذبك أنت؟ حقاً، لماذا؟ إنني لا أنفك ألقي على نفسي هذا السؤال يا صونيا...

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة، ولكنه يعبِّر عنه الآن وهو في حالة ضعف كامل، فما يكاد يشعر بنفسه، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل.

قالت صونيا متألمةً وهي تتفحصه بنظرها:

- آه... لشد ما تعذب نفسك!

- ما هذه كلها إلا سخافات! اسمعي يا صونيا: (إن فكرةً من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بهما ابتسامة ضعيفة عاجزة كثانيتين لا أكثر) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس؟

انتظرت صونيا قلقة.

- لقد قلت لك عند انصرافي أنني ربما كنت أودعك إلى الأبد، ولكنني إن جئت فسأقول لك... من الذي قتل اليزافيتا.

أخذت صونيا ترتعش من الرأس إلى القدمين.

- فهاأنذا أجيء لأقول لك من الذي قتل اليزافيتا.

تمتمت تقول في جهد ومشقة:

- كنت تتكلم جاداً إذاً حين قلت لي أمس...

لكنها أسرعت تسأله كأنها ثابت إلى رشدها فجأة:

- فكيف عرفت من الذي قتلها؟

كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً. وكان وجهها يزداد شحوباً. قال راسكولنيكوف:

- أنا أعرف.

فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة. ثم سألته خائفة:

- وهل وجدوه؟

- لا، لم يجدوه.

- إذن كيف عرفت من هو؟

قالت ذلك بصوت مختنق، بعد صمت جديد.

التفت راسكولنيكوف إليها، وأمعن في النظر إليها. ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المصنوعة العاجزة نفسها:

- احزري!

وكأن تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله.

قالت وهي تبتسم كطفلة:

- ولكنك... ولكنك تخيـ... تخيفني بهذا الكلام!

تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر إليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان إليها شداً لا فكاك منه، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها.

- هذا يبرهن على أن بيني وبينه هو صداقة حميمة. ولقد كان لا يريد

قتل اليزافيتا تلك، وإنما هو قتلها. . . مصادفةً. . . لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت. . . وجاء. . . فإذا باليزافيتا. . . وعندئذ. . . قتلها هي أيضاً.

وانقضت دقيقة أخرى مروِّعة. كان كل منهما ينظر في الآخر.

سألها بغتةً وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس:

- ألم تحزري إذاً؟

همست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك:

- لـ. . . لا. . .

- انظري فيَّ وفكِّري!

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه إحساس مألوف جمَّد قلبه. نظر إليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزافيتا. وتذكَّر تذكُّراً واضحاً متميزاً تعبير وجه اليزافيتا في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً فأسه، فتراجعت نحو الحائط واضعةً يديها أمامها، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا. كذلك كان شأن صونيا في تلك اللحظة. لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها، وبذلك العجز نفسه، وبذلك الارتياع ذاته، ثم رفعت يدها اليسرى فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق، ونهضت عن السرير ببطء، وابتعدت عنه رويداً رويداً، وهي تحدِّق إليه مزيداً من التحديق. وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف، ارتسم هو نفسه تماماً. وأخذ ينظر إليها وهو يبتسم ابتسامة «الأطفال» تلك نفسها تقريباً.

وهمس يسألها أخيراً:

- هل حزرت؟

قالت صونيا مرتاعةً وهي تشهق شهقة رهيبة:

- يا رب!

وخارت قواها، فسقطت على السرير دافنةً وجهها في الوسادة. ولكنها عادت تنهض بعد لحظة، واقتربت منه، وتناولت يديه، وضغطتهما بأصابعها النحيلة بقوّة. ثم استأنفت التحديق إليه. كانت تريد بهذه النظرة الأخيرة اليائسة أن تلتقط شيئاً من أمل ولو أمل ضعيف. ولكن توقعها كان باطلاً. لم يبق أي شك. نعم، ذلك هو الأمر! وحتى في المستقبل، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة، سيبدو لها غريباً عجيباً: لماذا رأت على هذا النحو، دفعةً واحدةٍ، أنه لم يبق مجال لأي شك؟ ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فإنها ما إن قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست هذا الأمر نفسه حقاً.

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً في ألم:

- كفى يا صونيا، كفى! لا تعذِّبيني!

لم يكن قد قدَّر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها، ولكن على هذا النحو إنما تمَّ الاعتراف.

وكأنما خرجت صونيا عن طورها، ووثبت، ولوت يديها، ومضت إلى وسط الغرفة. ولكنها سرعان ما عادت إلى قربه، فجلست بجانبه حتى ليكاد كتفها يلتصق بكتفه. وكأن فكرة مباغتة قد ومضت في ذهنها، فإذا هي ترتعش فجأة، وتطلق صرخة، وترتمي راكعةً أمام راسكولنيكوف، لا تدري هي نفسها لماذا!

قالت بصوت يائس:

- ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بنفسك؟

وثبتْ وارتمت على عنقه وضمته إليها ضماً قوياً.

بدرت من راسكولنيكوف حركة تقهقر، ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

- ما أغربك يا صونيا! أتعانقينني بعد أن قلت لك ذلك الأمر؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين!

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته»

- لا، لا، ليس في العالم كله الآن رجل أشقى منك.

وأجهشت تبكي فجأة.

إن عاطفة يجهلها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة تغرقه الآن كموجة غامرة، وتملأ قلبه رقة وحناناً. لم يحاول راسكولنيكوف أن يقاوم هذه العاطفة. وانبجست من عينيه دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابه.

سألها وهو ينظر إليها في أمل تقريباً:

- ألن تتركيني إذاً يا صونيا؟

فصاحت صونيا تجيبه:

- لا، لن، لن أتركك أينما تذهب! سأتبعك، سأتبعك إلى أي مكان! آه... يا رب!.. آه... ما أشقاني!.. لماذا، لماذا لم أعرفك من قبل؟ لماذا لم تأتِ قبل هذا الأوان؟ آه... يا رب!..

- لكنني أتيت مع ذلك.

- الآن أتيت! ولكن ما العمل الآن؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهي تعانقه من جديد:

- معاً، معاً! سوف أذهب معك إلى الأشغال الشاقة!

أصابت هذه الكلمات قلبه، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء.

- ربما كنتُ يا صونيا لا أحب أن أذهب إلى الأشغال الشاقة.

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة. وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها وهي عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الإنسان الشقي المعذب، عادت تستولي عليها فكرة القتل الرهيبة المروّعة. إن لهجة كلماته

الأخيرة، وهي لهجة تبدلت على حين فجأة، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح. ونظرت إليه مشدوهة. كانت لا تعرف، بعدُ، شيئاً. كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث. والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعةً واحدة. ومرةً أخرى عادت تشك: «أيكون هو قاتلاً؟ مستحيل... مستحيل!» ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول، كأنها لم تعد إلى رشدها:

- ولكن ما هذا؟ أين أنا؟ كيف، كيف أمكنك وأنت ما أنت... أن تعزم أمرك على تلك الفعلة؟ لماذا؟

أجاب بلهجة مرهقة، وكأنها ملتاعة:

- لأسرق. كفى يا صونيا!

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة، ولكنها هتفت تقول فجأة:

- كنتَ جائعاً! فعلت ذلك لتساعد أمك، أليس كذلك؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه:

- لا يا صونيا، لا... لم أكن جائعاً إلى ذلك الحد. الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي... ولكن... هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة... لا تعذّبيني يا صونيا.

ضمت صونيا يديها إحداهما إلى الأخرى. وقالت:

- ولكن هل يمكن، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً؟ رباه! أهذه هي الحقيقة؟ من ذا الذي يمكن أن يصدِّقها؟ وكيف، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق، أنت الذي تعطي آخر ما تملك؟

ثم صاحت تقول فجأة:

- وذلك المال الذي قدمته إلى كاترينا ايفانوفنا... وذلك المال... يا رب! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً...

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً:

- لا يا صونيا... اطمئني! ذلك المال إنما أرسلته إليَّ أمي بواسطة تاجر، وقد تلقيته أثناء مرضي، في ذلك اليوم نفسه الذي أعطيتُه أمّك... رازوميخين يعرف هذا... هو الذي قبضه نيابةً عني... كان ذلك المال مالي أنا، مالي أنا حقاً.

كانت صونيا تصغي إليه حائرةً، جاهدةً بكل قواها أن تفهم.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حالمة:

- أما المال الآخر... فإنني لا أعلم هل له وجود. لقد انتزعت من عنقها... محفظة نقود من جلد... محفظة نقود ملأى، محشوة، لكنني لم أفتحها... أما الأشياء الأخرى... أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود في آن واحد، ومضيت أدفن ذلك كله في فناء منزل بشارع ف.. ودفنتها تحت صخرة... في الصباح التالي وما يزال كل شيء هناك...

كانت صونيا تصغي بانتباه.

- ولكن كيف تقول إنك قتلت «لتسرق»، في حين أنك لم تستول على شيء؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة، محاولة أن تتشبث بهذه القشة.

قال راسكولنيكوف شارد الذهن:

- لا أدري... إنني لم أقرر بعدُ أأستولي على ذلك المال أم لا...

ثم أضاف فجأة وكأنه قد عاد إلى وعيه، بينما ظهرت على شفتيه ابتسامة سريعة ضعيفة:

- يا له من سخف، هذا الكلام الذي قلته الآن، هه؟

ومضت في ذهن صونيا فكرة: «ألا يمكن أن يكون مجنوناً»، ولكنها أسرعت تنبذ تلك الفكرة. لا، إن في الأمر شيئاً آخر، ولكنها لا تفهمه، لا تفهمه البتة.

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الإلهام:

- هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن؟

وأردف يقول مشدِّداً على كل كلمة من كلماته، ملقياً نظرات ملغزة رغم أنها صادقة:

- لو أنني لم أقتلها إلا بدافع الجوع، فلربما كنت الآن... سعيداً! اعلمي هذا!

وهتف يقول بعد لحظة بشيء من اليأس في صوته:

- ولكن فيم يعنيك أن أعترف بأنني أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصري عليَّ هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا... أمن أجل هذا سعيت إليك؟!

أرادت صونيا مرةً أخرى أن تقول شيئاً، ولكنها لزمت الصمت.

قال راسكولنيكوف:

- إذا كنت قد ناديتك أمس فلأنه لم يبق لديَّ أحدٌ غيرك.

سألته صونيا: - ناديتني إلى أين؟

- ما ناديتك لتقتلي أو لتسرقي. اطمئني. ما ناديتك من أجل هذا (كذلك ردَّد وهو يبتسم ابتسامة مرة)، فنحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً كبيراً. هل تعلمين يا صونيا أنني لم أدرك إلا الآن إلى أين ناديتك أمس. حين ناديتك أمس، لم أكن أعرف إلى أين أناديك. والحقيقة أنني ناديتك لتحقيق هدف واحد، الحقيقة أنني سعيت إليك لغرض واحد: هو أن لا تتركيني. قولي: أترضين أن لا تتركيني يا صونيا؟

شدت صونيا على يديه.

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية اليأس:

«لماذا، لماذا ذكرتُ لها الأمر؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة؟».

قال ذلك ونظر إليها شاعراً بعذاب لا نهاية له. وتابع كلامه يقول:

- هاأنت ذى تنتظرين مني شروحاً وتفسيرات يا صونيا. أنت هنا تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات. إنني أرى ذلك. ولكن ما عساني أقول لك؟ إنك لن تفهمي من الأمر شيئاً. ولن تزيدي على أن تتألمي بسببي! وأنت الآن تبكين، وتعانقينني من جديد. لماذا تعانقينني؟ ألأنني لم أستطع أن أحتمل العبء، فجئت أتخفف منه بإلقائه على غيري؟ «تألمي، تألمي أنت أيضاً، فذلك يخفف عني أنا»، ذلك هو لسان حالي. أفتستطيعين أن تحبي وغداً كهذا الوغد؟

هتفت صونيا تسأله:

- ولكن ألست تتألم أنت أيضاً؟

ومرة أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرقَّ قلبه لحظة قال:

- صونيا، إن لي قلباً شريراً، انتبهي إلى هذا، فيضيء لك أموراً كثيرة. ولأنني شرير إنما جئت أيضاً. هناك أشخاص كان يمكن أن لا يجيئوا. أما أنا فجبان... جبان!.. ولكن... لا ضير!.. ليس هذا هو الأمر الهام. وإنما عليَّ الآن أن أتكلم، ولست أدري بمَ أبدأ.

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً. ثم هتف يقول من جديد:

- هيه! نحن مختلفان أحدنا عن الآخر اختلافاً تاماً! مستحيل أن نتفاهم! لماذا، لماذا جئت؟ لن أغفر هذا لنفسي أبداً!

صاحت صونيا تقول:

- بل لقد أحسنت إذ جئت! الأفضل أن أعرف! ذلك أفضل كثيراً.

نظر إليها راسكولنيكوف بألم. ثم قال كمن يتابع فكرة:

- نعم، هكذا جرت الأمور، هكذا جرت حقاً. اسمعي كيف جرت: لقد أردت أن أصبح نابوليون، ومن أجل ذلك إنما قتلت. فهل فهمت الآن؟..

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة:

- لـ . . . لا . . . ولكن تكلم، تكلم، فسوف أفهم، فسوف أفهم كل شيء في أعماق نفسي. . .

بذلك طالبته صونيا ضارعةً متوسلة.

قال راسكولنيكوف:

- سوف تفهمين؟ طيب. . . سنرى.

وصمت، وفكَّر ملياً. ثم قال:

- إليك الأمر! لقد ألقيت على نفسي في ذات يوم هذا السؤال: ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد في مكاني، ولم يكن أمامه في بداية حياة المجد الذي حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر مونبلان[48]، وإنما كان أمامه، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولي على المال الذي تخبئه في صندوقها (في سبيل تحقيق رسالته طبعاً، هل تفهمين)؟ نعم، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك إذا لم يعرض له أي مخرج آخر؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والخجل لأن فعلاً كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضخامة. . . ناهيك عن الخطيئة؟ أؤكد لك أن هذا «السؤال» قد أقضَّ مضجعي مدة طويلة، إلى أن أدركت أخيراً (على حين فجأة) وقد أشعرني هذا الإدراك بالخزي أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجلٍ من هذا الفعل، بل وما كان ليخطر بباله في أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفعة، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل. . . ولا شك في أنه، إذا لم يعرض له أي حل آخر، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير. هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الإقدام والإحجام، فقتلت. . . مقتدياً بذلك الرجل الذي هو «حجة». نعم، على ذلك النحو إنما جرت الأمور. أيبدو لك هذا سخيفاً مضحكاً؟ نعم يا صونيا، لعل أسخف ما في القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً!

ولكن صونيا لم ترى في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً. وها هي ذي تسأله بصوت فيه مزيد من الخجل والوجل، بصوت لا يكاد يُسمع:

- بل حدثني... رأساً... مباشرة... دون أن تضرب أمثلة!

فالتفت راسكولنيكوف نحوها، ونظر إليها بحزن، وتناول يديها، ثم قال لها:

- أنت على حق يا صونيا. ما ذلك كله إلا غباء وثرثرة! فاسمعي: أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً. وأختي التي نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمربية فكنت أنا أملَهم الوحيد. وكنت أتمم دراستي، لكنني وقد أصبحت لا أستطيع سدَّ حاجاتي اضطررت أن أترك الجامعة. وهبيني كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتي عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لي أن آمله هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً من الموظفين يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقي درساً محفوظاً). وفي أثناء ذلك تكون أمي قد أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها. أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً. ولماذا أخفق في حياتي هذا الإخفاق، وأمُر بكل شيء مروراً عابراً، وأنسى أمي، واحتمل الإهانات التي تنزل بأختي؟ لماذا؟ في سبيل ماذا؟ في سبيل أن أبني أسرة جديدة بعد أن أدفن أمي وأختي، فتكون لي زوجة ويكون لي أولاد، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال، بلا لقمة خبز؟ لذلك قررت أن أقف على المال الذي سأستولي عليه من العجوز، قررت أن أنفقه على دراستي، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذِّب أمي). وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقياس ضخم، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية، فأدخل حياة جديدة، وأضمن لنفسي وضعاً مستقلاً كل الاستقلال... هذا كل شيء!.. ولقد أسأت صنعاً إذ قتلت العجوز طبعاً. ولكن هيًا، كفى هذا!

أتمَّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد. كان يبدو مرهقاً، وكان خافضاً رأسه.

صاحت صونيا تقول حزينة:

- لا، ليس هذا هو الأمر، ليس هذا هو الأمر، لا، هل هذا معقول؟.. ليس هذا، ليس هذا...

- أرأيت؟ تقولين بنفسك إن الأمر ليس هو هذا. ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء، وحدثتك صادقاً مخلصاً. تلك هي الحقيقة!

- ولكن أيّ حقيقة هنا؟ رباه!..

- إنني لم أقتل إلا قملة يا صونيا، قملة قذرة، لا فائدة منها، ضارَّة، مسيئة!

- أتقول قملة وهي مخلوقة إنسانية؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة:

- ولكنني أعرف أنها ليست قملة!

ثم أضاف:

- ثم إنني أكذب يا صونيا، إنني أكذب منذ زمن طويل. أيضاً ليس هذا هو الأمر! أنت على حق! لقد كان لفعلي بواعث غير هذه البواعث، غيرها تماماً. إنني لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا... أنا أشعر الآن بصداع شديد.

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة. كان كمن يهذي. وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة. ومن خلال اهتياجه، كان يلوح إعياء رهيب. أدركت صونيا مدى ما كان يقاسي من عذاب. وأخذ الدوار يستولي عليها هي أيضاً. ثم إنه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً: صحيح أن المرء يستطيعُ أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء المفهومة، ولكن: «كيف؟ كيف؟ يا رب!» ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره قد جرت في مجرى آخر على حين بغتة فصدمته وأيقظت نشاطه. فقال:

- لا يا صونيا، ليس هذا هو الأمر. ليس هو هذا... وإنما عليك أن تفترضي (نعم افترضي هذا، فهو أصح) أنني إنسان غيور، حسود، منحط، شرير، حقود، يحب الانتقام، مهيأ... للجنون (أقول كل شيء دفعةً واحدةً ما دمت قد بدأت؛ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن قالوا بذلك وأنا لاحظت...) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردي كانت لا تتيح لي البقاء بالجامعة. ولكن هل تعلمين أنني ربما كان يمكنني مع ذلك أن أتابع دراستي؟ كان يمكن أن ترسل إليَّ أمي ما أنا في حاجة إليه، وكان يمكنني أيضاً أن أجني بالعمل ما يكفيني طعاماً وكساءً. لا شك في أنني كنت أستطيع ذلك. كان يمكنني أن أعطي دروساً، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس. وهذا رازوميخين! لقد كان يجني من العمل رزقاً طيباً! ولكنني شعرت بسخط ورفضت أن أعمل. نعم شعرت بسخط (هذه هي الكلمة الصحيحة). فلبدت في ركني كما يلبد عنكبوت. لقد جئتِ إلى مسكني الحقير فرأيته. ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر؟ آه... لشدَّ ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه. عن عمد إنما كنت لا أريد أن أتركه. كنت أقضي فيه أياماً بكاملها، لا أريد أن أعمل، بل وحتى لا أريد أن آكل. كنت أظل راقداً طوال الوقت. فإن جاءتني ناستاسيا بطعام أكلته، وإن لم تجئني بشيء بقيت صائماً لا أطالب بطعام، غضباً وحنقاً! حتى إذا هبط الليل بقيت في ظلام دامس لأنني لا أملك ما استضيء به. كنت أؤثر أن أبقى في ذلك الظلام الحالك على أن أعمل في سبيل أن أتمكن من شراء شموع. وبعت كتبي بدلاً من أن أدرس. ودفاتري على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمْكها سُمْك إصبع. وما يزال هذا الغبار موجوداً إلى الآن. كنت أؤثر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل. كنت لا أزيد على أن أفكر

وأن أسترسل في الأحلام. لا داعي إلى القول إن تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة، وكانت متغيرةً متقلبة! ولكن بدأ يبدو لي عندئذ أن. . . لا، لا، ليس هذا هو الأمر! إنني لا أحكي الأشياء كما حدثت. الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك، لعلمي بأن الناس أغبياء، لماذا أنا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم؟ وأدركت بعد ذلك، يا صونيا، أنه إذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكياء، فلا بد من إضاعة وقت طويل. ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً، فالناس لن يتغيروا في يوم من الأيام، وما من أحدٍ يملك أن يغيِّرهم، فلا داعي إلى إضاعة الوقت في محاولة ذلك. نعم، تلك هي حالهم، وذلك هو قانونهم. . . نعم. . . القانون يا صونيا، القانون. . . وأني لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوي النفس والعقل، فذلك هو سيِّدهم، ذلك هو مولاهم! من كان يملك جرأة كبيرة، فذلك هو الذي له الغلبة عليهم! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره، فذلك هو عندهم المشرِّع! من كان يتمتع بأكبر جسارة، فذلك هو الذي يهبون له جميع الحقوق! هذا ما كان من قديم الزمان، وهذا ما سيبقى إلى آخر الدهر! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة!

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا، رغم أنه كان لا ينفك ينظر إليها أثناء كلامه. لقد استولت عليه الحمى. وكان يجتاحه نوع من اهتياج مظلم قاتم (حقاً، أنه لم يتحدث إلى أي إنسان منذ مدة طويلة). وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة أصبحت إيمانه وأصبحت قانونه.

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة:

- لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب إلا لمن يجرؤ أن يطأطئ ليتناولها. تكفي الجرأة: الجرأة كل شيء! ووافتني عندئذ، لأول مرة في حياتي، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن في يوم

من الايام لا أحد! لقد بدا لي واضحاً وضوح النهار، على حين فجأة، أنه ما من أحد قد تجرأ ولا يتجرأ، حين رأى بطلان العالم، أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطة، فيرسله إلى جهنم! أما أنا، أما أنا. . . فقد أردت أن أجرؤ فقتلت! إنني حين قتلت لم أرد يا صونيا إلا أن أجرؤ! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل!

صاحت صونيا تقول له متوسلةً وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- اسكت، اسكت! لقد ابتعدت عن الله، فضربك الله وأسلمك لإبليس. . .

- قولي لي يا صونيا: حين كنت أبقى راقداً في ظلام غرفتي أجترّ أنواع الخواطر والأفكار، فهل كان إبليس هو الذي يغويني حينذاك! قولي!

- اسكت! لا تضحك أيها المجدِّف! إنك لا تفهم شيئاً، لا تفهم شيئاً! رباه! إنه لا يفهم شيئاً!

- اسكتي يا صونيا، أنا لا أضحك البتة. أنا نفسي أعلم أن إبليس هو الذي كان يجرُني. . .

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردِّد بإلحاح عابس حزين:

- اسكتي يا صونيا، اسكتي! أنا أعلم كل شيء! لقد قلَّبت الأمر بعقلي مراراً وهمست لنفسي بهذا كله أثناء اضطجاعي في الظلام. . . لقد ناقشت هذا كله في قرارة نفسي قبل الآن بأدق التفاصيل! أنا أعلم كل شيء، كل شيء! وهذه الثرثرة قد مَلأَت نفسي بالسأم والضجر إلى حدّ أنني أردت أن أنسى، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا، وأن أكف عن الثرثرة. هل تظنين حقاً أنني قد اندفعت إلى ذلك الأمر منكِّس الرأس كإنسان أبله؟ إن العقل هو الذي كان يقودني، وذلك بعينه هو ما ضيَّعني! هل يمكن حقاً أن تظنّي أنني كنت أجهل مثلاً أن مجرد إلقائي

هذا السؤال: «هل لي حق في السلطة أم لا؟» كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن إلقائي هذا السؤال: «هل الإنسان قملة؟» إنما يعني في الواقع أن الإنسان ليس قملة في نظري أنا، وأنه ليس قملة إلا في نظر مَنْ لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال، وإنما هو يمضي إلى هدفه قُدُماً لا يلوي على شيء؟ لئن ظللت أعذِّب نفسي طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون: أكان يقتل العجوز أم لا، فإن معنى ذلك أنني كنت أشعر شعوراً واضحاً بأنني لست نابوليون. ذلك هو العذاب الذي عانيته يا صونيا، والذي أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدةً. لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية، أردت القول لنفسي، لنفسي أنا وحدي! أنني حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي: أنا لم أقتل في سبيل أن أساعد أمي! لا! لا. ولا في سبيل أن أصبح محسناً إلى الإنسانية بعد أن أملك وسائل الإحسان إليها. لا، وإنما أنا قتلت لنفسي، لنفسي وحدي! وفي تلك اللحظة لم يكن يعنيني كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين إلى الإنسانية، أم أنني سوف أقضي حياتي كالعنكبوت أصطاد غيري في نسيج خيوطي وأمتصّ قواه الحية! ولا ولا كان المال هو ما أحتاج إليه ذلك الاحتياج كله... وإنما كان احتياجي إلى شيء آخر... أنا أعرف هذا الآن! افهميني يا صونيا: لو كان عليَّ أن أعيد السير في هذا الطريق نفسه، فقد لا أقتل. غير أن هناك شيئاً كان يغريني بمعرفته. كان هناك شيء يرفع ذراعي. كان عليَّ أن أعرف عندئذ، بأقصى سرعة ممكنة، أأنا قملة كسائر الناس، أم أنا إنسان؛ أأنا أستطيع أن أتخطى الحاجز، أم أنا لن أستطيع ذلك؛ أأنا أجرؤ أن أطأطئ فأتناول هذه القدرة، أم أنا لن أجرؤ؛ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك الحق...

- الحق في القتل؟ تملك الحق في القتل؟

كذلك قالت صونيا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى.

صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يعترض عليها:

- هيه! صونيا. . .

ولكنه عدل عن ذلك، ولزم صمتاً فيه احتقار. ثم أردف يقول:

- لا تقاطعيني يا صونيا! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد: هو أن إبليس قد جرَّني في أول الأمر، ثم لم يُفهمني إلا بعد ذلك أنني لم يكن من حقي أن أقترف الفعل الذي اقترفته، لأنني أنا نفسي قملة كسائر الناس. لقد سخر مني واستهزأ بي، ولهذا السبب إنما جئت إليك الآن، فأحسني وفادة ضيفك يا صونيا! أكنت أجيء إليك لولا أنني قملة؟ اسمعي: إنني حين ذهبت إلى العجوز لم أكن أريد إلا أن أحاول تجربة. . . فاعلمي هذا!

- وقتلتَ! قتلتها! . .

- لكن كيف قتلت؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل؟ سأروي لك في ذات يوم كيف ذهبت إلى هناك. . . هل العجوزَ قتلتُ؟ لا بل أنا قتلت نفسي! لقد أجهزت على نفسي، دفعةً واحدة، وإلى الأبد! أما العجوز فإن إبليس هو الذي قتلها لا أنا!

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأة وقد أصبح فريسة قلق لا يغالب:

- كفى كفى يا صونيا، دعيني! دعيني!

ووضع كوعيه على ركبتيه، وشدَّ رأسه بين يديه ككماشة.

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم، فأفلت من لسانها قولها:

- ما أشدَّ ألمك وعذابك!

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس:

- وما العمل الآن؟ قولي. . .

صاحت وهي تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئتين بالدموع:

- ما العمل؟

ثم أضافت وهي تمسكه من كتفه، فينهض هو من مكانه وينظر إليها بما يشبه الذهول دهشةً:

- اذهب فوراً، في هذه اللحظة نفسها، اذهب إلى مفرق طرق، فاسجد على الأرض أولاً، وقبّلها هي التي قد دنَّستها، واتجه إلى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك: «لقد قتلت!». عندئذ سيردُّ إليك الإله الحياة. أتذهب؟ أتذهب؟

كذلك سألته مرتعشةً من رأسها إلى قدميها، كأن نوبةً عصبية قد ألَّمت بها. وأمسكت يديه، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً، وتأملته بنظرة حارة.

ذُهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة. وسألها مكفهر الوجه:

- أتريدين إذاً أن أذهب إلى الأشغال الشاقة يا صونيا؟ يجب أن أشي بنفسي، أليس كذلك؟

- الشيء الذي يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك وتفدي نفسك. ذلك هو ما يجب!

- لا لن أذهب إليهم يا صونيا!

صاحت صونيا تسأله:

- فكيف يكون في وسعك أن تحيا إذاً؟ كيف يكون في وسعك أن تحيا؟ أما يزال هذا ممكناً؟ عجيب! كيف يكون في إمكانك أن تظل تكلم أمك وأختك؟ آه... (ما عسى تصيران إليه؟ ما عسى تصيران إليه كلتاهما؟) ولكن ماذا أقول؟ لقد تركتَ أمك وأختك وانتهى الأمر! لقد تركتَهما، تركتَهما! آه... يا رب! إذن أنت تدرك هذا كله بنفسك!

كيف، نعم، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر؟ ما عسى تصير إليه الآن؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق:

- لا تكوني طفلة يا صونيا! ما ذنبي في حقهم؟ لماذا أشي بنفسي إليهم؟ ما عساني قائلاً لهم؟ لس هذا كله إلا سراباً. . . هم أنفسهم يقتلون ملايين البشر، ثم يستمدون من ذلك مجداً! هم أوغاد وجبناء يا صونيا! لا، لن أذهب! ثم ماذا أقول لهم؟ أأقول لهم إنني قتلت لكنني لم أجرؤ أن آخذ المال وإنما خبأته تحت صخرة؟ (كذلك أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة). ولكنهم سيضحكون عندئذ عليَّ، وسيعدونني رجلاً أبله، لأنني لم أجنِ من فعلتي نفعاً. . . سيعدونني أبله وجباناً! لن يفهموا شيئاً يا صونيا، لن يفهموا شيئاً، إنهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً. . . فلماذا أذهب إليهم فأسلمهم نفسي؟ لا، لن أذهب! لا تكوني طفلة يا صونيا!

قالت صونيا مردِّدةً متوسلةً مادةً نحوه يديها:

- لن تكون حياتك بعد الآن إلا عذاباً متصلاً طويلاً، عذاباً متصلاً طويلاً!

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن:

- لعلني ظلمت نفسي. لعلني ما زلت إنساناً لا قملة. لعلني تسرعت في اتهام نفسي. . . سوف أكافح مزيداً من الكفاح. . .

وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء.

قالت صونيا:

- أتحمل ثقلاً كهذا الثقل؟ طوال حياتك، طوال حياتك؟

فأجابها راسكولنيكوف كالح الهيئة شارد اللبّ:

- سوف أعتاد ذلك!

ثم أضاف يقول بعد دقيقة:

- اسمعي! كفى بكاءً! آن لي أن أصل من هذا كله إلى أن أذكر لك الواقع. لقد جئت لأقول لك إنني ملاحق، إنني مطارد!..

صرخت صونيا مروَّعة:

- آه...

فقال لها راسكولنيكوف:

- لماذا تصرخين؟ ألم تريدي أنت نفسك أن أذهب إلى الأشغال الشاقة؟ فما بالك تخافين الآن؟ على أنني لن أستسلم لهم، لن أدع لهم أن يقبضوا عليّ! سأظل أقارعهم، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بي شيئاً! إنهم لا يملكون قرائن واقعية. لقد تعرضت أمس لخطر كبير، فحسبت أنني هلكت. ولكن يبدو أن الأمور قد سُوِّيت اليوم. إن كل دليل من أدلتهم ذو حدَّين. أعني أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لي لا عليّ، هل تفهمين؟ وسأفعل ذلك... لأنني أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم! لكنهم سيسجنونني حتماً! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني في السجن منذ اليوم؛ وما يزال من الجائز جداً أن أُسجن اليوم. ولكن لا ضير يا صونيا! سأقضي في السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي... لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً، أؤكد لك ذلك! إن الأدلة التي يملكونها لا تكفي لأن «تلطخ» إنساناً! ولكن كفى كلاماً الآن! انا إنما قلت لك هذا كله لا لشيء إلا أن تعلمي... أما أمي وأختي فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهدئ روعيهما وأن أطمئنهما. إن أختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعوز، وكذلك أمي... هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك. ثم عليك بالحذر! هل تزورينني حين أودع في السجن؟

- سوف أزورك، سوف أزورك!

كانا جالسين أحدهما إلى جانب الآخر، حزينين مهدَّمين، كغريقين

وجد كل منهما صاحبه على شاطئ مقفر بعد عاصفة. كان راسكولنيكوف ينظر إلى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحب الذي تغمره به. ومن الغريب أنه شقَّ على نفسه بل آلم نفسه فجأة أن يحس بأنه محبوب إلى هذا الحد. آه! كم كان هذا الشعور غامضاً ورهيباً!

حين ذهب إلى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد، وبأنها ملاذه الوحيد. وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل. ولكن ها هو ذا الآن يحس ويدرك فجأة، في حين مال قلبها كله إليه، أنه أشقى مما كان من قبل. قال:

- صونيا، الأفضل أن لا تجيئي إليَّ في السجن.

لم تجب صونيا، وكانت تبكي. وانقضت بضع دقائق. فإذا هي تسأله على غير توقع، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة:

- هل معك صليب؟

فلم يفهم السؤال في أول الأمر.

قالت:

- لا، ليس معك صليب، أليس كذلك؟ خذ، إليك هذا الصليب، إنه من خشب السرو. معي صليب آخر، صليب من نحاس، بقي لي من اليزافيتا. لقد قمنا بمبادلة، أنا واليزافيتا: أعطتني صليبها، وأعطيتها أنا أيقونتي الصغيرة. سأحمل الآن صليب اليزافيتا، وستحمل أنت هذا الصليب. خذه... إنه صليبي أنا! صليبي أنا! سنتألم معاً، فلنحمل إذن صليبنا معاً!

قال راسكولنيكوف:

- هاتي! لم يُرِدْ أن يسيئ إليها.

ولكنه لم يلبث أن سحب يده.

ثم أضاف يقول ليهدئها:

- ليس الآن يا صونيا! فيما بعد! ذلك أفضل!

فقالت صونيا تردد بحماسة:

- نعم، نعم، ذلك أفضل، أفضل! سوف نضع الصليب في عنقك حين تسافر للتكفير. تجيء إليّ، فأضعه في عنقك، ونصلّي معاً، ونسافر معاً...

في تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات. ونادى صوت مهذَّب مألوف يسأل:

- هل أستطيع أن أدخل يا صونيا سيميونوفنا؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة. وظهر في فرجة الباب وجه ليبزياتنيكوف الأشقر.

الفصل الخامس

كان ليبزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة.

قال يكلم صونيا:

- جئت لأراك يا صونيا سيميونوفنا.

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة:

- معذرة. كنت أتوقع أن أجدك هنا. أقصد لم يخطر ببالي شيء... مما قد تظن، وإنما أنا قدَّرت أن...

وعاد يكلم صونيا ناسياً وجود راسكولنيكوف فقال دفعةً واحدة:

- جُنَّت كاترينا ايفانوفنا!

أطلقت صونيا صرخة. وتابع ليبزياتنيكوف كلامه:

- أو على الأقل ذلك ما يبدو. أصبحنا هناك لا ندري ماذا يجب أن نعمل. أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه، ولعلهم ضربوها أيضاً... أو على الأقل ذلك ما يبدو... لقد ركضت تسعى إلى الرئيس سيميون زاخارتش[49]، فلم تجده في بيته: كان يتغدى عند جنرال آخر. فذهبت إلى حيث كان يتغدى... تصوروا... ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر... هل تصدقون هذا؟ واستطاعت أن تستدعي الرئيس سيميون زاخارتش، نعم، اضطرته أن ينهض عن المائدة، أو

على الأقل ذلك ما يبدو. وفي وسعكم أن تتخيلوا التتمة! لقد طُردت طبعاً، لكنها تروي أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على رأسه. ذلك جائز جداً. حتى أنني أستغرب أنهم لم يعتقلوها. وهي الآن تروي هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها، ومنهم آماليا ايفانوفنا. غير أن من الصعب أن يفهم المرء عليها، من فرط صراخها وتخبطها!.. آه... نعم... هي تقول... هي تصيح قائلةً إنها ما دامت قد هجرها جميع الناس، فستأخذ أولادها، وستمضي في الشارع تعزف على أرغن يدوي، وأن أولادها سيغنون ويرقصون، وأنها ستغني وترقص هي أيضاً، وأنهم سيستعطون الصدقات من المارَّة، وأنها ستقود الأولاد كل يوم إلى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته، وهكذا «سيعرف الجنرال، على حد تعبيرها، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف محترم يستجدون أكف الناس في الشوارع». وهي تضرب جميع أولادها، والأولاد يبكون. إنها تعلّم لينيا أغنية «القرية الصغيرة»[50]، وتعلّم الصبي الصغير الرقص، وكذلك تعلّم الرقص بولينا ميخائيلوفنا. ولقد مزقت ملابسهم، وأخذت تخيط لهم طاقيات مهرّجين. إنها تريد أن تحمل طشتاً تنقر عليه كما تنقر على آلة موسيقية. وهي ترفض أن تسمع شيئاً... تصوروا! هل يمكن أن نتركها تفعل هذا!

كان يمكن أن يستمر ليبزياتنيكوف في الكلام، ولكن صونيا التي أصغت إليه وهي تتنفس بمشقة كبيرة تناولت خمارها وقبعتها فجأة، واندفعت إلى خارج الغرفة تنهي ارتداء ثيابها في الطريق. وخرج راسكولنيكوف وراءها، وخرج ليبزياتنيكوف وراء راسكولنيكوف.

قال ليبزياتنيكوف لراسكولنيكوف عندما أصبحا في الشارع:

- لا شك في أنها فقدت عقلها. لم أشأ أن أروّع صونيا سيميونوفنا، لذلك قلت: «ذلك ما يبدو»، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أي شك في أنها فقدت عقلها. يقال إن هناك درنات تنشأ في أدمغة

المصابين بمرض السل، فتورثهم هذا الجنون! خسارة أنني لا أعرف الطب. على أنني حاولت إقناعها، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً!

- كلمتها عن الدرنات؟

- لا عن الدرنات تماماً، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها. لكنني أقول إننا إذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعي إلى البكاء، فإن هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً. هذا واضح. ماذا؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

- ما أسهل الحياة إذا صدق قولك!

- اسمح لي، اسمح لي! صحيح أن كاترينا ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا. ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن إمكان شفاء المجانين بواسطة الإقناع المنطقي وحده؟ إن أستاذاً من الأساتذة هناك، وقد مات منذ مدة قصيرة، وهو عالم من أكبر العلماء[51]، قد رأى أن في الإمكان شفاء المجانين بهذه الطريقة. والفكرة الأساسية التي جاء بها هي أن المجانين ليس فيهم أيّ آفة عضوية، فإنما الجنون ضلال منطقي إن صح التعبير، أي خطأ في الحكم أو فساد في الرأي. لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج، فإذا هو ينجح في شفائه شيئاً بعد شيء، ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن نتائج المعالجة يمكن أن تكون موضع أخذ ورد، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات «دوش»، أو ذلك ما يبدو على الأقل. . .

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الإصغاء منذ مدة. فلما وصل أمام المنزل الذي فيه بيته، ودّع ليبزياتنيكوف بإشارة من رأسه، وانعطف يدخل بوابة المنزل. فتحيَّر ليبزياتنيكوف، ونظر حواليه، ثم تابع طريقه.

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير، وهناك وقف يتساءل: «لماذا

جئت؟» وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذي يغطي الجدران، وعلى الغبار الذي يغشي كل مكان، وعلى سريره. وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل، كأن أحداً كان يغرس مسامير.

مضى راسكولنيكوف إلى النافذة، وارتفع على رؤوس أصابع قدميه، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة. ولكن الفناء كان خالياً مقفراً، وليس يرى المرء أحداً يغرس المسامير. وعلى اليسار، في جناح آخر، كان ثمة نوافذ مفتوحة، تُرى على أفاريزها أصص أزهار، ويُرى من خلالها غسيل منشور في الداخل على حبال. . . لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب. فأشاح عنه، وعاد يجلس على سريره.

إنه لم يشعر في يوم من الأيام، في أيّ يوم من الأيام، بأنه وحيد إلى هذا الحد من الوحدة. نعم، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا، لا لشيء إلا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء. تساءل: «لماذا ذهبت أستجديها صدقةً من دموعها؟ ما كانت حاجتي إلى تسميم حياتها؟ يا للدناءة! يا للحقارة!»

وقال فجأة بلهجة جازمة: «سأبقى وحيداً. ولن تأتي لتراني في السجن!»

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه، وابتسم ابتسامة غريبة. لقد وافته فكرة لم تكن في الحسبان، قال يسأل نفسه: «أليس من الجائز أن تكون حالي في السّجن أفضل حقاً؟»

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضاها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والخواطر الغامضة. ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأةً، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا. توقفت في أول الأمر وتأملته واقفة في العتبة، كما تأمل هو صونيا منذ قليل. ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس

نفسه؛ ونظر إليها صامتاً بنظرة ليست فيها أية فكرة.

قالت دونيا:

- لا تزعل يا أخي، أنا ما جئت إلا لدقيقة!

كان في وجهها وقار ورصانة، ولكن بغير تجهم أو قسوة. وكانت نظرتها رائقة، صافية، وادعة هادئة. فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت إليه هي أيضاً بحب.

وتابعت الأخت كلامها فقالت:

- روديا، أنا أعلم الآن كل شيء، كل شيء! لقد روى لي دمتري بروكوفتش كل شيء، وشرح لي كل شيء! إنهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة. لقد قال لي دمتري بروكوفتش إنك غير معرَّض لأي خطر، وقال إنك تخطئ إذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة. ولست أشاطره رأيه، فأنا أفهم حق الفهم أن يثير هذا تمردك، وأن يخلِّف هذا التمرد آثاراً في حياتك كلها. وذلك ما أخشاه حقاً. ولست أحكم على أنك تركتنا، ولا أجرؤ أن أحكم، فأرجوك أن تغفر لي ما وجهته إليك من لوم. أنا أشعر بأنني لو أصابني حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم أنت. لن أقصَّ هذا الأمر على أمنا، لكنني لن أنفك أحدثها عنك، وسأقول لها على لسانك إنك لن تتأخر في العودة إلينا. لا تقلق عليها، سوف أتولى أنا تهدئتها وطمأنتها. ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها: زرها ولو مرةً واحدة، تذكر أنها أمك. ولقد جئت الآن لأقول لك (هنا نهضت دونيا): إذا احتجت إليَّ في أي أمر من الأمور، أو إذا احتجت إلى حياتي... كلها... نادني فآتي! أستودعك الله!

قالت دونيا ذلك، ثم استدارت واتجهت نحو الباب.

أوقفها راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها:

- دونيا! إن رازوميخين هذا، إن دمتري بروكوفتش رازوميخين شاب ممتاز!

احمرّ وجه دونيا قليلاً، وسألته بعد دقيقة:

- وبعد؟

- وبعد، هو فتى نشيط مجتهد شريف، قادر على أن يحب حباً جماً، حباً صادقاً. . . أستودعك الله يا دونيا!

احمرّ وجه دونيا احمراراً شديداً، ثم قالت وقد تنبهت إلى الخطر فجأة:

- ولكن لماذا توصي به هذا التوصيات كلها؟ أترانا نفترق إلى الأبد؟

- لا قيمة لهذا. . . أستودعك الله!. .

قال ذلك، وابتعد عنها، ومضى إلى النافذة. فانتظرت لحظة، ونظرت إليه قلقةً، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌّ وخوف.

لا، إنه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة، حتى إنه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها كل شيء، مودِّعاً إياها، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدَّ إليها يده، وأضاف يحدث نفسه قائلاً: «في المستقبل، قد ترتعش حين تتذكر أنني احتضنتها بذراعي، وقد تقول لنفسها إنني سرقت منها قبلتها» وأضاف يتساءل بعد لحظات: «ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف؟ لا، لن تستطيع أن تحتمله. هي من أولئك اللواتي لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء».

وفكَّر في صونيا.

وكان هواء طري يهب من النافذة. وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه. فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج.

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية، لا ولا يريد أن يعبأ بها. ولكن جميع تلك الإنذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية، كان لا بد أن يكون لها آثار. ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن، فلعل مردَّ

ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً.

لبث يضرب في الأرض على غير هدى. أخذت الشمس تغرب. إنه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً. لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة، وإنما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدي، نوع من تنبؤ بجميع السنين التي سوف يقضيها في غم بارد كالصقيع، غم قاتل هو شيء كالأبدية على مساحة من الأرض ليَست أكبر من «موطئ قدم». كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الإحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة.

دمدم يقول متذمراً: «هيَّا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات إن استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة المرتبطة بغروب الشمس! إن في الإمكان أن تقودك هذه الحالة لا إلى الاعتراف لصونيا فقط، بل الاعتراف لدونيا أيضاً»!

وسمع أحداً يناديه، فالتفت، فإذا ليبزياتنيكوف يهرع إليه.

قال ليبزياتنكوف:

لقد كنت أبحث عنك! تخيَّل أنها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادة أولادها! ولقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم! إنها تنقر على مقلاة، وتجبر الأولاد أن يغنوا ويرقصوا. والأولاد يبكون. إنهم يتوقفون عند مفارق الطرق وأمام الدكاكين، ووراءهم يجري جمهور كبير غبي. تعال!

سأل راسكولنيكوف قلقاً وهو يجري وراءه:

- وصونيا؟

- فقدت عقلها. لا أقصد أن صونيا سيميونوفنا هي التي فقدت عقلها بل كاترينا ايفانوفنا. وصونيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال. ولكن كاترينا ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً. نعم، لقد جُنَّت جنوناً كاملاً نهائياً.

ستُقاد مع الأولاد إلى الشرطة. هاأنت ذا ترى الأثر الذي سوف يحدثه هذا. هم الآن على رصيف النهر، قرب جسر س. . .، غير بعيد عن مسكن صونيا سيميونوفنا، على مسافة خطوتين من هنا.

على الرصيف، غير بعيد عن الجسر، قبل منزل صونيا بعمارتين، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويثبون. . .

إن صوت كاترينا ايفانوفنا الأبحَّ يُسمع حتى من الجسر. مشهد غريب فعلاً، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذي يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء!

كانت كاترينا ايفانوفنا ترتدي ثوبها المهترئ وشالها المصنوع من الجوخ الخفيف، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت. وكانت في حالة جنون مطلق حقاً، وتلهث منهوكة مهدودة القوى. وكان وجهها، الشاحب الهزيل من مرض السل، يعبِّر عن ألم أقوى من الألم الذي يعبِّر عنه هذا الوجه عادةً (إن المصدورين يبدون في ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى في منازلهم). وكان اهتياجها لا يهدأ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة. فهي تندفع نحو أولادها، فتصرخ فيهم وتقرّعهم وتعلِّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك، حتى إذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم؛ ثم هي تهرع إلى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه. فإذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدي ثياباً لائقة بعض الشيء، أسرعت تشرح له الحالة التي آل إليها «أولاد أسرة نبيلة، بل أسرة أرستقراطية». وإذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم. وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رؤوسهم، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من

الاستطلاع والفضول إلى المرأة المجنونة وأولادها المروَّعين. والمقلاة التي تكلم عنها ليبزياتنيكوف لم تكن موجودة، أو أن راسكولنيكوف لم يرها على الأقل، لكن كاترينا ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين، مجبرةً كوليا ولينيا على الرقص بينما تغني بوليا. وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغني هي أيضاً، ولكن نوبة رهيبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها، فتحزن عندئذ حزناً شديداً، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه، حتى لتبكي حسرة ولوعة. والشيء الذي كان يثير حنقها خاصةً إنما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما. وكانت كاترينا ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنِّي الشوارع. فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطة مع قطعة قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الأتراك. وأما لينيا فإن كاترينا ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغنِّي الشوارع، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوةً منسوجة بالإبرة من قماش أحمر (بل قل طاقية المرحوم سيميون زاخارتش نفسها)، وغرست في القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها في الماضي جدة كاترينا ايفانوفنا، وكانت كاترينا ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوق كأثر من تراث الأسرة. وأما بوليا فهي ترتدي ثوبها الذي كانت ترتديه كل يوم، وتدرك أن أمها قد جنَّت فتنظر إليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن، ولا تبتعد عنها شبراً واحداً، مخفيةً دموعها، ملقيةً على ما حولها نظرات قلقة. كان الشارع والجمهور يبثان في نفسها رعباً هائلاً.

كانت صونيا تسير وراء كاترينا ايفانوفنا باكية، وما تنفك تضرع إليها في كل دقيقة أن ترجع إلى البيت. ولكن كاترينا ايفانوفنا لا تنثني عن عزمها، ولا تلين قناتها، فهي تقول لصونيا صارخةً بصوت متعجل وهي تسعل وتلهث:

- اتركيني يا صونيا، اتركيني! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطلبين مني!

أنت طفلة، أنت طفلة! قلت لك إنني لن أرجع إلى تلك الألمانية السكِّيرة! ألا فليعلم جميع الناس وبطرسبرج كلها كيف صار إلى استجداء الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف، حتى ليمكن أن يقال إنه مات أثناء أداء واجب وظيفته (لقد أفلحت كاترينا ايفانوفنا في أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به إيماناً أعمى)! ألا فليرَ ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا، ألا فليرَه! أنت حمقاء يا صونيا! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل؟ لقد استغللناك واستثمرناك بما فيه الكفاية! لا أريد هذا بعد الآن! . . روديون رومانوفتش؟ أهذا أنت؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف، فهرعت إليه) أرجوك أن تُفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن نفعل شيئاً غير هذا! إن العازفين على أرغن يدوي يتوصلون إلى جني رزقهم، ونحن سوف يتعرفنا جميع الناس، وسوف يرى جميع الناس أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه، لترينَّ هذا! سنذهب كل يوم إلى تحت نوافذه، حتى إذا مرَّ القيصر جثوت عند قدميه، ودفعت هؤلاء إلى أمام ليراهم، وهتفت أقول له: «إحمهم يا أبانا!». إنه أبو اليتامى، إنه رحيم. . . سوف يحميهم، لترينَّ أنه سوف يحميهم! أما ذلك الجنرال التافه فسوف. . . لينيا-tenez ! vous droite[52] ! وأنت يا كوليا! ارقص من جديد! ما لك تبكي! إنه ما يزال يبكي! عجيب! ممَّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير؟ ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم! ما عساني صانعةً بأولاد كهؤلاء الأولاد؟

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكي هي نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتدفق الذي لا ينضب) وهي تريه الأولاد الذين كانوا يبكون.

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع إلى البيت، وقدَّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبَّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها إنها

لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تجوّل العازفين على أرغن يدوي على حين أنها تتوق إلى إنشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة:

- مدرسة داخلية! هأ هأ هأ!.. اسمعوا هذا الكلام!..

وأعقبت ضحكتها نوبة سعال. ثم تابعة كلامها فقالت:

- لا يا روديون رومانوفتش! هذا الحلم قد تبدّد! لقد هجَرَنا جميع الناس! وهذا الجنرال التافه... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أنني رميته بمحبرة على وجهه، هي المحبرة التي كانت توجد في حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجِّل فيها الزوار أسماءهم؟ لقد سجلت اسمي أنا أيضاً، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربةً! آه! يا للجبناء! يا للحقراء! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم... فسوف أجني لهم رزقهم بنفسي، سوف أجني للأولاد رزقهم بنفسي. لن أطأطئ رأسي لأحد! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترينا ايفانوفنا تقصد صونيا). يا بوليتشكا، كم جمعنا إلى الآن؟ أريني! كيف؟ ألم نجمع إلا كوبكين فقط؟ آه... يا للأوغاد! إنهم لا يعطوننا شيئاً! إنهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادّين لنا ألسنتهم استهزاءً! انظر إلى هذا المعتوه مثلاً: ممَّ تراه يضحك؟ (وأومأت إلى واحد في الجمهور) ذلك كله بسبب كوليا! فلأن كوليا غبي هذا الغباء كله إنما يسخر منا الناس جميعاً! مالك يا بوليتشكا؟ Parlez-moi francais![53] عجيب! ألم أعلِّمك الفرنسية؟.. إنك تعرفين بضع جمل.. أنَّى لهم أن يعرفوا أنكم تنتمون إلى أسرة نبيلة وأنكم قد نُشئتم تنشئة طيبة فلَسْتم من أمثال العازفين في الشوارع، أنى لهم أن أن يعرفوا ذلك إذا لم تكلميني باللغة الفرنسية يا بوليتشكا؟ نحن لا نمثِّل «بيتروشكا»[54] المبتذل وإنما نحن نغني أغنيات راقية! ها... نعم... ما الذي سوف نغنيه الآن؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا، ونحن... اسمع يا روديون رومانوفتش، لقد

توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذي سنغنيه: يجب أن نغني شيئاً يكون في وسع كوليا أن يرافقه برقصة، ذلك أننا، كما تستطيع أن تقدِّر، قد أخذنا على غير تهيؤ أو استعداد. ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور. وبعد ذلك سوف نذهب إلى شارع نيفسكي، حيث يكثر الناس الذين ينتمون إلى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا. إن لينيا لا تعرف إلا أغنية «القرية الصغيرة»، لا تعرف إلا «القرية الصغيرة» وحدها! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى. فماذا يا بوليا؟ هل عندك فكرة؟ ليتك تستطيعين، أنت على الأقل، أن تساعدي أمك! آه من الذاكرة! إن الذاكرة هي التي تخونني، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها، لولا ذلك لتذكرت! لن نغني مع ذلك أغنية «الفارس المتكئ على سيفه»[55]! الأوْلى أن نغني بالفرنسية أغنية «خمسة قروش»[56]. لقد علمتكم إياها، تلك الأغنية! ثم إن الناس سرعان ما يدركون، لأننا سوف نغني بالفرنسية، إنكم أولاد أسرة كريمة الأصل، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر! حتى أن في وسعنا أن نغني أغنية «Malborough s'en va-t-en guerre»[57] لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم، نعم للأطفال وحدهم، تُستعمل في جميع البيوت الأرستقراطية لهدهدة الأطفال. قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك وأخذت تغني:

مالبورو مسافرٌ للحرب

لا يدري متى يعود...[58]

ثم استدركت تقول: بل الأفضل أن نغني «خمسة قروش» يا كوليا، ضع يديك على خصريك! أسرع! وأنت يا لينيا، استديري في اتجاه معاكس! وسوف أرافقكما أنا وبوليا بصفق الأيدي:

خمسة قروش، خمسة قروش...

لإنشاء أسرتنا[59]. . .

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً: كح كح كح!. . وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال:

- اعدلي ثوبك يا بوليتشكا! إنه ينزلق عن كتفيك! علينا الآن أن نحافظ على أحسن مظهر، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة نبيلة!. . آه. . . ما أكثر ما قلت إن صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون أطول. . . ولكن نصائحك أنت يا صونيا هي التي أفسدت كل شيء: «قصّروا! قصّروا!» فانظري الآن ماذا كانت النتيجة: لقد تشوهت هذه الطفلة! ماذا؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء؟ ما بالكم تعودون إلى البكاء أيها الأغبياء؟ هيّا يا كوليا! غنِّ! بسرعة أكبر! أكبر! أكبر! أوه! يا لك من ولد لا يطاق

خمسة قروش، خمسة قروش...

- ماذا؟ أجنديٌ أيضاً؟ ماذا تريد أيها الجندي؟

كان شرطي من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور بالفعل! ولكن سيداً يرتدي بزة رسمية ومعطف، هو موظفٍ كبير في نحو الخمسين من عمره، وقور المظهر مهيب الطلعة، يحمل عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الأمر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترينا ايفانوفنا كثيراً وأحدث في شرطي المدينة تأثيراً كبيراً)، قد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترينا ايفانوفنا ماداً إليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات. وكان وجهه يعبِّر عن شفقة صادقة. فتناولت كاترينا ايفانوفنا الورقة، وانحنت أمام الرجل بشيء من الأدب، بل وبشيء من الاحتفال. وبدأت تتكلم فقالت متعالية:

- أشكرك يا سيدي. إن الأسباب التي أهابت بنا إلى. . . خذي المال يا بوليتشكا. هاأنت ذي ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر. . . إن أمامك يا سيدي

يتامى نبلاء، بل يتامى يمكن أن تقول إن لهم قربى بأعلى الأسر الارستقراطية. ولكن ذلك الجنرال التافه الذي كان بسبيل التهام دراريج... آه... لقد ضرب الأرض بقدمه لأنني أزعجته! قلت له: «يا صاحب السعادة، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش، أنت يا من عرفته حق معرفته، فإن إنساناً حقيراً من الحقراء قد افترى على بنته في يوم موته نفسه». أما يزال هذا الجندي هنا؟ كن حامياً لنا يا سيدي (كذلك صاحت كاترينا ايفانوفنا مخاطبةً الموظف الذي أعطاها الروبلات الثلاثة). لماذا يلاحقني هذا الجندي؟ ما باله يطاردني دائماً؟ لقد سبق أن هربنا من جندي غيره في شارع ميشانسكايا... ماذا تريد أيها الغبي؟

- لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا في الشوارع! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة!

- أنت الذي لا تلتزم حدود اللياقة! أنا أفعل ما يفعله العازفون على الأرغن اليدوي! فما شأنك أنت؟

- من أجل العزف على الأرغن، لا بد من ترخيص... أما أنت فإنك لم تحصلي على ترخيص... أنت تزعجين الناس! أين تسكنين؟

أعولت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- ماذا؟ ترخيص؟ لقد دفنت زوجي في هذا اليوم نفسه! أي ترخيص تريد؟

تدخل الموظف فقال:

- سيدتي، سيدتي، هدئي نفسك. تعالي. سأوصلك إلى بيتك! ليس هذا لائقاً هنا، أمام الناس! أنت مريضة!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- يا سيد، يا سيد، أنت لا تعرف شيئاً! سوف نذهب إلى شارع نيفسكي! صونيا، يا صونيا! ولكن أين ذهبت صونيا؟ إنها تبكي هي أيضاً! ولكن ماذا دهاكم جميعاً؟

وصرخت فجأة تسأل:

- كوليا، لينيا، إلى أين تذهبان؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟

كان كوليا ولينيا، وقد رأيا الجندي الذي يريد أن يقبض عليهما وأن يقتادهما إلى مكان ما، وروعتهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس وهذه الحالات الجنونية في أمهما، كانا قد تماسكت يداهما وأخذا يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ. فلما رأتهما المسكينة كاترينا ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تئن وتنشج، واندفعت تطاردهما. إنه منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها منقطعة أنفاسها. وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما.

- ارجعيهما يا صونيا، ارجعيهما! آه!.. يا للأولاد الأغبياء! يا للأولاد العاقّين!.. يا بوليا! أدركيهما! اقبضي عليهما! من أجلكم إنما أنا...

وترنحت كاترينا ايفانوفنا في ركضها وسقطت.

صاحت صونيا قائلةً وهي تميل عليها:

- أنها مغطاة بالدم! رباه!..

هرع الجميع، وتحلقوا حول كاترينا ايفانوفنا. وكان راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف أول المسرعين. وقد أسرع الموظف أيضاً. ووراءه وصل شرطي المدينة قائلاً في تذمر: «أقصة جديدة؟» ثم حرَّك يده بإشارة انزعاج، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من المتاعب.

قال الشرطي وهو يصرف المستطلعين الذي تجمعوا ينظرون:

- انصرفوا! انصرفوا!

قال أحدهم:

- إنها تموت.

وقال آخر:

- لقد فقدت عقلها.

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها إشارة الصليب:

- رأف الله بها. هل أُعيد الأولاد على الأقل؟ ها هم أولاء يرجعون! إن الكبرى هي التي أدركتهم. يا للعفاريت!..

ولكن حين أُنعم النظر في كاترينا ايفانوفنا عُرف أنها لم تُجرح لاصطدامها بحجر كما قدَّرت صونيا، فإن الدم الذي صبغ بالحمرة أرض الشارع إنما تدفق من حلقها.

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليبزياتنيكوف:

- أنا أعرف، أنا أعرف، هذا مرض السل! هكذا ينبجس الدم من فم المريض ثم يخنقه. شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة: إحدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً أو أكثر من دم على حين فجأة. ما العمل؟ سوف تموت...

تضرعت صونيا قائلة:

- هنا! هنا! إلى بيتي! أنا أسكن هنا، هنا، في هذا المنزل، العمارة الثانية... فلتُنقل إلى بيتي، بسرعة، بسرعة!.. استقدموا طبيباً... آه... يا رب!..

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها إلى الحضور واحداً بعد واحد.

ودُبِّرت الأمور بفضل جهود الموظف. حتى لقد ساعد الشرطي نفسه في نقل كاترينا ايفانوفنا. صعدوا بها إلى مسكن صونيا وهي شبه ميتة، واضجعوها على السرير. كان الدم ما يزال ينزف، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب إلى شعورها شيئاً بعد شيء. ولقد دخل إلى الغرفة، عدا راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف، دخل الموظف والشرطي. وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه إلا بضعة فضوليين صاحبوا كاترينا ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً. ووصلت بوليا

ممسكةً كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبكيان. وهُرع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص: كابرناؤموف نفسه، وهو رجل أعرج أعور يضفي عليه شعر رأسه وفوديه المجعَّد تجعُّد شعر الخنزير مظهراً غريباً جداً؛ وامرأته التي يعبِّر وجهها عن ذعر مستمر متصل؛ وعددٌ من أولادهما فغرت أفواههم وجمَّدتهم الدهشة؛ وظهر بين المشاهدين أخيراً سفدريجايلوف. فنظر إليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد في الشارع.

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن. وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكلونيكوف إن مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية. وتعهَّد كابرناؤموف أن يسعى إلى الطبيب لإحضاره.

وتحسنت حالة كاترينا ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك، فالنزيف قد انقطع مؤقتاً، وألقت نظرة موجعة، وإن تكن ثابتة نافذة، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين. وطلبت كاترينا ايفانوفنا أخيراً إنهاضها، فأُجلست على السرير مسنودةً من الجهتين.

دمدمت تقول بصوت ضعيف:

- أين الأولاد؟ هل أرجعتهم يا صونيا؟ آه... يا لهم من بلهاء! لماذا هربتم؟ آه...

وغطى الدم شفتيها من جديد. فأجالت عينيها على ما حولها. وقالت:

- آ... أهكذا تعيشين إذاً يا صونيا! لم يتح لي أن آتي إليك قبل الآن مرة واحدة!

ونظرت إليها بألم.

- قد امتصصنا قواك يا صونيا... بوليا، كوليا ولينيا... تعالوا إليَّ... ها هم جميعاً أمامك، يا صونيا... أما أنا فيكفي... انتهى الأمر!.. ضعوني على الوسادة واتركوني لأموت هادئة...

وضعوها على الوسادة من جديد.

- ماذا؟ كاهن؟ لا أريد!.. هل معكم روبل تضيعونه؟ أنا لا ذنوب لي! لا بد أن يغفر الله لي. إن الله يعلم كم تألمت! فإذا لم يغفر لي، فلا يغفر!

واستولى على كاترينا ايفانوفنا هذيان ما فتئ يزداد اضطراباً، كانت في بعض اللحظات ترتعش، وتنظر حواليها، فتتعرف جميع الأشخاص الذي يحيطون بها، تتعرَّفهم خلال دقيقة واحدة، ثم ما تلبث أن تفقد صحوها وترتدّ إلى هذيانها من جديد. وكان تنفسها أبحَّ أجشَّ، وكان شاقاً أليماً، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج من حلقها.

وهتفت تقول وهي تختنق لدى كل كلمة تنطق بها:

- قلت له: «يا صاحب السعادة...» آه... سحقاً لآماليا لودفيجوفنا هذه!.. لينيا، كوليا، ضعا يديكما على الخصرين، واجعلا رقصكما أسرع، أسرع... انزلقا... انزلقا!.. عليكما بخطوة «البسك»... إقرع كعبيك! كن ولداً رشيقاً!

لك ماس ولآلىء[60]

- ماذا بعد؟ ها... نعم... يجب الغناء كما يلي:

لك أجمل عينين

فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة؟[61]

نعم «ماذا تريدين أكثر»، يا للغبي ما أسخف قوله! ها... نعم... وهذا شعر آخر:

تحت أشعة الشمس الحارة، بوادي داغستان...

- آه... لشد ما أحببت هذه الأغنية! أحببتها حتى العبادة، هذه

الأغنية! هل تعلمين يا بوليتشكا؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيبين! . . ذلك ما يجب أن نغنيه إذا أردنا الغناء! ولكن ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ لقد نسيت! هلاً ذكَّرتموني! ذكِّروني!

كانت كاترينا ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد، وكانت تحاول أن تنهض. وأخذت أخيراً تغني بصوت رهيب أبحَّ مكسَّر، صارخةً مختنقةً عند كل كلمة تنطق بها، وكان وجهها يعبِّر عن رعب ما ينفك يزداد:

تحت أشعة الشمس الحارة! بوادي داغستان!...

وفي صدري رصاصة!..

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزِّق وهي تجهش باكية:

- يا صاحب السعادة، كن حامياً لليتامى. . . تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به سيميون زاخارتش. . . والذي يمكن أن يوصف بأنه أرستقراطي. . .

وانتفضت كاترينا ايفانوفنا فجأة وقد ثاب إليها شعورها وأخذت تتفرس في الحضور مذعورة. لكنها لم تلبث أن تعرَّفت صونيا، فنطقت تقول في رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها:

- صونيا! صونيا! أنت أيضاً هنا يا عزيزتي؟

أُنهضت كاترينا ايفانوفنا من جديد.

صرخت تقول في يأس وكره:

- كفى! آن الأوان! وداعاً! لقد أجهزوا على الحصان القديم! إنه يفطس!

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة.

واستولى عليها الهذيان مرةً ثانية، لكن ذلك لم يدم إلا مدة قصيرة. انقلب وجهها المصفرُّ إلى وراء، وانفتح فمها، وامتدت ساقاها في تشنج، وزفرت زفرة عميقة وماتت.

أسرعت صونيا إلى جثمانها، فطوقتها بذراعيها متألمة، وشدَّت رأسها إلى صدرها الناحل. وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبَّلتهما باكيةً ناشجة. ولم يدرك كوليا ولينيا إدراكاً واضحاً ما الذي حدث، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع، فارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر، وفعر فماهما وأخذا يصرخان. كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرِّجين، فأحدهما على رأسه عمامة، والأخرى على رأسها طاقية تزينها ريشة نعامة.

لا ندري كيف وُجدت «شهادة التقدير» موضوعةً على الوسادة قرب كاترينا ايفانوفنا، غير أن راسكولنيكوف قد رآها على كل حال.

ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة، وأسرع ليبزياتنيكوف يلحق به. قال:

- ماتت!

قال سفدريجايلوف وهو يتقدم نحو راسكلونيكوف:

- روديون رومانوفتش، عندي كلمة أريد أن أقولها لك. أمر مستعجل!

فسرعان ما تنحى له ليبزياتنيكوف عن مكانه مبتعداً، غير أن سفيدريجايلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو إليه وأن يكلمه على انفراد. كان راسكولنيكوف متحيراً. قال سفيدريجايلوف:

- سوف أتولى جميع هذه الأمور، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه. هذا يقتضي مالاً... هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام، فتكون العناية بهم أحسن ما تكون العناية، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل، إلى أن يبلغوا سن الرشد، وذلك حتى يطمئن بال صونيا سيميونوفنا كل الاطمئنان. وسوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيش فيها، لأنها فتاة طيبة،

أليس كذلك؟ فتستطيع أن تقول لآفدوتيا رومانوفنا في أي وجه من الوجوه استعملتُ العشرة آلاف روبل.

سأله راسكولنيكوف:

- لأي هدف من الأهدف تظهر هذا الكرم كله؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة:

- هيه! هيه! يا لك من رجل قليل الثقة سيىء الظن! لقد قلت لك إنني في غير حاجة إلى هذا المال! لماذا ترفض أن تصدِّق أنني لا أتصرف إلا بدافع الأنانية؟ وكيف دار الأمر فإن هذه (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى الركن الذي ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة، لم تكن عجوزاً مرابيةً ما... هيَّا قل لي: «هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته، في حين تموت هي؟... ثم إنه بدون مساعدتي، فإن بوليتشكا مثلاً **ستكون مضطرة أن تسير في هذه الطريق نفسها**»...

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من المكر المرح، دون أن يحوِّل بصره عن راسكولنيكوف.

اصفرَّ راسكولنيكوف وتجمَّد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التي قالها هو نفسه في حديثه مع صونيا. وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية.

ودمدم يسأل بصوت مختنق:

- كيف... عرفت... هذا؟

- أنا أقطن هنا، في الجهة الأخرى من هذا الحاجز، عند السيدة ريسليخ. هنا شقة كابرناؤموف، وهناك شقة السيد ريسليخ، وهي صديقة لي منذ عهد طويل، صديقة من أخلص الصديقات. أنا جار من الجيران. هذا هو الأمر!

- أنت؟!

فضحك سفدريجايلوف واهتزَّ بدنه كله من ضحكته الطويلة، وتابع كلامه فقال:

- أنا، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقني كثيراً. ألم أقل لك إننا سنكون متفاهمين! لقد تنبأت لك بذلك! نعم، لقد تفاهمنا! لسوف ترى أنني رجل موادع مجارٍ مريح! لسوف ترى أنني أمرؤ ما تزال الحياة معي ممكنةً.

الجُزْءُ السَّادِسُ

الفصل الأول

بدأ عندئذ عهد جديد غريب في حياة راسكولنيكوف. لكأن ضباباً قد سقط أمامه فجأة، فحبسه في عزلة ثقيلة كثيفة. حين تذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، بعد زمن، بعد زمن طويل، قدَّر أن صحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً، وأنه استمر على هذه الحال إلى أن نزلت النازلة النهائية، إلا في لحظات قليلة. وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه قد ضلَّ حينذاك في أمور كثيرة، ولا سيما في مواقيت بعض الأحداث وفي مدتها. على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها وأن يوضحها، استعان بشهادة أشخاص آخرين، فعلم بذلك أموراً كثيرة عن نفسه. علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر، أو كان يظن هذا الحادث نتيجة لحادث ثالث لا وجود له في الواقع، وإنما هو من صنع خياله. وكان ينتابه في بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل إلى رعب هائل. ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة، فهو غارق في خدر يشبه عدم الاكتراث الذي يعانيه بعض المحتضرين. ويمكن أن نقول على وجه العموم أنه يكون في مثل تلك الأيام كمن يحاول أن يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأنْ يعي حالته. وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب توضيحاً مباشراً. ولكن ما

كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته إلى نازلة رهيبة لم يمكن تحاشيها.

وكان يقلقه سفدريجايلوف خاصةً، حتى ليمكن القول إن انتباهه كله قد تركز على سفدريجايلوف. فمنذ اليوم الذي نطق فيه سفدريجايلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهيبة التي لا بد أن ترعب راسكولنيكوف، وذلك في غرفة صونيا، لحظة وفاة كاترينا ايفانوفنا، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف. ولكن راسكولنيكوف لم يسارع إلى توضيح الأمور لنفسه، رغم القلق الشديد الذي أخذ يعانيه. كان يتفق له في بعض الأحيان، إذ يجد نفسه فجأة في حي ناءٍ مقفرٍ من أحياء المدينة، جالساً وحده إلى مائدة منعزلة في أعماق حانة حقيرة، غارقاً في أفكاره، لا يكاد يتذكر ما الذي قاد خطاه إلى هذا المكان، كان يتفق له على حين بغتة أن يخطر بباله سفدريجايلوف، فإذا هو تتجلى له حقيقةٌ واضحة صارخة، هي أن عليه أن يجري حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة، وأن يفرغ من هذا الأمر، مرة واحدة. حتى لقد خيِّل إليه ذات يوم، في مكان وراء أسوار المدينة، أنه ينتظر سفدريجايلوف، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء في هذا المكان. وفي يوم آخر، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدري أين، فلم يفهم ما الذي جاء به إلى هنا، ولا عرف كيف وصل إلى هذا الموضع. ثم إنه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي أعقبت وفاة كاترينا ايفانوفنا قد أتيح له أن يلقى سفدريجايلوف مرتين، وذلك كالعادة في غرفة صونيا التي ذهب إليها لا لهدف إلا أن يراها لحظة. وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً، ولكن تجنبا أن يمسَّا النقطة الأساسية، فكأن بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت في هذا الموضوع إلى حين. كان تابوت كاترينا ايفانوفنا عندئذ ما يزال في غرفة صونيا. وكان سفدريجايلوف ينشط في سبيل إتمام الدفن. وكانت صونيا منشغلة هي أيضاً. وفي اللقاء الأخير الذي تمَّ بين الرجلين شرح

سفدريجايلوف لراسكولنيكوف أن المساعي التي شرع في القيام بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت، فبفضل بعض العلاقات، استطاع أن يُدخل الأيتام الثلاثة في مؤسسات مناسبة، وكان للمال الذي أودعه لهم فضل كبير في ذلك، لأن الأولاد الذي يملكون مالاً يسهل قبولهم في هذه المؤسسات أكثر من الأولاد الذين لا يملكون شيئاً. وتكلم سفدريجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك، ووعد بان يزور راسكولنيكوف في بيته قريباً، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصح «فهو في حاجة ملحة إلى أن يكلمه في بعض الأمور...»؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين في حجرة المدخل، فكان سفدريجايلوف يحدِّق إلى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته فجأة بعد فترة من صمت يسأله:

- ولكن مالك يا روديون رومانوفتش؟ يبدو لي أنك لست في حالة طبيعية. صحيح أنك تصغي وتنظر، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم! هيًا ينبغي أن نتحادث معاً بعض الشيء! يؤسفني أنني مشغول إلى هذا الحد!

ثم أضاف يقول فجأة:

- هيه! جميع البشر محتاجون إلى هواء، إلى هواء، إلى هواء قبل كل شيء!

وتنحَّى بغتةً حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلَّم. إنهما آتيان لإقامة صلاة الميت. لقد اتخذ سفدريجايلوف الاستعدادات اللازمة لإقامة صلاة الميت هذه مرتين في اليوم بغير انقطاع.

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن إلى عند صونيا. وكان سفدريجايلوف قد ذهب في حال سبيله.

وقف راسكولنيكوف على العتبة. وابتدأ القداس هادئاً مهيباً حزيناً.

منذ نعومة أظفاره كان شعوره بالموت وإحساسه بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفي. كما أنه منذ مدة طويلة لم يشهد قداس جنازة. وإلى هذا كله يُضاف الآن إحساسٌ بالاضطراب والرعب أشد إيلاماً.

نظر إلى الأولاد. كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت. وكانت بوليتشكا تبكي. ووراءهم كانت صونيا تصلي وتبكي برفق. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنها لم تنظر إليَّ مرة واحدة في هذه الأيام الأخيرة. ولم تخاطبني بكلمة واحدة». كانت الشمس تغمر الغرفة بضياء قوي، ودخان البخور يتصاعد إلى السقف، والكاهن يرتِّل أدعيته. بقي راسكولنيكوف إلى آخر القداس فلما بارك الكاهن ودَّع منصرفاً، ألقى على ما حوله نظرة غريبة. واقترب راسكولنيكوف من صونيا بعد انتهاء القداس. فإذا هي تتناول يديه فجأة وتميل برأسها على كتفه. دُهش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه. بدت له هذه البادرة غريبة. تساءل: كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور، كيف لا تشمئز منه أي اشمئزاز؟ وكيف لا ترتعش يدها أقل ارتعاش! يا للتضيحة! هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل. لم تقل صونيا كلمة واحدة. صافحها راسكولنيكوف وخرج. كان يشعر بإرهاق فظيع يجتاحه. فلو كان يستطيع في تلك اللحظة أن يذهب إلى مكان ما، إلى أي مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة، بعزلة مطلقة، ولو دامت مدى الحياة، إذن لعدَّ نفسه سعيداً. ولكن راسكولنيكوف كان في هذه الآونة الأخيرة، رغم بقائه وحيداً في جميع الأحيان تقريباً، لا يفلح في الوصول إلى الشعور بالوحدة. كان يتفق له أن يخرج من المدينة، وأن يسير في الطريق الكبير. حتى لقد توغَّل ذات مرة في غابة. ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مقلق لا يرعبه فقط، وإنما يضايقه ويزعجه خاصةً. فكان يسرع عندئذ عائداً إلى المدينة فيختلط بالجمهور، ويذهب إلى «سوق المواد المستعملة»

و«سوق العلف»، فيشعر هنالك بشيء من الارتياح.

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غناء، فبقي يصغي إلى الغناء ساعة كاملة، وقال لنفسه إنه مبتهج به، ولكن قلقه عاد يجتاحه آخر الأمر، فإن شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه، وقال لنفسه فجأة: «هأنا ذا جالس أستمع لغناء، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعله؟». على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا، وأن هناك مسألة يجب حلُّها بغير إبطاء، لكنه لا يستطيع أن يعبِّر عن هذه المسألة بكلام، أو أن يترجمها بأقوال. كان كل شيء تتشابك خيوطه: «لا... الصراع أوْلى! بروفيري... أو سفدريجايلوف... لأن أقوم بتحدٍّ آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا... نعم، نعم!» قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً. وخطرت بباله دونيا وأمه، فإذا هو يشعر برعب هائل، لا يدري لماذا! وفي تلك الليلة بالذات استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة كريستوفسكي[62] مرتعداً من الحمّى. فعاد إلى بيته قبل طلوع الشمس. وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات، ولكنه استيقظ متأخراً. كانت الساعة حين استيقظ الثانية والنصف بعد الظهر.

فتذكَّر عندئذ أن دفن كاترينا ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم، فسرَّه أنه لم يشهد الدفن. وجاءته ناستاسيا بغدائه، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة. وكان ذهنه أنضر، وكان يحس أنه أهدأ مما كان في الأيام السابقة، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر.

وفُتح الباب في تلك اللحظة، ودخل رازوميخين.

قال رازوميخين وهو يتناول كرسياً ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف:

– هه! إنه يأكل. ما هو إذن بالمريض!

كان رازوميخين في حالة اهتياج شديد لا يحاول أن يخفيه. كان

يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح، ولكنه لا يتعجل ولا يرفع صوته. لكأنه يبيِّت نيةً لها صفة استثنائية جداً. وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال:

- اسمع! لقد أسأمتموني فاذهبوا جميعاً إلى جهنم! ذلك أنني أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أنني لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يذهبْن بك الخيال إلى أنني سأحاصرك بالأسئلة. فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها!.. ولست أريد قطُّ أن... قد تكشف لي بنفسك عن جميع أسرارك، فإذا أنا لا أصغي إليها. نعم، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضي لشأني! وإنما جئت الآن لهدف واحد هو أن أعرف أولاً بنفسي، معرفةً حاسمة، أأنت مجنون أم لا. ذلك أن هناك أناساً - ليس أمراً هاماً أن نسميهم - مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهَّل لأن تصبح مجنوناً. وإني لأعترف لك بأنني كنت أنا نفسي مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأي، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الخسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه إلا إنسان شاذ أو دنيء أو مجنون. فأنت إذن مجنون.

- هل رأيتهما منذ مدة طويلة؟

- منذ لحظة. وأنت؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم، أليس كذلك؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت؟ هلاً قلت لي، أرجوك! لقد جئت إلى بيتك ثلاث مرات. وأمك مريضة منذ الأمس مرضاً شديداً، قررتْ أن تجيء إليك، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن تمنعها من ذلك، لكنها لم تفلح. قالت: «إذا كان مريضاً، إذا كان قد أصاب عقله اختلال، فمن ذا ينجده إذا لم تنجده أمه؟» عندئذ جئنا إليك معاً، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها. وفي الطريق، فعلنا كل شيء في سبيل أن نهدِّئها. ولكننا دخلنا فلم نجدك! جلستْ هناك، ولبثت جالسةً عشر دقائق، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف إلى جانبها لا ننطق بكلمة

واحدة. بعدئذ نهضت وقالت: «ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنة، وأنه نسي أمه. يترتب على هذا أنه لا يليق بأمه بل عارٌ عليها أن تقف في عتبة بابه تستجدي ملاطفاته استجداء الصدقات». وعادت إلى بيتها، ثم لم تلبث أن اضطرت إلى ملازمة الفراش. وهي الآن تعاني من الحمى، وتقول: «فهمت! إن وقته لا يتّسع لغير حبيبته...» إنها تعتقد أن صونيا سيميونوفنا حبيبتك أو خطيبتك أو خليلتك، لا أدري! فسرعان ما ذهبت إلى بيت صونيا سيميونوفنا، لأنني كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقي. دخلت على صونيا سيميونوفنا، فماذا رأيت؟ تابوتاً وأولاداً يبكون، وصونيا تجرِّب على الأولاد ملابس الحداد. أما أنت فلا وجود لك! عندئذ نظرت، واعتذرت، وخرجت، ومضيت إلى آفدوتيا رومانوفنا أروي لها ما شاهدت! القصة إذن باطلة: لا حبيبة هنالك ولا شيء من ذلك، ولعل كل ما في الأمر أنك مجنون! ولكن هأنا ذا أراك تلتهم لحم بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين! صحيح أن المجانين يأكلون هم أيضاً... ولكن لا... ما أنت بمجنون... رغم أنك لم تقل لي كلمة واحدة! ما أنت بمجنون قط! أنني لمستعد أن أقسم لك على ذلك! إذن... شيطان يأخذكم جميعاً... فلا بد أن في الأمر سراً، لا بد أن في الأمر سراً... وأنا لا أريد أن أصدِّع رأسي بأسراركم! إنني لم أجيء إلا لأزعجك تخفيفاً عن نفسي. وأنا أعلم ماذا بقي عليَّ أن أفعل!

بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض.

سأله راسكولنيكوف:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أأصبح يهمك الآن أن تعرف ما الذي سأفعله؟

- حذار! إنك تريد أن تقبلَ على شرب الخمر!

- كيف... كيف حزرت هذا؟

- لا يحتاج الأمر إلى كبير ذكاء!

بقي رازوميخين صامتاً بعض الوقت، ثم قال فجأة بحماسة:

- لقد كنتَ فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام. لم تكن مجنوناً في يوم من الأيام! نعم، كلامك صحيح. سأقبل على شرب الخمر! أستودعك الله!

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب. فقال له راسكولنيكوف:

- كلمت أختي عنك يا رازوميخين، أمس الأول، فيما أذكر.

فتوقف رازوميخين فجأة، حتى لقد اصفرَّ وجهه قليلاً وهو يسأله:

- عني أنا؟.. ولكن أين عساك رأيتها، أمس الأول؟ يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً.

قال راسكولنيكوف:

- جاءت إلى هنا! وجلستْ في هذا المكان! وتكلمنا!

- هي؟!

- نعم، هي!

- ماذا قلت لها؟ أقصد... ماذا قلت لها عني؟

- قلت لها إنك شاب ممتاز، شريف، مجتهد. لم أذكر لها أنك تحبها، فذلك أمر تعرفه هي.

- تعرفه... هي؟

- طبعاً... وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً، أينما حطَّت رحالي وكيفما كان حالي! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حب، ولأنني مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك. وإني لأعلم أيضاً أنها، من جهتها، يمكن أن تحبك، هذا إذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر! والآن قرِّر: هل عليك أن تقبل على شرب الخمر!

- روديا... اسمع.. طيب... آه... أنت، إلى أين تريد أن

تذهب؟ إذا كان ذلك سراً، فاكتمه إن شئت. ولكنني سأطلع على السر آخر الأمر! آ... إني لعلى يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون سخافةً من السخافات لا تُصدَّق! وأنك قد اخترعت هذا كله! مهما يكن من أمر، فأنت فتى رائع، أنت أروع الفتيان!

قال راسكولنيكوف:

- ولقد أردت أن أقول لك أيضاً - لولا أنك قاطعتني - إنك كنت على حق تماماً حين ذهبت إلى أنه لا داعي إلى محاولة اكتشاف تلك الأسرار. دع هذا الأمر الآن ولا تقلق. سوف تعرف كل شيء في أوانه، حينما سيكون هذا ضرورياً. بالأمس قال لي أحدهم: إن المرء في حاجة إلى هواء، إلى هواء! وأريد الآن أن أذهب إلى ذلك الرجل لأعرف ما الذي كان يعنيه بذلك الكلام!

كان رازوميخين واقفاً يفكر، وقد عاد يستولي عليه القلق. ثم قال يحدِّث نفسه فجأة: «هو متآمر سياسي. لا شك في ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم. نعم، هذا هو الأمر. لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا. ودونيا تعلم ذلك».

وقال وهو يقطِّع كلماته:

- إذن تجيء إليك آفدوتيا رومانوفنا، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذي قال لك إن المرء في حاجة إلى هواء، إلى مزيد من الهواء دائماً... والرسالة... معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر...

بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه وكأنه يكلِّم نفسه.

سأله راسكولنيكوف:

- أيُّ رسالة؟

- لقد تلقت اليوم رسالةً أقلقتها كثيراً، كثيراً جداً. أخذت أتكلم عنك، فرَجتني أن أسكت. ثم... ثم قالت إن من الجائز أن نفترق

قريباً جداً. . . ثم شكرتني بكثير من الحرارة على أنني. . . لا أدري ماذا، وأخيراً مضت إلى غرفتها فحبست نفسها فيها.

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن:

- تلقت رسالة؟

- نعم، رسالة. ألم تكن تعرف ذلك؟

وصمت الشابان كلاهما.

- أستودعك الله يا روديون. أنا يا صاحبي. . . في وقت من الأوقات. . . ثم. . . أستودعك الله! نعم، في وقت من الأوقات. . . دعنا من هذا. . . أستودعك الله! آن لي أنا أيضاً أن. . . لن أشرب. ما الداعي الآن؟

كان متعجلاً، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى فتحه فجأة من جديد، وقال وهو يلقي نظرة متهرّبة إلى جانب:

- بالمناسبة. . . فيما يتعلق بتلك الجريمة. . . أنت تعلم حكاية بورفيري. . . ومقتل المرأة العجوز. . . ألا تتذكر؟. . لقد اكتشفوا القاتل. . . اعترف القاتل وقدَّم جميع الأدلة. تصوّر أنه واحد من أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسي أدافع عنهم. . . هل تتذكر؟ وهناك شيء تفصيلي آخر: إن مشهد المشاجرة مع الرفيق، والقهقهات على السلَّم بينما كان الآخرون يصعدون، ذلك كله إنما ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة! يا للمكر! يا للبديهة الحاضرة والحيلة البارعة! لا يكاد المرء يصدِّق، ولكن الرجل أوضح هو نفسه كل شيء! لقد خدعني في أول الأمر عن نفسي! إنه يملك عبقرية المكر والحيلة، عبقرية التمويه القضائي. على كل حال، هذه أشياء موجودة، فلا داعي إلى الإسراف في الدهشة! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع؟ وأما أنه لم يطق صبراً فاعترف أخيراً، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق. لقد خدعني على كل حال! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم!

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح:

- كيف علمت بذلك؟ ولماذا يهمك هذا الأمر إلى هذا الحد؟

- لماذا يهمني هذا الأمر؟ يا له من سؤال!..

إن بورفيري هو الذي أمدني بهذه المعلومات! ثم إنه هو الذي أطلعني على كل شيء تقريباً.

- بورفيري؟

- نعم، بورفيري.

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً:

- ماذا.. ماذا قال لك؟

- شرح لي الأمر شرحاً رائعاً، شرحاً «سيكولوجياً»، على نهجه في الشرح.

- هو نفسه... شرح لك؟

- نعم.. هو نفسه. أستودعك الله! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به، هناك. جاء وقت تصورت فيه أن... ولكن ما الداعي إلى هذا الكلام؟ سأقول لك فيما بعد!.. ما حاجتي إلى السكر الآن؟ لقد أسكرتني أنت بغير خمر! نعم، أنا سكران يا روديا، سكران من غير أن أشرب خمراً. هيا، استودعك الله. سأعود إليك بعد مدة قصيرة.

قال رازوميخين ذلك وخرج. وفيما كان يهبط السلّم بخطى بطيئة كان يحدث نفسه بقوله: «هو متآمر سياسي، حتماً. حتماً. ولقد أقحم أخته في الأمر. ذلك جائز، بل جائز جداً، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى طبع آفدوتيا رومانوفنا. هما الآن يلتقيان في مواعيد يضربانها! ألم تُفهمني هي نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الغامضة والإشارات والملاحظات. نعم هذا كله يدل على أن تقديري صحيح.

وإلا فكيف نعلِّل هذا التعقيد كله؟ هه. . . وأنا ظننت أن. . . آه. . . يا رب! ما أكثر ما تخيلت أيضاً! نعم، كان ذلك ضلالاً، ولقد أثمت في حقه! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً. لماذا شوَّش فكري، ذلك المساء، في الدهليز، تحت المصباح؟ ها. . . يا لها من فكرة دنيئة، خسيسة، تلك الفكرة التي راودتني! وما أعظم شهامة ذلك الفتى نيقولاي حين اعترف بكل شيء! هكذا يتضح الماضي كله دفعةً واحدةً: مرض روديا، وأطواره الغريبة، وحتى ما سبق هذه الفترة، حين كان روديا ما يزال في الجامعة فكان مظلم النفس، مكتئب المزاج. ولكن ماذا تعني الآن هذه الرسالة؟ لا بد أن وراءها شيئاً! من هو مرسلها؟ أظن أنها. . . هِمْ. . . سأُخرج هذا كله إلى النور!»

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا، فوجف قلبه حين تذكَّر ذلك. وتخلص من جموده، وأخذ يمشي مشياً سريعاً يوشك أن يكون ركضاً.

ما إن خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف، فاقترب من النافذة، ومشى في الغرفة منتقلاً من ركن إلى ركن، كأنما هو قد نسي أبعادها. . . ثم عاد يجلس على السرير. لكأنه قد تبدل تبدلاً تاماً: عاد الصراع. . . ما يزال هناك إذن مخرج. «نعم، هذا مخرج يظهر أخيراً!». حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً، مخنوقاً، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيقولاي عند بورفيري، حتى أن مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه، وقع عند صونيا ولم ينته، لم ينته البتة، كما لعله تخيَّل. ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً، دفعة واحدة. ألم يعترف عندئذ، مع صونيا، من أعماق قلبه، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء؟ . . وسفدريجايلوف؟ إن سفدريجايلوف لغز. إن سفدريجايلوف يقلقه أيضاً، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى تماماً. لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجايلوف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك؟ ولكن بورفيري؟ ذلك شيء آخر! . .

«ها... هكذا إذن... بروفيري نفسه هو الذي شرح لرازوميخين إذن كل شيء! شرح له كل شيء شرحاً «سيكولوجياً». إنه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها!.. ولكن كيف أمكنه، هو بورفيري، أن يصدِّق، ولو دقيقةً واحدةً، أن نيقولاي هو الجاني، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول نيقولاي هذا نفسه، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له إلا تفسير واحد؟» كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بينه وبين بورفيري قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة، ولكنها كانت تعاوده نتفاً صغيرة، فلو رآها كاملةً في جملتها لما استطاع أن يحتملها.

«إن ما قام بيننا من أحاديث، وما جرى من حركات وإشارات، وما تبادلناه من نظرات، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة، قد تمَّ على نحو لا يمكن معه أن يكون نيقولاي (الذي كشف بورفيري عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يردَّه عن اقتناعه. أضف إلى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات... معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً! وها هو ذا يهرع عندئذ إلى منزل بورفيري! ولكن لماذا ضلَّله بورفيري على ذلك النحو؟ ماذا كانت غايته من ذلك؟ ماذا كان هدفه؟ لا شك في أنه كان له هدف، ولكن ماذا كان ذلك الهدف؟ أية مصلحة له في أن يحوِّل شبهات رازوميخين نحو نيقولاي؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة؟ إن زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح، زماناً طويلاً مسرفاً في الطول، لم نعرف خلاله أيَّ أنباء عن بروفيري. إن ذلك لا ينبيء بخير...»

تناول راسكولنيكوف قبعته، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره. هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية، طوال ذلك الوقت.

وقال يحدِّث نفسه: «يجب الانتهاء من سفدريجايلوف، مهما كلف الأمر، وبأقصى سرعة ممكنة. أظن أنه، هو أيضاً، يتوقع أن أذهب إليه

بنفسي». وفي تلك اللحظة، انبجس في قلبه المعذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن في تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين: سفدريجايلوف أو بورفيري. ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك، إن لم يكن فوراً فبعد حين. فكان يردد قائلاً لنفسه: «سوف نرى، سوف نرى».

ولكن ما إن اجتاز الباب المفضي إلى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفيري نفسه. كان بورفيري يهمُّ أن يدخل عليه. دُهش دهشة شديدة، ولكن دهشته لم تدم إلا لحظة قصيرة. أمر غريب: إنه سرعان ما رأى أن مجيء بورفيري إليه أمر طبيعي لا غرابة فيه، فلم تثر فيه رؤيته أي خوف تقريباً. ارتعش في البداية رعشة خفيفة، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه. «لعل هذه هي الخاتمة؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرّة، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه؟ هل يمكن أن يكون قد تنصّت على الباب؟»

صاح بورفيري يقول له ضاحكاً:

- لم تكن تتوقع زيارتي يا روديون رومانوفتش! لقد كنت أنوي أن أجيء إليك منذ مدة طويلة. فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسي: لماذا لا أصعد إليه، فأزوره زيارة قصيرة، مدة خمس دقائق؟ هل كنت خارجاً، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج. إذا سمحت فسأدُخن سيجارة واحدة، لا أكثر...

قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسياً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً:

- تفضّل بالجلوس يا بورفيري بتروفتش!

انمحت مشاعره السابقة دون أن تخلّف وراءها أي ظل. إنه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق، خلال نصف ساعة، حتى إذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة.

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفيري تماماً، ونظر إليه محدقاً، فطرفت عين بروفيري، وأشعل سيجارة.

ودَّ راسكولنيكوف لو تقفز الكلمات من أعماق قلبه: «هيَّا، تكلم، تكلم! ما بالك لا تتكلم؟».

الفصل الثاني

أخيراً بدأ بورفيري كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ من دخانها نفساً، فقال:

- تباً للسجائر، إنها سم، سم حقيقي، ولكنني لا أستطيع تركها. إنني أسعل، وأشعر بحكاك في حلقي، وألهث، وأختنق. وإذ إنني جبان فقد ذهبت منذ أيام أستشير الدكتور ب.. [63] الذي يظل يفحص المريض مدة نصف ساعة minimum. فماذا قال الطبيب؟ سخر مني في أول الأمر ثم أخذ يمعن فيَّ جساً وتسمعاً وتنصتاً، ثم قال: «أنت يؤذيك التدخين. رئتان متوسعتان». كلام جميل! ولكن كيف يمكنني أن أستغني عن التدخين؟ وبماذا أستعيض عنه؟ إنني لا أشرب خمراً، وذلك مصدر البلاء كله. إن مصدر البلاء كله هو أنني لا أشرب خمراً. كل شيء نسبي كما ترى يا روديون رومانوفتش. كل شيء نسبي!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً: «أتراه يريد أن يستأنف شطارته؟» وعادت إلى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجأة، فازدحمت في قلبه العواطف التي كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء.

وتابع بورفيري بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

- ثم إنني قد سبق أن جئت إليك مساء أمس الأول. كيف؟ أكنت لا تعرف ذلك؟ نعم، جئت إلى غرفتك، إلى هنا. فكما حدث لي اليوم،

كنت ماراً أمام المنزل، فقلت لنفسي: «ماذا لو زرته زيارة قصيرة؟» ثم صعدت، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته. ونظرت، وانتظرت برهةً، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي. ألست تغلق بابك بالمفتاح أبداً؟

اكفهر وجه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهرار. وبدا على بورفيري أنه حزر ما يجول في فكره. وتابع كلامه فقال:

- أنا إنما جئت لأبرِّر لك سلوكي يا عزيزي روديون رومانوفتش، لأبرِّر لك سلوكي! نعم، ينبغي لي أن أبرِّر لك سلوكي وأن أعتذر عنه!

وتابع يقول هو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- ذلك واجب يقع على عاتقي، ولا بد لي من الوفاء به.

قال ذلك وهو يضرب ركبة راسكولنيكوف بيده ضربة خفيفة تعبِّر عن الألفة والمودة. ولكنه اتّخذ هيئة الجد والهم في تلك اللحظة نفسها تقريباً، وخالط نظرته شيءٌ من الحزن، وذلك أمر استغربه راسكولنيكوف كثيراً، فإنه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو تصور أن يكون لبورفيري بتروفتش وجه كهذا الوجه.

وتابع بورفيري كلامه:

- لقد وقع بيننا في المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون رومانوفتش! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرة الأولى أيضاً، ولكن في ذلك الوقت... على كل حال، لا ضير!.. المهم أنك تعدني في أغلب الظن آثماً جانياً في حقك. هل تتذكر كيف افترقنا؟ كانت أعصابك ثائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان... وأنا أيضاً كانت أعصابي ثائرة جداً وكانت ساقاي تصطكان. الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على نحو يكاد يوصف بقلة الأدب، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل. ونحن مع ذلك من الناس المهذبين (الجنتلمان)، حتى ليمكن أن أقول إننا من هؤلاء الناس قبل كل شيء، وذلك أمر ما

ينبغي أن ننساه! نذكر المدى الذي بلغته الأمور . . . لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة . . . يجب أن نعترف بهذه الحقيقة .

تساءل راسكولنيكوف مذهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر إلى بورفيري محملقاً: «ماذا يريد مني؟ ماذا يظنني؟»

وتابع بورفيري كلامه فقال وهو يحوّل رأسه ويغض بصره، كأنه لا يريد أن يدخل الاضطراب إلى نفس ضحيته القديمة، وكأنه يكره أن يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة:

- أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد إلى الصراحة. نعم، إن أمثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر. لقد جاء نيقولاي منذ أيام فاتضح كل شيء، ولولا ذلك لمضت الأمور إلى حدود لا أدري مداها! وما قولك في ذلك البائع الحقير اللعين الذي قبع وراء الحاجز يتنصّت؟ هل تتصور ذلك؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي، فأنا أعلم أن الرجل قد جاء بعدئذ إليك أيضاً. غير أن الشبهات والشكوك التي قامت في نفسك كانت خطأ في الواقع. فأنا لم أستدع أحداً، ولا اتخذت أي إجراء بعدُ. تسألني لماذا لم أتخذ أي إجراء؟ فماذا أقول لك؟ إن الأمر كله كان قد قلب عقلي رأساً على عقب. كل ما فعلته هو أنني استدعيت البوابين (لا شك أنك رأيتهم عابراً). إن فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت في ذهني. ذلك أن اقتناعي يا روديون رومانوفتش كان قد تمَّ. وكنت أقول لنفسي: «إذا فاتني أمر فمن الممكن في مقابل ذلك أن أقبض على أمر آخر قبضاً كاملاً. أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاهتياج، بل أنت مفرط في شدة الاهتياج. تلك سمة من سمات خلقك وقلبك، أعتز بأنني (حسب تصوري) أعرفها بعض المعرفة على الأقل. ولقد كنت أدرك طبعاً، حتى في ذلك الوقت، أن المرء لا يرى في كل يوم شخصاً يأتي فيفضي إليه بما في نفسه دفعةً واحدةً. صحيح أن هذا يحدث، ولا سيما حين يكون

ذلك الشخص مرهقاً مهدود القوى، ولكن هذه الحالة نادرة. لا، لم تفتني هذه الحقيقة. لكنني كنت أقول لنفسي: «لسوف يكفيني مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة، صغيرة إلى أبعد حدود الصغر، على شرط أن تكون واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكولوجية! ذلك أنه إذا كان هذا الرجل جانياً فلا شك أن في إمكاننا أن ننتظر منه شيئاً محسوساً ملموساً. فمن حقنا إذاً أن نأمل في الحصول على نتائج هي أبعد ما تكون عن التنبؤ!». كنت أعوّل على طبعك يا روديون رومانوفتش، على طبعك خاصةً. وكنت أعقد على ذلك آمالاً كباراً!

تمتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقي سؤالاً:

- لماذا... لماذا تقول لي هذا الكلام كله الآن؟

ثم تساءل تائهاً في ظنون وتخمينات: «عمَّ يتكلم؟ هل يمكن أن يقع في اعتقاده حقاً أنني بريء؟»

قال بورفيري يجيبه عن سؤاله:

- لماذا أقول لك هذا الكلام؟ أنا إنما جئت لأبرر لك سلوكي، لأقوم بواجب مقدس. سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث، أي كل قصة الخلاف بيننا جملةً. إنك قد قاسيت بسببي أشياء كثيرة يا روديون رومانوفتش. ولكني لست شيطاناً رجيماً، وإني لأدرك حق الإدراك مدى الألم الذي لا بد أن يكون قد أحدثه هذا كله في نفس إنسان مثلك، إنسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء، محب لقوّة الشكيمة، نافد الصبر... نعم... لا سيما نافد الصبر! مهما يكن من أمر، فأنا أعدك أعظم إنسان شرفاً، رغم أنني لا أشاطرك جميع آرائك، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة، دون لف أو دوران، لأنني يهمني كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشّك. إنني ما أن عرفتك حتى شُغفت بك. لعلك ستضحك مما أقوله لك، ومن حقك أن تضحك. أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة ألقيتها عليَّ، فلماذا يجب

عليك أن تحبني؟ مهما يكن من أمر، فإنني أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذي تركته في نفسك، وأن أبرهن لك على أنني، أنا أيضاً، إنسان يفيض وجداناً وعاطفة. أقول لك هذا بصراحة تامة.

توقف بورفيري عن الكلام برهةً في وقار. وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه. فهو حين يتصوَّر أن بورفيري يظنه الآن بريئاً، يحس فجأة برعب.

وتابع بورفيري كلامه قال:

- ربما لم يكن ثمة داعٍ إلى أن أحكي لك كيف بدأ كلّ ما جرى، بالترتيب؛ حتى أنني أعتقد أن هذا غير مفيد، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفلح في ذلك. فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرِّر ظروف المسألة؟ في الأصل سرت شائعات. من أين جاءت تلك الشائعات؟ ماذا كانت تلك الشائعات؟ من أي ناحية كانت تعنيك؟ إنني أعتقد أنه لا داعي أيضاً إلى أن أذكر لك ذلك. أما أنا شخصياً فإن صدفة هي التي نبَّهتني، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث. ما هي تلك الصدفة؟ أظن أن الأفضل، هنا أيضاً، أن ألزم الصمت. إن ذلك كله (أعني تلك الشائعات، وتلك المصادفات) قد ساهمت في تكوين فكرة في رأسي. أعترف لك صراحةً - وعلى الإنسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف، أليس كذلك؟ - أعترف لك صراحةً بأنني كنت أنا أولَ من وضعك موضع الاتهام. إن كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء! بإمكاني إيجاد الكثير من مثل هذه الأمور، فهي لا تُعدّ ولا تُحصى.

وقد أتيح لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشرطة، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات. والشخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن أيَّ شخص، وإنما كان شاهداً

رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً. وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش. فكيف لا تقوم في ذهني فكرة ما، وكيف لا أسير في اتجاه ما؟ يقول مثل إنجليزي: مائة أرنب لا تصنع حصاناً، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً. هذه هي الحكمة بعينها طبعاً! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء! ذلك أن قاضي التحقيق ليس إلا إنساناً! . . وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التي كنت قد نشرتها في مجلة، والتي حدثتني عنها تفصيلاً حين زرتني أول مرة. لقد سخرت منك عندئذ، لكنني فعلت ذلك لأحثك على الإدلاء بمزيد من الاعترافات. أعود فأقول إنك قليل الصبر ومريض جداً، يا روديون رومانوفتش. وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامح الاندفاع كثير الجد. لقد شعرتَ أنت بأشياء كثيرة، نعم شعرت بأشياء كثيرة. . . وكنت أنا أقدِّر ذلك منذ مدة طويلة. إنني أعرف جيداً مثل هذه الإحساسات، فحين قرأت مقالتك خيِّل إليَّ أنني سبق لي أن قرأتها. لا شك عندي في أنك في ليالي أرق وحمى، في ليالٍ كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخر بحماسة كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها، إنما تصورت تلك المقالة، أليس كذلك؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب في نفسه. . . ولئن سخرت من مقالتك عندئذ، فإنني أستطيع أن أقول لك الآن إنني أحببت كثيراً، (حبَّ هواية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التي جرى بها قلم شاب. صحيح أنها كانت ملأى بدخان، بضباب، غير أن وتراً كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان. وصحيح أن مقالتك كانت ملأى بنزوات خيال وتناقضات منطق، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق! صحيح أن فيها شيئاً من كبرياء شابٍ نزيه ونوعاً من صلف لا مسوَغ له، ومن تهوّر يائس مستميت، وصحيح أنها قاتمة، قاتمة جداً، ولكن ذلك كله حسن. . . كنت قد قرأت إذن مقالتك، ثم وضعتها جانباً؛ لكنني حين وضعتها جانباً قلت لنفسي: «إن رجلاً كهذا الرجل لن يكتفي بهذا». فقل لي من

فضلك: كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع إلى تلك النتائج؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن. . .؟. . . أتراني أؤكد شيئاً؟. . إنني لم أزد حينذاك على أن سجّلت ملاحظات. ما الذي كان يضمه ذلك كله؟ لا شيء، لا شيء البتة، ربما لا شيء قطعاً! على أنني لا أستطيع، وأنا قاضي التحقيق، أن أتباهى باندفاعاتي وحماساتي تلك! وهذا نيقولاي على ذراعيّ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله. . . إنها وقائع رغم كل شيء، هي وقائع شئت أم أبيت! وعندئذ كان لا بدّ من العودة إلى السيكولوجيا. ذلك أنني لا بد لي من الاهتمام بالأمر، إن القضية بالنسبة إليه قضية حياة أو موت، أليس كذلك؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله؟ فاعلم إذاً أنني إنما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر، ومن أجل أن تبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني إذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبث وشر. هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبثاً أو شراً، أؤكد لك ذلك. هئ هئ هئ!. . وأنت تقول لنفسك: «لماذا لم يجئ إلى مسكني يفتشه حينذاك؟» فاعلم أنني جئت! هئ هئ!. . جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً. ولم أجئ بصفة رسمية، ولكني جئت. وفُتّش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركانه. حدث هذا منذ أولى الشبهات. . . ولكن «دون جدوى»[64]، عندئذ قلت لنفسي: «الآن، سيجيء هذا الرجل، سيجيء من تلقاء نفسه، وسيجيء في وقت قريب جداً. إذا كان هو الجاني فلا بدّ أن يجيء. لو كان الجاني شخصاً آخر غيره، فإن ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء، أما هو فلا بد أن يجئ إذا كان جانياً». هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر؟ نحن الذين دبَّرنا هذا لنبث في نفسك الاضطراب، ونحن الذين رتَّبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه. ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذي لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم. أما زاميوتوف فإن الشيء الذي أدهشه فجأة إنما هو غضبك

وتهورك الصريح. عجيب أمرك: كيف يستطيع إنسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة: «لقد قتلت»! حقاً إن في ذلك لإسرافاً. هذا تهور غريب! . . وعندئذ قلت لنفسي: «إذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال». نعم، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك. وانتظرت. انتظرتك بكل ما أملك من قوى، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاميوتوف. . . والمصيبة كلها إنما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين. كنت إذاً أنتظرك، فأرسلك الله إليَّ في ذات يوم! لقد جئت! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم! ما كانت حاجتك إلى المجيء؟ وذلك الضحك، ضحكك المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت، هل تتذكره؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر. لقد حزرتُ كل شيء! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أي دلالة. فانظر إلى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً! والسيد رازوميخين، في ذلك اليوم. . . آ. . . والصخرة التي خُبِّئت تحتها الأشياء! يخيَّل إليَّ أنني أرى تلك الصخرة، أراها في مكان ما، في بستان من البساتين. . . أليس عن بستان إنما تحدثت إلى زاميوتوف أولاً، وعندي بعد ذلك؟ وحين أخذنا نحلِّل مقالتك، حين قمت أنت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من آراء، فإن كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج: فوراء كل قول من تلك الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمر. نعم، يا روديون رومانوفتش، بهذه الطريقة إنما وصلتُ إلى تلك النقطة القصوى، ولكنني حين وصلت إلى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسي، كان لا بد أن أثوب إلى رشدي. قلت لنفسي: «إلى أين أنا ذاهب؟» ذلك أننا نستطيع، إذا نحن شئنا، أن نفسِّر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل المخالفة، بل مناقضاً له تمام المناقضة، ولعل التفسير الجديد أن يكون أقرب إلى الاحتمال. نعم، قد يكون أقرب إلى الاحتمال، إنني أعترف بذلك. لشد ما

تعذبت! قلت لنفسي: «لا، لا، إن أية واقعة تفصيلية صغيرة تنفعني أكثر مما تنفعني هذه الاستنتاجات كلها!» لذلك حين سمعت عن تلك القصة، قصة جرس الباب، رأيتني أوشك أن أسقط، وسرت في جسمي رعشة. وأقول في سريرة نفسي: «آ... هاأنذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية المنشودة! هي بذاتها! ولم أحاول عندئذ أن أُعمل عقلي وأن أفكِّر. كنت لا أرغب في ذلك أية رغبة. وكنت مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف روبل في سبيل أن أراك بعينيَّ تسير مائة خطوة، جنباً إلى جنب، مع ذلك البائع الصغير الذي قذف وجهك بذلك اللقب، لقب القاتل، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أي شيء! وتلك الرعدات التي كانت تسري في ظهرك، وذلك الجرس الذي كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك؟ فلماذا تستغرب مني بعد هذا، يا روديون رومانوفتش، أنني لجأت إلى تلك الطريقة التي تعرفها؟ ثم لماذا جئتَ إليَّ في ذلك الأوان نفسه؟ يميناً أن هناك شيئاً كان يدفعك للمجيء إليَّ دفعاً... ولولا أن نيقولاي قد تدخَّل في أمرنا... ف... هل تتذكر وصول نيقولاي؟ هل تتذكره جيداً؟ آه... كان ذلك أشبه برعد مفاجئ! نعم، كأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي. ولكن كيف استقبلت أنا ذلك؟ لم يهزني الرعد... لم تهزني الصاعقة... ولم أصدِّق أقواله، ولا كلمة واحدة! لا بد أنك لاحظت ذلك. وبعد انصرافك، حين أخذ يجيب عن أسئلتي حول عدد من النقاط إجابات محكمة متوافقة تبلغ من الإحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً، لم أشأ أن أصدِّق أقواله حينذاك. انظر إلى مدى تأثير الفكرة التي تقوم في الذهن وتستقر فيه راسخة! قلت لنفسي: «لا، لا، مورغن فري! «إلى صباح الغد!»[65] إن نيقولاي لا شأن له في هذا الأمر كله!».

قال راسكولنيكوف:

- قال لي رازوميخين منذ قليل إن اتهامك ينصب الآن على نيقولاي، وأنك أقنعت رازوميخين بأن...

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه، فإن أنفاسه قد اختنقت. كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغالَب، أثناء إصغائه إلى حديث هذا الرجل الذي ينفذ إلى سريرته بمثل هذا النفاذ العميق وفي نفس الوقت يرفض استنتاجاته رفضاً قاطعاً. وكان يخاف أن يصدِّق ما كان يقوله له هذا الرجل، بل كان يرفض أن يصدقه، ويحاول بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محدَّدة دقيقة.

وكأنما أفرح بورفيري بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت، فصاح يقول:

- السيد رازوميخين! هئ هئ!.. ذلك أن المسألة كانت هي التخلص من رازوميخين: حيثما يتسع المكان لاثنين، يكن الثالث زائداً! رازوميخين شيء آخر، هو غريب عن هذا كله! ثم إنه جاء إليَّ شاحب الوجه شحوباً... ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن، كان الله معه! أما عن نيقولاي فهل يهمك أن تعرف أي نوع من الناس هو، أو كيف أتصوره أنا على الأقل؟ هو قبل كل شيء طفل. إنه لمَّا يبلغ سن الرشد. ولست أدعي أنه خَواف جبان على وجه الدقة، ولكن في وسعي أن أشبهه... بفنان! نعم! ولكن لا تسخرْ مني ومن تصوراتي هذه! هو ساذج. أي شيء يؤثر فيه. له قلب رقيق، وله خيال أيضاً. ولقد تعلم في المدرسة. وهو يحسن الغناء والرقص. ويظهر أنه يجيد رواية الحكايات الشعبية يسعى الناس إليه من بعيد ليسمعوها. وهو يضحك من صميم قلبه في كل مناسبة، ويظل يشرب حتى يسقط كالميت من فرط السكر. ولكنه لا يشرب لأنه ميال إلى السكر، وإنما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغررون به كما يغررون بطفل، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً! لقد سرق منذ مدة، ولكنه لم يدرك أنه سرق. قال في تفسير فعله: «تناولت ما كان ملقى على الأرض، فأنا إذن لم أسرق». هل تعرف أنه من فئة: راسكولنيكي»، بل ومن الطائفيين[66]؟ على كل حال، كان عدد من أفراد أسرته قد انتموا إلى مِلّة

«الجوّالين»[67]؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النسَّاك في الأقاليم مدة سنتين. ذلك كله قد عرفته من نيقولاي نفسه ومن أهل بلدته زارايسك. أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرَّ إلى الصحراء مصراً إصراراً شديداً. لقد كان متحمساً للتقى حماسةً لا تصدَّق، فكان يقضي لياليه مصلياً متهجِّداً، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءاتها... الكتب القديمة... الكتب «الحقيقية!»[68]... ثم أحدثت فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً. أصبح يحب الجنس الضعيف، بل وأصبح يحب الخمرة بعض الحب أيضاً. وإذ إنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به، فسرعان ما نسي شيخه. وأنا أعلم أن فناناً رساماً قد أخذ يهتم به، وكان يزوره ويعطيه دروساً من حين لآخر. ولكن في تلك الآونة، وقع ذلك الحادث المؤسف. استولى الخوف على الفتى في أول الأمر، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب. ما حيلتنا إذا كان الشعب قد كوَّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن قضائنا؟ إن كلمة «المحكمة» وحدها ترهب وتلقي الذعر في النفوس. ذنب مَنْ هذا؟ من يدري هل تستطيع المحاكم الجديدة ردَّ الأمور إلى نصابها؟[69] نعم، أسأل الله أن... على كل حال، فقد وُضع نيقولاي في السجن. ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت إلى خياله هناك، ولا شك أن الكتاب المقدس رجع يفعل فعله في نفسه! هل تعرف يا روديون رومانوفتش مدى ما لفكرة «الألم» من تأثير في بعض الناس؟ إن هناك أناساً يحبون أن يتألموا لا في سبيل شخص من الأشخاص فحسب، وإنما هم يحبون أن يتألموا وكفى، لأن على المرء أن يتألم، وأن يقبل الألم ويرتضيه، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات ما. لقد عرفتُ في الماضي سجيناً موادعاً مسالماً إلى أبعد الحدود، لبث في السجن سنةً بكاملها يتربع فوق المدفأة ليقرأ الكتاب المقدس في كل ليلة من الليالي، حتى بلغ من ذلك أنه في ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزّه أيَّ

استفزاز. ولكن كيف رمى السجين آجرته؟ لقد رماها عمداً بحيث تسقط بعيدة عن هدفها مسافة متر على الأقل، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذي كان يجب أن تتجه إليه. وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن![70] لقد ارتضى الرجل أن «يتحمل الألم»! لذلك أراني أميل إلى الاعتقاد بأن نيقولاي يستهدف شيئاً من هذا النوع! بل إنني من ذلك لعلى يقين. يكفي أن ندقق في الوقائع! ولكن نيقولاي لا يعرف أنني أعرف. ماذا؟ أتراك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد خارقون إلى هذه الدرجة؟ أؤكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد كثيرون. إن تأثير الشيخ في نيقولاي قد عاد يظهر الآن من جديد، لا سيما في اللحظات التي يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه. على كل حال، سيجيء فيقصّ عليَّ كل شيء هو نفسه! هل تظن أنه سيصر على أقواله؟ لترينَّ أنه متراجع عنها! نعم، إنني انتظر، من لحظة إلى أخرى، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى. لقد أخذتني بنيقولاي هذا عاطفة، فعكفت على التعمق في دراسته. هل تتصوَّر، لقد استطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقولية. واضح أنه كان قد فكر في الأمر وحصل، كما يبدو، على المعلومات اللازمة. ولكنه في نقاط أخرى كان يتناقض. إنه لا يعرف شيئاً البتة، بل ولا يدرك أنه لا يعرف!.. لا يا روديون رومانوفتش، ليس نيقولاي هو الجاني! نحن إزاء قضية غامضة عجيبة كالخيال. إن هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذي نعيش فيه، إنها تحمل طابع عسر اضطرب فيه القلب الإنساني، عصر يقول فيه بعضهم، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين، إن الدم «يطهِّر»، عصر لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعي إلى الرخاء. نحن إزاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة، وسمَّمت قلبَه الآراء والنظريات! إن الجاني قد استجمع للقيام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه. لقد نسي أن يغلق

الباب وراءه، ولكنه قتل، قتل شخصين، انقياداً لنظريته. وقد قتل، لكنه لم يعرف كيف يستولي على المال؛ وما استطاع أن يحمله معه، إنما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة. ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التي كان قد عاناها في حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب، وبينما كان الجرس يرنُّ بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو في حالة تشبه الهذيان، فرجع إلى البيت الخالي ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التي سرت بين كتفيه أول مرة... لنسلِّم بأن ذلك نتيجة من نتائج المرض، غير أن هناك شيئاً آخر: لقد قتل، ولكنه يعتقد أنه إنسان شريف، وهو يحتقر الناس، ويصطنع دور ملاك من الملائكة! لا يا روديون رومانوفتش، ليس نيقولاي هو الجاني، لا يا عزيزي، ليس هو نيقولاي أبداً!

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال:

- من... الذي... قتل... إذن؟

فارتدَّ بيوتر بتروفتش إلى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه:

- من قتل؟ سؤال عجيب... الذي قتل هو أنت يا روديون رومانوفتش...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع:

- أنت الذي قتلت!

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً، ولبث واقفاً بضع ثوانٍ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة. وطافت بوجهه حركات تشنجية.

دمدم بورفيري برتوفتش يقول بنوع من العطف:

- ها هي ذي شفتك ترتجف كما ارتجفت في المرة السابقة.

ثم أضاف بعد صمت قصير:

- أحسب أنك لم تفهمني جيداً يا روديون رومانوفتش، وذلك هو السبب في أنك مدهوش إلى هذه الدرجة من الدهشة. أنا إنما جئت إليك لأقول لك كل شيء، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً.

تأتأ راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجرم:

- ما أنا الذي قتل!

فأجابه بورفيري بهمس وبلهجة رصينة فيها اقتناع:

- بل أنت الذي قتلت ولا أحدَ غيرك!

وسكت الاثنان. وأعقب ذلك صمت، صمت غريب طويل، دام عشر دقائق على الأقل. كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة، وأخذ يبعثر شعر بأصابعه. وقد ظل بورفيري بتروفتش جالساً، هادئاً، ينتظر. وفجأة نظر إليه راسكولنيكوف باحتقار وقال؟

- تستأنف أساليبك يا بورفيري بتروفتش؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر؟

أجابه بورفيري:

- أوه! لا داعي الآن للأساليب! لو كان ههنا شهود، لاختلف الأمر طبعاً، ولكننا نتحادث على انفراد في خلوة! أنت نفسك ترى أنني لا أجيء إليك لأنصب لك شباكاً وأصطادك كأرنب! إنه ليستوي عندي الآن أن تعترف وأن لا تعترف! فاقتناعي قائم على كل حال!

سأله راسكولنيكوف غاضباً:

- فلماذا جئت إذا كان الأمر كذلك؟ إنني أطرح عليك هذا السؤال من جديد: إذا كنت ترى أنني أنا الجاني، فلماذا لا تسجنني؟

- هذا سؤال معقول فعلاً، وسوف أجيبك عنه نقطةً نقطة، فأقول أولاً: إنه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن...

– كيف لا يكون هذا في مصلحتك؟ إذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن . . .

– ما قيمة اقتناعي؟ إنه لا يقوم حتى الآن إلا على افتراضاتي. ثم فيم أضعك هنالك فترتاح؟ لو سجنتك لأرحتك. إنك تعرف الجواب ما دمت قد ألقيت السؤال. ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الحقير فقلتَ له: «أتراك ما تزال سكران؟ من ذا الذي رآني معك؟ أنا لم أزد على أن عددتك سكِّيراً لأنك كنت سكران!»، فبماذا يمكنني عندئذ أن أعترض؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب إلى العقل من روايته هو، لأن أقواله لن تكون قائمة إلا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكِّير مدمن حقاً، فما من أحد يجهل ذلك. ومن جهة أخرى، ألم أعترف لك أنا نفسي، مراراً، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأناً وأبلغ خطراً. هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أي دليل وضعي عليك. طبعاً، سآمر باعتقالك؛ ورغم أنني، على خلاف السنن والأصول، جئتُ إليك لأعلن لك ذلك، فإنني على خلاف السنن والأصول أيضاً، أصرِّح لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي. ذلك أولاً، وأما ثانياً، فإنني قد جئت من أجل أن. . .

– من أجل ماذا، ثانياً؟

كان راسكولنيكوف يلهث. فأجابه بورفيري:

– سبق أن قلت لك! لقد جئت إليك من أجل أن أبرر سلوكي وأعتذر عنه! ذلك حق لك عليَّ. لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيماً، لا سيما وأنني أضمر لك عاطفة طيبة صادقة، صدَّقت أم لم تصدق! ينتج عن ذلك – وهذه هي النقطة الثالثة – أنني جئت إليك لأقترح عليك اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة مبيتة: إنني أشجعك على أن تفقأ هذه الدمَّل، فتمضي تعترف بأنك أنت الجاني. ذلك أنفع لك، وأجدى عليك، وهو

أنفع لي أنا أيضاً، لأنه يخلصني من هذا العبء! ما قولك؟ أليس هذا الاقتراح صراحة مني؟

فكَّر راسكولنيكوف دقيقة، ثم قال:

- اسمع يا بورفيري بتروفتش، لقد قلت أنت نفسك إن كل ما تملكه من قرائن ضدِّي لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً، وأنت مع ذلك تتوق إلى دليل رياضي. فما الذي يضمن لك أنك لست على خطأ؟

- لا، يا روديون رومانوفتش، لست على خطأ. أنا أملك الآن دليلاً، دليلاً اهتديت إليه منذ مدة. إن الله هو الذي أرسل إليَّ هذا الدليل.

- أي دليل؟

- لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش. ثم إنني أصبحت لا أملك حق التأجيل، فسوف أعتقلك، ولكن أحكم على الأمر بنفسك: أنا الآن لا يهمني القرار الذي قد تتخذه، ومعنى هذا أنني إنما أكلمك في سبيل مصلحتك وحدها. شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك إلى السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك.

ضحك راسكولنيكوف ساخراً، ثم قال:

- كلامك ليس مضحكاً فحسب، بل هو أحمق أيضاً. هبني أنا الجاني (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضي أشي بنفسي لكم وقد قلت لي أنت نفسك أنك ستسجنني حتماً «للراحة»؟

- يا روديون رومانوفتش، لا تسرف في فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً. من الجائز جداً أن لا تكون هي «الراحة» تماماً! وما هذا إلا نظرية خاصة بي، وهل أنا في نظرك حجة؟.. ولعلني أنا نفسي أخفي عنك في هذه اللحظة شيئاً ما. إنك لا تستطيع أن تطمع في أن تتلقى مني جميع مسارَّاتي وأن تستعملها على هواك! أما النقطة الثانية، أعني الفوائد التي ستجنيها من الاعتراف، فهي واضحة وضوحاً تاماً فيما

أظن. فكِّر في تخفيف العقوبة التي يمكن أن تنالها، فكِّر في هذا التخفيف وحده! في لحظة قد نسب فيها شخص آخر إلى نفسه جريمة القتل، وبلبل القضية كلها... على كل حال، فإن لك عليَّ عهداً أمام الله أنني سوف أعرف كيف ألف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه، حتى يكون مجيئك كأنه مفاجئ مفاجأة تامة. سوف نخرِّب كل ذلك الصرح السيكولوجي، سوف أبدِّد جميع الشبهات التي قامت ضدَّك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية، وهي في الحق كذلك. أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش، وسأحقق وعدي وأفي بعهدي.

خفض راسكولنيكوف رأسه. وبعد صمت طويل، ابتسم من جديد، ولكن ابتسامته كانت في هذه المرة رقيقة أسيانة.

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفي شيئاً أمام بورفيري:

- لست في حاجة إلى تسامحكم!

فهتف بورفيري يقول مندفعاً كأنما على غير علم منه:

- ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه! نعم، أنا إنما كنت أخشى أن لا تكون في حاجة إلى تسامحنا!

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة؛ وتابع بورفيري كلامه فقال:

- لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار! إن الحياة ما تزال طويلة أمامك. كيف لا تحتاج إلى التسامح؟ كيف لا تحتاج إليه؟ ألا إنك لصعب المراس حقاً!

- ما عسى يكون أمامي بعد الآن؟

- أمامك الحياة! أأنت نبي؟ ما أدراك؟ ابحث تجد[71]! لعل الله يجربك بهذا... ولن تكون القيود أبدية!

قال راسكولنيكوف هو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- سوف يخففون عقوبتي!

- لعل خجلاً بورجوازياً هو الذي يمنعك، على غير علم منك، من أن تعترف بأنك أنت الفاعل؛ لأنك شاب غرّ! ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا.

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار وفيها شيء من الاشمئزاز أيضاً، كأنه لا يريد أن يتكلم:

- لست أبالي بهذا كله!

ثم بدا عليه أنه يهمُّ أن ينهض كمن يريد أن يخرج إلى مكان ما، ولكنه عاد يجلس، وهو ينوء تحت عبء يأسٍ كبير لا يستطيع إخفاءه! قال بورفيري:

- لستَ تبالي؟ إنك إنسان كثير الشك والارتياب، فأنت تظن أنني أحاول أن أتملقك تملقاً فظاً؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقة كلها؟ أأنت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة؟ لقد تخيَّل نظرية وهو يستحي أن يراها تخفق وتسقط، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصالة؟ ألا إن ما خرج من نظريتك لهو أقرب إلى السوء فعلاً! ولكنك لست سافلاً ضاع إلى الأبد! أنت لست ذلك السافل، لا! ولكنك على كل حال، لم تُمعن التفكير في الأمر كثيراً، بل تطرفت فمضيت إلى الحد الأقصى على كل حال! هل تعرف ماذا أعدُّك؟ أنا أعدُّك واحداً من أولئك الناس الذين لو كانوا مخوزقين لنظروا إلى جلاَّديهم مبتسمين إذا كانوا قد اهتدوا إلى إيمان أو إله! فاهتد إلى إيمان وإله فتحيا! أنت أولاً في حاجة إلى تبديل الهواء منذ زمن طويل. أن الألم شيء حسن هو أيضاً. فعليك بالألم! تألم! من يدرينا أن نيقولاي ليس على حق إذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويسعى إليه؟ لعَلك لا تصدقني - أنا أعرف ذلك - ولكن لا تحاول أن تسرف في التحليل، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير، ودع

عنك القلق، فإذا بتيار الحياة يضعك على الشاطئ، فتقف على قدميك. لا أدري ما هو الشاطئ الذي سيوصلك إليه التيار، ولكنني مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحياها. أنا أعرف أنك تعدُّ أقوالي هذه خطبةً محفوظة ومكرورة، ولكن لعل هذه الأقوال ستنفعك حين ستتذكرها في المستقبل، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التي تحضني على مخاطبتك. من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل إلا عجوزاً شمطاء شريرة. فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة. لذلك ربما كان عليك أن تحمد ا لله وأن تشكره! وربما كان الله، على كل حال، يدّخرك لشيء ما، من يدريك! فارتفع بقلبك، وارتق بعواطفك، ولا تكن صغيراً جباناً! هل العمل العظيم الذي يجب القيام به هو الذي يخيفك حقاً؟! لا، لا! عارٌ أن تخاف من هذا! لقد خطوت، فحذار أن تتراجع! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل. فافعل ما يوجبه العدل. أنا أعلم أنك لا تصدّقني، ولكن أنا على ثقة أن الحياة هي التي ستنتصر، وأنك سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك. أما الآن فأنت لست في حاجة إلا إلى هواء، إلا إلى هواء!..

سرت في جسم راسكولنيكوف رعدة. وهتف يقول:

- ولكن من أنت، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التي هي أوضاع نبي! من علياء أية ذرى هادئة تلقي إليَّ بهذه المواعظ والحكم والعبر المزعومة؟

- من أنا؟ أنا إنسان محدود، لا أكثر من ذلك. إنسان لعله حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين، ولعله يعرف بعض الأشياء، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود. أما أنت فشأنك شأن آخر: إن الله قد هيأك لحياة حقة (ولكن من يدري؟ لعل ذلك أن لا يكون إلا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفئ) فما خوفك من التغير الذي سيطرأ على حياتك؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء إنسان له قلب كقلبك؟

ماذا؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد؟ إن الأمر ليس مرهوناً بالزمان، بل هو مرهون بك. كن شمساً فيراك جميع الناس. ليس على الشمس إلا أن توجد، إلا أن تكون عين ذاتها! ما الذي يجعلك تبتسم؟ هل الذي يحملك على الابتسام أنك تجدني شاعراً؟ يميناً أنك لتظن أنني أمكر وأراوغ وأنني أريد أن أتملّقك! وربما كنتَ على حق وأنا أتملّق، هئ هئ هئ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامي يا روديون رومانوفتش! ولعلك تحسن صنعاً إذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً كاملاً في يوم من الأيام. إن من عادتي أن لا أكون صادقاً صدقاً تاماً، أعترفُ بهذا! ومع ذلك، إليك ما أريد أن أضيفه: سوف تُريك الأحداث أأنا إنسان شرير أم أنا إنسان مستقيم شريف.

- في نيتك أن تعتقلني متى؟

- أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين. ففكّر يا صديقي، وادع الله. هذا من مصلحتك. أقسم لك على أنه من مصلحتك...

سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامةً غريبة:

- فماذا لو هربت؟

- لن تهرب! قد يهرب فلاح، وقد يهرب واحد من أشياع النظريات الرائجة في هذا الزمان، لأنه أمرؤ يمكن أن يغرسوا فيه عقيدتهم إلى الأبد؛ أما أنت فلا، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك. فعلام عساك تهرب؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الهرب؟ ما أفظع وما آلم الحياة التي يحياها هارب! فالمرء إذا أراد أن يحيا، لا بد له من وضع مستقر، ومركز محدَّد، ولا بد له من هواء يستطيع أن يستنشقه! لتعودنّ ثانية إذا أنت هربت! إنك لا تستطيع أن تستغني عنا. إذا أودعتك في السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً، فلسوف تجيء في ذات يوم فجأة فتعترف. لسوف تندفع إلى هذا على غير علم منك تقريباً. تذكر هذا الكلام الذي أقوله لك. بل إنني لعلى يقين من أنك سوف تعزم أمرك

على التكفير. أنت لا تصدقني الآن. ولكنك سوف تجيء، لأن الألم شيء عظيم يا روديون رومانوفتش. لا يُدهشنك أن تسمعني أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذي أسمنته دعة العيش. إنني أقول الحق فلا تسخر! في الألم فكرة عظيمة! إن نيقولاي على حق. لا، لن تهرب يا روديون رومانوفتش!

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته. ففعل بورفيري بتروفتش الأمر نفسه.

- هل تريد أن تقوم بجولة؟ إن المساء يبشر بليلة جميلة، إذا لم تهب عاصفة... على كل حال ربما كان ذلك أفضل، فإن الهواء سيزداد بهذا طراوة...

قال راسكولنيكوف بلهجة جافّة حازمة:

- لا يذهبن بك الظن إلى أنني أدليت لك اليوم باعترافات. أنت إنسان غريب، وأنا لم أصغ إليك إلا من باب الفضول، لكنني لم أعترف لك بشيء... تذكّر هذا!

- طيب طيب... دعك من هذا الكلام... هذه أمور معروفة... لا، لن أنسى! انظروا كم يرتعش! لا تقلق يا عزيزي. سنلتزم رغبتك. تنزه قليلاً، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود.

قال بورفيري ذلك ثم أضاف خافضاً صوته:

- بالمناسبة: هناك رجاء أخير أود أن أتوجَّه به إليك. هو رجاء حرج بعض الشيء، ولكن لا بأس: إذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف، لأنني لا أصدِّق أنك قد تعمد إلى ذلك المخرج)، أقول إذا اتفق في غضون الساعات الثماني والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو آخر، أقصد على نحو خارق، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذني على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة، لكنها واضحة: سطرين، لا أكثر من سطرين، تقول لنا فيها أين توجد الصخرة. ذلك

أنبل... هيَّا... إلى اللقاء... أسأل الله أن يلهمك الصواب!

قال بورفيري ذلك وانسحب حانياً رأسه، متحاشياً أن ينظر إلى الفتى. فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر، بصبر نافد، اللحظة التي يقدِّر أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً. ثم غادر الغرفة مسرعاً.

الفصل الثالث

ذهب يبحث عن سفدريجايلوف متعجلاً. إنه يجهل هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل. غير أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان. ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد إلى الهدوء سبيلاً، وقد آن له أن يخرج كل شيء إلى الضوء!

وفيما كان يسير، كان يعذِّبه خاصة هذا السؤال: هل ذهب سفدريجايلوف إلى بورفيري؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله: إذا صدق ظني، فإن سفدريجايلوف لم يذهب إلى بورفيري بل إنني لمستعد أن أقطع يدي إذا كان سفدريجايلوف قد ذهب إلى بورفيري. وفكَّر راسكولنيكوف مزيداً من التفكير، واستعرض بخياله زيارة بورفيري من جديد، فانتهى إلى هذه النتيجة: لا، لم يذهب إليه، لم يذهب إليه قطعاً!

ولكن إذا كان سفدريجايلوف لم يذهب إلى بورفيري حتى الآن، فهل سيذهب إليه، أم هو لن يذهب؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجايلوف لن يقوم بهذه الزيارة، في هذه الفترة على الأقل. لماذا؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع معرفة الأسباب التي تحمله على هذا الظن، وهبه استطاع معرفتها، هبه قادراً

على تفسير كل شيء، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها. صحيح أن ذلك كان يعذبه، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه أيسر همومه. شيء غريب، لا يكاد يصدَّق: إن مصيره الراهن، المباشر، كان لا يهمه إلا قليلاً، وكان هو لا يفكر فيه إلا ذاهلاً. أمَّا ما كان يعذبه حقاً فهو شيء آخر، شيء أخطر شأناً، شيء خارق، يخصه هو لا يخص أحداً سواه لكنه شيء آخر ومهم جداً. وكان إلى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له، رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة.

ثم هل يستحق الأمر، بعد كل ما حدث، عناء السعي إلى التغلب على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تلبث أن تظهر في طريقه من جديد؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب سفدريجايلوف إلى بورفيري؟ هل من الضروري أخيراً أن يضيع وقته في دراسة رجل اسمه سفدريجايلوف والمداورة والمخاتلة معه؟

آه... ما كان أشد سأمه وضجره ومَلَله من هذا كله!..

ومع ذلك كان يحث الخطى سعياً إلى سفدريجايلوف. أليس معنى هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً، كان ينتظر منه توجيهات، أو مخرجاً؟ إن الغريق يتشبث أحياناً بقشة! ألم يكن القدر هو الذي يجمع بينهما؟ أم أن غريزةً خفية هي التي تقرِّب أحدهما من الآخر؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون إعياءً وسأماً ويأساً؟ أم لعله كان في حاجة لا إلى سفدريجايلوف، بل إلى شخص آخر؟ أما سفدريجايلوف فقد عثر عليه راسكولنيكوف بمحض الصدفة؟ إلى صونيا؟ ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة إلى صونيا؟ ليستدر دموعها؟ ثم إن صونيا ترعبه: إن صونيا تمثل الحكم المبرِم الذي لا رادَّ له، والقرار الحاسم الذي لا رجعة عنه. لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار: فإما أن يتبع طريقه هو وإما أن يتبع الطريق الذي دلته عليه صونيا. لا، لا، لا، إنه في هذه

اللحظة خاصةً لا يحس أنه قادر على أن يرى صونيا. أفليس الأفضل أن يجرِّب حظه مع سفدريجايلوف؟ ولم لا؟ ثم إنه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف، في قرارة نفسه، أن سفدريجايلوف قد أصبح، منذ مدة طويلة، ضرورةً له، بمعنى من المعاني.

ولكن الأمر غريب حقاً: ماذا يجمع بين الرجلين؟ ماذا فيهما من شبه؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة. ثم إن في ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً إلى أبعد الحدود: لا شك أبداً في أنه فاجر عاهر فاسق، ولا شك أبداً في أنه مراوغ مخاتل ماكر، بل ربما كان كذلك شريراً إلى أبعد حدود الشر!.. صحيح أنه يعتني الآن اعتناء نشيطاً بأولاد كاترينا ايفانوفنا، ولكن من ذا الذي يعرف الأغراض التي يهدف إليها من وراء ذلك؟ إن لهذا الرجل دائماً نياتٍ خفيةً!

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام، رغم أنه حاول أن يطردها من شدة ما كانت تؤلمه. كان يقول لنفسه: «إن سفدريجايلوف لا يبرح يدور حولي، وهو يدور حولي حتى في هذه اللحظة. لقد اكتشف سفدريجايلوف سرِّي. وأنه يبيِّتُ نيات لدونيا. ألا يزال يبيِّت لها هذه النيات؟ إن المرء ليكاد يجيب عن هذا السؤال بكلمة نعم على وجه اليقين. فماذا لو أراد سفدريجايلوف، بعد أن عرف سرِّي وأصبح له سلطان عليَّ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا؟

كانت هذه الفكرة تعذِّبه حتى في نومه، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ في يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه إلى سفدريجايلوف، فتثير فيه غضباً شديداً قاتماً. هي أولاً تغيِّر كل شيء، حتى وضعه هو: إن عليه الآن أن يكشف عن سرِّه لدونيا؛ وربما كان عليه أن يبادر إلى تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأي خطوة ليس فيها تعقل! الرسالة! إن دونيا قد تلقت رسالةً في هذا الصباح نفسه. فمن ذا

الذي يمكن أن يكتب إليها من بطرسبرج؟ (أهو لوجين حقاً؟). صحيح أن رازوميخين يحرسها، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً. فهل يجب عليه أن يفضي بالحقيقة إلى رازوميخين أيضاً؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة.

وقال يحدث نفسه جازماً: «على كل حال، يجب أن أرى سفدريجايلوف بأقصى سرعة ممكنة. الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأناً وأهون خطراً من جوهر القضية. ولكن ماذا لو كان في وسع سفدريجايلوف أن يفعل شيئاً، أن يتآمر على دونيا؟ في هذه الحالة...».

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب في أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات إلى حدّ أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات، والإجابة عن مثل هذه الأسئلة، اللهم إلا بكلمات باردة يائسة كهذه: «في هذه الحالة، سأقتله!»

إن شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره. وقف في وسط الشارع، وأجال بصره في ما حوله. أيَّ طريق سلك؟ أين هو الآن؟ كان في شارع س... على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من «سوق العلف» التي تجاوزها منذ قليل. إن الطابق الأول من مبنى يقع على يساره، هو حانة. جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها. ومن كثرة الوجوه التي تُرى عند النوافذ، يقدِّر المرء أن الحانة ملأى بالناس. وهذه أصوات أغان تصل من القاعة، وأصوات زمارة وكمان وطبل، وصرخات حادة تنطلق من حناجر النساء.

همَّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاء به إلى هذا المكان، ما الذي أوصله إلى شارع س...! ولكنه ما إن همَّ أن يقفل راجعاً حتى لمح سفدريجايلوف عند إحدى نوافذ الحانة، جالساً

إلى مائدة صغيرة وغليونه بين أسنانه. إن الدهشة التي أحسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب. كان سفدريجايلوف يراقبه ويتفحصه صامتاً، وكان يبدو عليه أنه يريد أن ينهض، كأنه يحاول أن يتوارى قبل أن يُرى، وذلك أمر فاجأ راسكولنيكوف أيضاً. وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه، وأخذ ينظر إلى الجهة الأخرى واجماً مفكراً، مع استمراره في النظر إليه، بطرف عينه طبعاً. كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً. الأمر كذلك حقاً: واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يُرى. لقد نزع غليونه من فمه، وحاول أن يختبئ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه، وأنه يرقبه ويرصده. عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذي جرى بينهما عنذ أول لقاء لهما في بيت راسكولنيكوف، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم. هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفتي سفدريجايلوف وما تنفك تتضح.

إن كلاً منهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه. وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكة صاخبة آخر الأمر، ثم يقول له من على نافذته:

- هيَّا ادخل، ادخل إذا شئت! أنا هنا!

صعد راسكولنيكوف إلى الحانة. فوجد سفدريجايلوف في حجرة ضيقة جداً، ذات نافذة واحدة، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة صغيرة، باعةٌ وموظفون وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد. وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا مفتوحة وكأس نصف ملأى. وكان في هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن يدوي، وفتاة سمينة في نحو الثامنة عشرة من عمرها حمراء الخدين ربلة الوجنتين ترتدي تنورة مخططة مشمورة، وتضع على رأسها قبعةً تيرولية (نسبةً إلى جبال التيرول) مزدانةً بأشرطة، ويصدح

صوتها الأبح بأغنية عامة مبتذلة، رغم صخب غناء الجوقة في القاعة المجاورة. وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على الأرغن. . .

قال سفدريجايلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

- هيا. . . كفى! . .

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً، واتخذت وضع الاحترام، وكان وجهها، منذ قليل، حين كانت تغني سخافاتها المسجوعة، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال.

نادى سفدريجايلوف:

- هيه! فيليب! هات كأساً!

فقال راسكولنيكوف:

- لن أشرب خمراً.

- كما تشاء. ولست أنادي فيليب من أجلك أنت. اشربي يا كاتيا. لم أعد في حاجة إليك اليوم. تستطيعين أن تنصرفي.

قال لها ذلك وقد صبَّ لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل. فأفرغت كاتيا الكأس بجرعات صغيرة متتالية دون أن تفصل شفتيها عن الكأس، كما تشرب النساء. ثم تناولت الورقة النقدية، وقبَّلت يد سفدريجايلوف الذي سمح لها أن تقبِّل يده وهو يُظهر أكبر الجد، وخرجت يتبعها الصبي جارّاً أرغنه. كان الصبي والفتاة قد جيء بهما كليهما من الشارع. إن سفدريجايلوف ما كاد يقضي في بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة. إن فيليب خادمَ القاعة هو أيضاً «صديق» حميم، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة. وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح، فإذا كان سفدريجايلوف فيها فكأنه في بيته. ولعله كان يقضي في هذه الحجرة أياماً بكاملها. أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية.

بدأ راسكولنيكوف فقال:

- كنت ذاهباً إليك، كنت أبحث عنك. ولكني لا أدري ما الذي جعلني أدور فجأةً إلى شارع س. . . قادماً من «سوق العلف». إنني لا أمرّ أبداً من هنا. وإنما أنا أنعطف دائماً إلى يمين «السوق». فما إن درت إلى هذه الجهة حتى لمحتك! شيء غريب!

- لماذا لا تقول إنها معجزة؟

- لأن من الجائز أن لا تكون إلا مصادفة!

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

- غريب تفكير هؤلاء الناس! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فإنهم لا يعترفون بذلك! أنت نفسك تقول إن «من الجائز» أن لا تكون إلا مصادفة! آه. . . ما أجبنهم جميعاً ازاء اعتقاداتهم نفسها! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش. . . لست أقصدك أنت. . . فأنت لك آراؤك الشخصية، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية. حتى إنك بهذا نفسه إنما أثرت اهتمامي وأيقظت فضولي.

- بهذا وحده؟

- هو كافٍ جداً.

كان واضحاً أن سفدريجايلوف مهتاج بعض الاهتياج، ولكن اهتياجه لم يكن شديداً جداً: إنه لم يشرب إلا نصف كأس من خمر.

قال راسكولنيكوف:

- يخيَّل إليَّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً.

- آ. . . نعم. . . حينذاك كان الأمر غيرَ هذا تماماً! لكل امرئ طريقته في التصرف. أما عن المعجزة فأقول لك: لا بد أنك كنت نائماً في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة! لقد حدَّدت لك أنا نفسي هذه

الحانة فإذا جئتَ إليها الآن رأساً فليس في الأمر إذاً أية معجزة. لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجدني فيها. ألا تذكر؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً:

- نسيت!

- أصدقُك. ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين. فلا بد أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي، فإذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو آلي أيضاً، دون علم منك. مهما يكن من أمر، فإنني حين كنت أكلمك في ذلك اليوم، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهم عني. إنك لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش. على أنني أعرف أن كثيراً من الناس في بطرسبرج يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم. هذه مدينةٌ سكانها أنصاف مجانين. لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات ثمينة، كل في ميدان اختصاصه. يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثر النفس الإنسانية بمؤثرات غامضة مظلمة حادة غريبة إلى هذا الحد. أيكون مرد هذا إلى مناخها؟ ولكن لما كانت هي المركز الإداري لروسيا كلها فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد. على أن هذا ليس ما يهمني الآن. وإنما أردت أن أقول لك إنني قد سبق أن راقبتك أكثر من مرة. فأنت حين تخرج من بيتك تخرج عالي الرأس فما أن تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك؛ وأنت حينئذ تنظر، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك، ثم تأخذ تحرّك شفتيك وتكلّم نفسك؛ بل يتفق لك أحياناً أن تحرّك يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك؛ ثم إذا أنت تقف فجأة في وسط الشارع وترفع إحدى يديك وتتكلم بصوت عالٍ، ثمّ تلبث وسط الطريق مدة طويلة. هذا غير مستحسن أبداً. فربما كان

هنالك أناس غيري يلاحظونك ويراقبونك، وأنت بهذا تسيء إلى نفسك وتتعرض للخطر. أقول لك ذلك بصراحة. صحيح أن الأمر لا يهمني، وأنني لست من سيشفيك، ولكن لعلك تفهم. . .

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر إليه مستطلعاً:

- أتعرف إنهم يلاحقونني؟

قال سفدريجايلوف مدهوشاً:

- لا، لم أكن أعرف ذلك!

دمدم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه:

- فلا نتحدثن بعد الآن عني!

- طيب! لا نتحدثنْ بعد الآن عنك!

- قل لي: إذا كنت تجيء إلى هنا لتشرب، وإذا كنتَ قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوافيك فيه، فلماذا اختبأت عني منذ قليل حين نظرتُ إليك من الشارع حتى لقد أردتَ أن تنصرف؟ لقد لاحظت ذلك وكان واضحاً كل الوضوح.

- هئ هئ! بل قل لي أنت: لماذا، في ذلك اليوم، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب، ظللت أنت راقداً على سريرك، مغمضاً عينيك، متظاهراً بالنوم، مع أنك لم تكن نائماً البتة؟ لقد لاحظت ذلك وكان واضحاً كل الوضوح!

- لعل هناك أسباباً. . . تدعوني إلى ذلك، وأنت نفسك تعرف هذا.

- ولعل هناك أسباباً تدعوني أنا أيضاً، رغم أنك لن تعرف ما هي تلك الأسباب.

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة، وأسند ذقنه إلى يده اليمنى، وحدَّق إلى سفدريجايلوف، وظل دقيقةً طويلة يتأمل هذا الوجه الذي ما انفك يحيِّره. إنه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً: هو وجه

أبيض، أحمر الخدين، له شفتان قرمزيتان ولحية شقراء وشعر أشقر غزير؛ والعينان زرقاوان جداً، والنظرة ثقيلة مسرفة في الثقل، ثابتة مسرفة في الثبات. إن في هذا الوجه الوسيم الذي ظل شاباً نضراً رغم السنين، شيئاً منفِّراً إلى أبعد الحدود. وكان سفدريجايلوف يرتدي بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض. وكانت إحدى أصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصَّع بحجر ثمين.

قال راسكولنيكوف فجأة يمضي إلى هدفه رأساً وقد نفد صبره:

- هل عليَّ حقاً أن أتحملك أنت أيضاً؟ لعلك أنت أخطر البشر حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول إكراه نفسي. سوف أظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي إلى الحد الذي تتصوره. اعلم أولاً أنني إنما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة أنك إذا كنت ما تزال تضمر لأختي تلك النيات نفسها، وكنت تعوِّل في سبيلها على استخدام السر الذي اكتشفته مؤخراً، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعني في السجن. إني إذا قلت فعلت. هذا وإذا كان هنالك شيء تريد أن تفضي به إليَّ - وأنا أحسّ منذ مدة أنك تريد أن تقول لي شيئاً ما - فأسْرِع إذ قد يفوت الأوان بعد قليل!

سأله سفدريجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً:

- ولكن ما الذي يحملك على هذا الإسراع كله؟

فأجاب راسكولنيكوف نافد الصبر مظلم الوجه:

- كل امرئ له طريقته.

قال سفدريجايلوف مبتسماً:

- أنت نفسك تدعوني إلى الصراحة، ثم إذا بك ترفض أن تجيبني منذ أول سؤال ألقيه عليك. إنك ما تزال تتصور أنني أبيِّت مشاريع، وأضمر نيّات، وهذا هو السبب في أنك تنظر إليَّ نظرة ريبة واشتباه. على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً في مَنْ كانت حالته كحالتك.

ولكن مهما تكن رغبتي في أن أحيا على تفاهم ووفاق معك، فإنني لن أكلف نفسي عناء إزالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك. ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء. ثم إنني لا أنوي البتة أن أتحدث معك في أمور خاصة جداً.

- فلماذا تحتاج إليَّ هذا الاحتياج كله إذا كان الأمر كما تقول؟ ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي. . .

- لا لشيء إلا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته، وتحلو مراقبته. لقد فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب. هذا كل شيء! ثم إنك أخو إنسانة اهتممت بها كثيراً؛ وطالما حدثتني عنك تلك الإنسانة مراراً وتكراراً، فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً، فهل هذا قليل؟ هئ هئ هئ! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدو لي معقداً تعقيداً شديداً، فيصعب عليَّ أن أجيب عنه. إليك هذا المثال: ألم تأت أنت إلى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم في أعمال؟ أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا صحيحاً؟

كذلك ألحَّ سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة. ثم تابع كلامه:

- ألا فاعلم إذاً أنني، أنا أيضاً، منذ كنت في القطار الذي أقلني إلى بطرسبرج، كنت أعوِّل عليك أنت نفسك، وآمل أن تقول لي شيئاً جديداً. . . الخلاصة: كنت آمل أن أقترض منك شيئاً. نعم! انظر إلى أي حد نحن أثرياء!

- أن تقترض مني ماذا؟

- ماذا أقول لك؟ ألنا أعلم؟ إنك لترى في أية حانة حقيرة موبوءة أقضي وقتي. إنني أجد في هذا لذة. لذة؟ لا. . . هذه مبالغة. ولكن لا بد للمرء من أن يقضي وقته في مكان ما. . . حتى تلك المسكينة كاتيا. . . هل رأيتها؟ ويا ليتني كنت على الأقل رجلاً شديد النهم

والشراهة أو رجلاً محباً لأطايب الطعام! ولكن انظر قليلاً. . . هذا كل ما أستطيع أن ألتهمه. . .

قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى ركن المائدة حيث يوجد طبق من معدن فيه بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس. وتابع كلامه يسأل:

- بالمناسبة، هل تغديت؟ أما أنا فأنني ما كدت آكل قطعة حتى اكتفيت. وأنا لا أشرب الخمر أيضاً. لست أشرب إلا شمبانيا، ولست أشرب من الشمبانيا إلا كأساً واحدة تكفيني السهرة كلها، عدا أن هذه الكأس تصدِّع رأسي. ولئن طلبت اليوم شمبانيا، فلكي أنتعش قليلاً لأن عليَّ أن أذهب إلى مكان ما بعد برهة؛ وهذا هو السبب في أنك تجدني على حالة نفسية خاصة جداً. منذ لحظة، اختبأت كتلميذ صغير، لأنني تخيلت أنك سوف تزعجني، ولكن أعتقد أن في وسعي (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة. الساعة الآن هي الرابعة والنصف. هل يمكنك أن تصدِّق؟ يا ليتني كنت شيئاً ما على الأقل. . . ليتني كنت مالك أرض مثلاً أو ربَّ أسرة أو حتى جندياً، أو مصوراً، أو صحفياً، ولكن لا. . . لست شيئاً. . . لست شيئاً البتة. . . ليس لي أي اختصاص! حتى إنني أضجر بعض الأحيان. حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لي شيئاً جديداً.

- ولكن من أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟

- من أنا؟ إنك تعلم من أنا: أنا نبيل، قضيت سنتين في سلاح الفرسان، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج، ثم تزوجت مارفا بتروفنا وعشت في الريف. تلك سيرة حياتي!

- أنت، فيما أظن، مقامر. أليس كذلك؟

- مقامر؟ لا. . . أنا غشاش لا مقامر.

- كيف؟ هل غششت؟

- نعم، فعلت هذا أيضاً.

- فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً، أليس كذلك؟

- حدث هذا. وبعد؟

- كان في إمكانك على الأقل أن تقتتل في مبارزة. . . ذلك أمر يفور له الدم.

- لن أعارضك، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلّي فيه. أعترف لك بأنني إنما جئت إلى هنا من أجل النساء خاصة.

- أبعد دفن مارفا بتروفنا فوراً؟

- نعم. ثم ماذا؟ أي ضير تراه في أن أتكلم عن النساء هكذا؟

بذلك أجاب سفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة صراحةٍ مفحمة.

فقال راسكولنيكوف:

- تسألني أي ضير أراه في أن يعيش المرء حياة دعارة؟

- حياة دعارة! آ. . . ذلك هو ما يحنقك. ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على منهج سليم: سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة. أني أميل اليوم إلى الثرثرة كما ترى. قل لي: لماذا يجب عليَّ أن ألجم اندفاعاتي وأكبت رغباتي؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن؟ إنهن شاغل على الأقل. . .

- فليست آمالك كلها إذاً إلا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق؟

- لنسلّم بأنها الدعارة أو الفسق، ما دمتَ حريصاً على ذلك. إنني أحب الأسئلة المباشرة على كل حال. إن للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يخضع لنزوات الخيال، شيئاً باقياً مستمراً في الدم، كجذوة متوهجة، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب، لا تنطفئ في وقت مبكّر، بل لا تقضي عليها السنون. ثم إن عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل. . .

- ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنئ نفسك به. هذا مرض، بل هو مرض خطر.

- آ. . . هذا ما تريد أن تنتهي إليه! إنني أوافقك على أنه مرض، كسائر الأشياء التي تتجاوز حدود الاعتدال. وحدود الإعتدال يتجاوزها الناس، فبعضهم يتجاوزها بطريقة، وبضعهم يتجاوزها بطريقة أخرى. وينبغي للمرء طبعاً أن يعتدل، رغم أن هذا حساب دنيء. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة؟ ذلك أن الإنسان إذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر. إنني أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً، هذا عدا أن. . .

- هل أنت قادر على أن تنتحر؟

أجاب سفدريجايلوف متأففاً:

- يا له من سؤال!

ثم أضاف يقول متعجلاً، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذاك الذي كان قد اصطنعه إلى ذلك الحين، حتى أن وجهه قد تغير:

- أرجوك لا تكلمني في هذا الموضوع!. . إنني أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر، ولكن ما حيلتي؟ إنني أخاف من الموت، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد. هل تعلم أنني أؤمن قليلاً بالغيبيات؟

- آه. . . هو شبح مارفا بتروفنا! أما يزال يظهر لك إذاً؟

قال سفدريجايلوف:

- لندع هذا الأمر! في بطرسبرج، لم يحدث هذا حتى الآن!

ثم هتف يقول حانقاً:

- على كل حال، شيطان يأخذه. . . لا، لا، فلندع هذا الأمر، ولنتكلم في. . . هِمْ. . . نعم. . . لم يبق لي إلا قليل من الوقت. . . لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً. خسارة! ذلك أن هناك أموراً كثيرة كان يمكنني أن أنقلها إليك.

- أهي أمور تتعلق بامرأة أيضاً؟

- نعم، بامرأة!.. حالة لا يتوقعها المرء أبداً... حالة ليست ما تظن...

- أأنت لا تشعر إذاً بدناءة هذا الجو الذي تعيش فيه؟ أليس يؤثر فيك؟ هل فقدت القوة على... على أن تتوقف؟

- ماذا؟ أأنت تكلمني عن القوة؟ هه... أنك تذهلني دهشةً الآن يا روديون رومانوفتش، رغم أنني كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا! أأنت من يكلمني عن الفسق وعن جمال الفضيلة؟ إنك إنسان شاعر من نوع «شيللر»، إنسان مثالي! صحيح أن هذا كله طبيعي، حتى أن نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة... ولكنه مع ذلك يبعث على الاستغراب... آه... خسارة أنني لا أملك إلا وقتاً قصيراً! ذلك أنك من أكثر الناس إيقاظاً للاهتمام، وإثارة لحب الإطلاع. بالمناسبة: أنت تحب شيللر، أليس كذلك؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً.

قال راسكولنيكوف بشيء من الاشمئزاز:

- يا لك من مدعٍ متفاخر!

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقهاً:

- لا، أقسم لك!.. على أنني لا أنفي أقوالك. صحيح... أنا مدَّع متفاخر!.. لماذا لا أدعي وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذي أحداً؟ لقد قضيت سبع سنين في الريف، عند مارفا بتروفنا. لذلك فأنني ما أن ألتق برجل ذكي مثلك حتى أرتمي عليه. نعم... برجل ذكي، بل برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك. نعم، إنني أسعد أكبر السعادة بالتحدث معك قليلاً، ناهيك عن أن نصف الكأس الذي شربته من الخمرة قد صعد إلى رأسي بعض الشيء، غير أن هناك أمراً كان له كثير من... ولكنني أؤثر أن اسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه. إلى أين أنت ذاهب؟

كذلك قال سفدريجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة مرتاعاً.

كان راسكولنيكوف قد نهض. لقد أزعجه أنه جاء إلى هذا المكان، وأحس باختناق في صدره. إنه مقتنع الآن أتم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدنأ وغد حملته الأرض على ظهرها في يوم من الأيام.

قال سفدريجايلوف ملحاً:

- ابق قليلاً! لا تنصرف هكذا! انتظر! أطلب لنفسك ولو فنجان شاي! هيًا اجلس! أعدك بأن لا أكلمك في ترهات، أقصد في ترهات عني أنا! اسمع، هل تريد أن أروي لك كيف «أنقذتني» امرأة، كما تقولون أنتم بلغتكم؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول، ذلك لأن تلك المرأة هي أختك. هل أستطيع أن أروي لك... ثم إن هذا سيتيح لنا أن نزجي الوقت...

- قل ما تشاء، ولكن آمل أن...

- لا تقلق... اطمئن... ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحي إلا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة!

الفصل الرابع

بدأ فدريجايلوف كلامه فقال:

- لعلك تعلم (ولقد ذكرتُ لك ذلك أنا نفسي على كل حال) أنني قد أودعت في السجن لديون كانت عليَّ. وكان المبلغ ضخماً لم يكن في وسعي أن أحاول سداده إطلاقاً. لا داعي إلى الإفاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشترت بها مارفا بتروفنا حريتي. هل تعرف مدى الجنون الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب؟.. لقد كانت مارفا بتروفنا امرأة شريفة مستقيمة، ولم تكن بالغبية الحمقاء، رغم أنها محرومة من أية ثقافة. فتصور أن هذه المرأة، الشريفة الغيور، قد ارتضت أخيراً، بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة، أن تعقد معي نوعاً من ميثاق ظلت متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة. يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر سناً مني بكثير وبالإضافة إلى ذلك كانت تفوح منها رائحة قرنفل، وقد بلغت أنا من الخسة ومن الصدق في الوقت نفسه أنني أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل عليَّ أن أظل وفياً لها وفاءً مطلقاً. فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها، رغم أن صراحتي قد أعجبتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد. لقد قالت لنفسها: «معنى هذا أنه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً»، وذلك هو الأمر الأساسي في نظر امرأة غيور. وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي: أولاً على أنني لن أترك مارفا بتروفنا قط، بل أظل زوجها؛ وثانياً على

أنني لن أتغيب أبداً إلا بإذنها؛ وثالثاً على أنني لن أتخذ خليلة ثابتة لها صفة الخليلة؛ ورابعاً على أن تسمح مارفا بتروفنا، مكافأةً لي على ذلك، بأن أغازل الخادمات، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة، وخامساً أن أتحاشى، بمعونة الله، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا؛ وسادساً أن أكاشف مارفا بتروفنا بالحقيقة إذا حدث، لا سمح الله، أن استولى عليَّ حب صادق وقوي. على أن مارفا بتروفنا سرعان ما اطمأنت في ما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة. إنها امرأة ذكية، فلم تستطع ان ترى فيَّ إلا رجلاً فاسقاً ماجناً، عاجزاً عن أي حب صادق وهوى قوي. لكن الذكاء والغيرة شيئان اثنان لا يتعارضان، ومن هنا يأتي البلاء. ثم إنك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حيادياً، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية إزاء البشر والأشياء التي تحيط بك. إنني أعتمد على حسِّك السليم أكثر مما أعتمد على أي ملكة أخرى. لعلك سمعت عن مارفا بتروفنا سخافات كثيرة. والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً. ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك بأنني آسف أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التي سببتها لها، ولكن يكفي هذا، فيما أعتقد، «تأبيناً»[72] للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً. لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت في أغلب الأحيان وأكظم كل غضب، وكان هذا الوضع المهذَّب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه في جميع الأحيان تقريباً. كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارفا بتروفنا، بل لقد كان يحظى برضاها وإعجابها، حتى إنها شعرت أحياناً باعتزاز بي. لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التي جرت لي مع أختك. والله وحده يعلم كيف رضيت أن تجازف فتُدخل إلى منزلها فتاةً جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة؟ إنني لا أفسِّر هذا لنفسي إلا بأن مارفا بتروفنا كانت امرأة سريعة التأثر والانفعال، وأنها افتتنت بأختك. نعم، لقد افتتنت بها حقاً. ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجري مجرى سيئاً بالنسبة إليَّ، حتى إنني قررت هل تصدِّق ذلك؟ - أن لا أرفع عيني نحو

أختك. ولكن أختك، آفدوتيا رومانوفنا، قامت هي نفسها بالخطوة الأولى، هل تصدِّق هذا؟ وهل تصدقني أيضاً إذا قلت لك إن مارفا بتروفنا قد مضت إلى حدِّ الغضب حين لاحظت أنني لا أكلمها عن أختك أبداً، وأنني أستقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التي كانت تسوقها لي عنها بغير إنقطاع. لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذي كانت تريد أن تصل إليه. وقد قصَّت على أختك، طبعاً، كل ما أمكنها أن تعرفه عني. لقد كانت لها هذه العادة السيئة، وهي أن تروي أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكوني للملأ كافة، فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتانة كأختك؟ أغلب ظني أنهما كانتا لا تتحدثنان إلا عني؛ ولا شك في أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القذرة السرية التي كان الناس يتناقلونها عني... بل إنني لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت!

- فعلاً! حتى أن لوجين اتهمك بأنك كنت السبب في موت طفل. هل هذا صحيح؟

أسرع سفدريجايلوف يجيب ممتعضاً:

- لا تحرِّك هذا الوحل كله، أرجوك!.. إذا كنت حريصاً حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقارات، فسأقصّ عليك خبرها يوماً في الوقت المناسب، أما الآن...

- وقد حدثوني أيضاً عن خادم لا أدري ما هو، كان عندك في الريف، وقالوا إنك كنت أنت السبب أيضاً...

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً:

- أرجوك! كفى!..

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحنق متزايد:

- أتراه هو بعينه ذلك الخادم الذي كان بعد موته يعود يملأ غليونك؟ لقد قصصت عليَّ أنت نفسك...

نظر إليه سفدريجايلوف بانتباه، وخيِّل إلى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة السريعة كالبرق. ولكن سفدريجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب:

- نعم، هو بعينه. أرى أنك أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله؛ فلك عليَّ، عند أول فرصة، أن أرضي فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك في جميع النقاط. شيطان يأخذني! أرى أنني سأنتهي إلى أن يعدني جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً. فاحكم، بعد هذا، مدى ما أدين به لمارفا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصَّت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة! لا أستطيع أن أتنبأ قطعاً بالأثر الذي شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوي، وكل ما أعلمه هو أنني سأستفيد... فرغم الكره الذي أحسَّت به آفدوتيا رومانوفنا إزائي، وهو كره طبيعي جداً على كل حال، ورغم هيئتي المظلمة المتجهمة الكالحة عامةً، فقد أشفقت عليَّ أخيراً كما تشفق المرأة على إنسان ضائع! وحين يمتلئ قلب فتاة بالشفقة، إنما تتعرض لأكبر خطر. فهي تريد حتماً أن «تنقذ»، أن ترد إلى الصواب، أن تدعو إلى الأغراض السامية أن تحيى، أن تبعث حياة جديدة... إن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعاني. وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير إلى الشبكة من تلقاء نفسه، وسرعان ما بادرت من جهتي إلى اتخاذ احتياطاتي. يخيَّل إليَّ أنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانوفتش. أنت مخطئ: إن القصة كما تعلم، قد اقتصرت على سفاسف (أو أنني أسرف في شرب الخمرة!) هل تعلم؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك في القرن الثاني أو القرن الثالث، بمكان من الأمكنة يمكن أن تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك إذاً لكانت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتي كن يبتسمن حين كانت قضبان الحديد المُحمّى بالنار تمزق أثداءهن، ولكانت مضت تواجه التعذيب من تلقاء نفسها. ولو قد وُلدت في القرن الرابع أو في القرن الخامس لاعتزلت الناس ومضت إلى صحارى مصر ثلاثين عاماً لا

تتغذى إلا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد. إنها لا تنتظر إلا اللحظة التي ستتمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها في سبيل شخص ما؛ بل إنها لقادرة على أن تلقي بنفسها من النافذة إذا منعت من تلك التضحية بنفسها. لقد سمعتُ عن شخص اسمه السيد رازوميخين. إنه فيما يبدو، وكما يدل على ذلك اسمه[73]، فتى ذكي عاقل لعله طالب بمعهد ديني. فليسهر على أختك، ليحطها برعايته! الخلاصة: أحسب أنني فهمت آفدوتيا رومانوفنا، وأني بذلك لفخور. ولكن المرء، عند تعرّفه إلى شخص من الأشخاص، يكون طائشاً بعض الطيش، غبياً بعض الغباوة، كما تعلم... فهو يرى الأشياء في ضوء... شخصي، ولا يراها كما هي. ولكن لماذا هي جميلة ذلك الجمال كله؟ ليس الذنب في هذا ذنبي! الخلاصة... إنني سرعان ما افتتنت بها افتتاناً شهوانياً لم يكن لي حيلة في دفعه. إن آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب، خفر لا عهد للمرء بمثله، خفر لا يكاد يصدِّق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلأنه «واقع». نعم، إنها رغم ذكائها، ورغم فكرها المنفتح جداً، فتاة ذات خفر شديد... وهذا أمر يسيء إليها ويلحق بها أذى). كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا[74]، هي باراشا السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التي جيء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة، والتي لم يسبق لي أن رأيتها في يوم من الأيام قبل ذلك. كانت حلوة جذابة حقاً، ولكنها كانت على جانب من الغباء لا يصدَّق. فما أقبلت عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة. وفي ذات مساء، بعد العشاء، دبَّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدةً في ممر بين الأشجار بالحديقة فإذا هي تطالبني جازمة، وعيناها تسطعان غضباً بأن أدع الفتاة المسكينة مرتاحة وأن لا أضايقها. ولعل ذلك كان أول حديث يجري بيني وبينها في خلوة. وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشرف بان ألبي رغباتها وأنفذ إرادتها، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحي الخجل، أي عرفت كيف أمثِّل الدور أحسن التمثيل. ومنذ

تلك اللحظة تمت بيننا لقاءات كثيرة في السر، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها تمطرني بالمواعظ والنصائح والملامات، وتضرع إليَّ أن أغيِّر حياتي، باكيةً، نعم باكية. . . تصور! هل تصدق هذا؟ انظر إلى أي مدىً يمكن أن يمضي حب الوعظ والنصح عند بعض الفتيات! وطبيعي أنني حمَّلت القدر تبعة جميع أخطائي، وصوَّرت نفسي في صورة رجل ظامئ إلى الضياء، ثم لجأت أخيراً إلى الوسيلة القصوى التي لا تخطئ هدفها من قلب المرأة قط، ولا تخيب الظن فيها أبداً، بل تحقق غايتها وتؤثر في جميع النساء دون استثناء، أعني التملق بالمديح. لئن لم يكن في العالم شيء أصعب من الصدق والصراحة، فلا شيء في العالم أسهل من التملق. فالصدق إذا اندس فيه عشر معشار من كذب، سرعان ما يخالطه نشاز فتقع فضيحة. أما التملق فإنه إذا كان كذباً من أوله إلى آخره، يظل ساراً وممتعاً، فالشخص يصغي إليه شاعراً بلذة إن لم تكن لذة سامية فهي لذة على كل حال. ومهما يكن التملق مفضوحاً فإن نصف المديح على الأقل ينطلي على الممدوح. يصدق هذا على جميع طبقات الناس في المجتمع وجميع المستويات العقلية. إن في وسعك أن تغوي بالمديح أطهر فتاة فما بالك بغيرها! لا أستطيع أن أتذكر إلا ويغلبني الضحك كيف أغويت في ذات يوم من الأيام امرأة مخلصة كل الإخلاص لزوجها وأولادها وفضائلها. . . لكم كان ذلك مسلياً، ولكم كان سهلاً! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتها. وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائماً انبهاري بفضائلها وعبادتي لعفتها! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ، وكنت إذا اتفق لي أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين، ألوم نفسي أمامها على أنني انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة، حتى لأتظاهر بأنني أعتقد أنها عارضت في ذلك، وأنني ما كنت لأحصل منها على شيء إطلاقاً لولا أنني فاسد الأخلاق، ولولا أنها في براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقي فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشتبه أو ترتاب، الخ الخ. الخلاصة إنني وصلت إلى

تحقيق غاياتي وتنفيذ مآربي، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفيفة طاهرة، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطئ إلا عرضاً: لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك وكنت على اقتناع تام بما أقول أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء. ولقد كانت المسكينة مارفا بتروفنا شديدة التأثر بالمديح، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها، ولو قد شئت لجعلتها تورثني جميع أموالها وأملاكها، حتى أثناء حياتها (إنني أشرب كما تشرب بالوعة وأتيه في ثرثرات). آمل أن لا تؤاخذني أو أن تحقد عليَّ إذا قلت لك الآن أن تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا. ولكنني أفسدت الأمر كله بحماقتي وقلة صبري. لقد اتفق عدة مرات، أثناء أحاديثي مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا في إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عينيَّ، واشمأزّت اشمئزازاً شديداً. هل تصدق هذا! الخلاصة أن لهيب الشهوة الذي كان يتوقد في عيني بمزيد من القوة يوماً بعد يوم، مع مزيد من الوقاحة في الوقت ذاته، قد أرعبها وأصبح كريهاً في نفسها آخر الأمر. لا داعي إلى أن أقص عليك الأمر تفصيلاً. فالمهم أننا كففنا عن اللقاء. وارتكبت عندئذ غلطة جديدة. فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها، وعادت باراشا تنال الحظوة، ولم تكن باراشا في هذه المرة وحيدة. الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم. آ... لو أنك رأيت، مرةً واحدة، يا روديون رومانوفتش، كيف كانت تسطع عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب! صحيح أنني الآن سكران، وأنني قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة. أؤكد لك أن تلك النظرات كانت تلاحقني في نومي. وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها، وصرت أتوقع حقاً أن توافيني نوبة صرع من لحظة إلى أخرى. ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام، نعم ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير إلى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري. وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه غير أنَّ هذا الأمر لم يعد

ممكناً. فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك؟ هل تتخيل مدى السخف الذي يمكن أن يقود إليه الحنق! إياك أن تتسرع في عمل شيء حين تكون حانقاً يا روديون رومانوفتش! إنني وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذني إذا أنا استعملت هذا التعبير . . . أي فرق بين التعابير إذا كان معناها واحداً؟)، قصارى القول، أنها تعيش من عرق جبينها وكد يمينها، وأنها تقوم بإعالة أمها وإعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد؟)، قررت أن أقدم إليها كل ما أملك من مال، وكان في وسعي عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل، على شرط أن تقبل الهروب معي، ولو إلى هنا، إلى بطرسبرج. فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت، متى وصلنا، ولوعدتها بالسعادة والهناء وهلم جراً أبد الدهر، فلقد بلغت من التحمس صدقني إن شئت! إنني لو أمرتني أن أذبح أو أن أسمم مارفا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هي، لفعلت ذلك على الفور. ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف. ففي وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذي شعرت به حين علمت أن مارفا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعي الحقير لوجين تريد أن تزوجه أختك، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعي أنا في الواقع. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أنت توافقني على هذا الرأي؟ أليس كذلك؟ إنني ألاحظ على كل حال أنك أصبحت تصغي إلي بانتباه شديد . . . أيها الشاب المشوّق . . .

قال سفدريجايلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفد صبره. فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التي شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً، لذلك قرر أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف. لقد كان شديد الريب في سفدريجايلوف، كثير الحذر منه.

قال فجأة ليحنقه مزيداً من الإحناق:

– فأستطيع أن أستنتج مما أفضيت به إلي أنك بمجيئك إلى بطرسبرج إنما كنت تطمع في أختي وتبيت لها شيئاً.

أجابه سفدريجايلوف وكأنه يتذكر شيئاً ما:

- دعنا من هذا، أرجوك... قلت لك... ثم إن أختك لا تستطيع أن تطيقني، فهي تكرهني كرهاً شديداً.

- أما إنها تكرهك فأنا واثق بهذا. ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هي المسألة.

- أنت واثق بهذا؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة سخرية. ثم تابع كلامه:

- إنك على حق. إنها لا تحبني، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجري بين رجل وامرأته، أو بين خليل وخليلته. هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين. هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر إليَّ نظرة اشمئزاز؟

- أستنتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاتك أنك ما زلت تضمر، إزاء دونيا، نياتٍ ملحة وأهدافاً لست أصفها إلا بأنها دنيئة!

- كيف؟ أأنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع؟

كذلك سأله سفدريجايلوف وقد ارتاع ارتياعاً ساذجاً جداً، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعت الذي نعت به راسكولنيكوف أهدافه.

قال راسكولنيكوف:

- بل إنها ما تزال تفلت منك! فلماذا ارتعت هذا الارتياع كله مثلاً؟ نعم، ما الذي يخيفك إلى هذا الحد؟

- أنا مرتاع؟ أنا خائف؟ خائف منك أنت؟ ألا إن الأولى أن تخاف أنت مني cher ami؟[75] ما هذا الكلام الصبياني؟ على أنني سكران... أنا أدرك ذلك. إنني أسرف في الكلام، أسرف في الكلام كثيراً حتى أكاد... لعن الله الخمرة! هيه! أنت! أعطني ماء!

قال سفدريجايلوف هذا، وتناول الزجاجة فرماها من النافذة بغير

تحرج. وجاءه فيليب بإبريق ماء، ثم استأنف سفدريجايلوف كلامه فقال وهو يبلُّ منشفة ويضعها على رأسه:

- وهذه سخافات على كل حال... إنني أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة. هل تعلم مثلاً أنني سأتزوج؟

- سبق أن قلت لي هذا.

- سبق أن قلت لك هذا؟ حقاً؟ لست أتذكر. على كل حال، لا شك أنني لم أقله جازماً، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي. وما كان الأمر حتى ذلك الحين إلا فكرة أو مشروعاً. أما الآن فإن لي خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً. ولولا شؤون مستعجلة لدعوتك أن تصحبني إليها، لأنني أريد أن أطلب منك بعض النصائح. آ... لم يبق لي إلا عشر دقائق! خذ... انظر في ساعتي. ولكن يجب أن أحكي لك... ذلك أن زواجي حادثة مشوّقة فريدة في نوعها. إلى أين تمضي؟ أما تزال تريد الانصراف؟

- لا... الآن لن أنصرف.

- لن تنصرف؟ سوف نرى! نعم، سأصطحبك إلى هناك لأعرِّفك بخطيبتي، ولكن ليس الآن، فالآن لا بد أن نفترق، تمضي أنت يمنةً وأمضي أنا يسرةً. إن تلك المرأة التي تسمي ريسليخ والتي أقيم عندها في هذه الفترة، لا شك أنك سمعت عنها، أليس كذلك؟ عجيب... ألم تسمع عنها؟ تلك المرأة التي يقال إنها هي السبب في أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً في وسط الشتاء. آ... إن تلك المرأة هي التي دبرت الأمر كله. قالت لي: «لا شك أنك تضجر وتسأم وأنت وحيد على هذه الحال، فيجب أن تسرى عن نفسك قليلاً». والحق أنني أمرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس. هل تظنني مرحاً؟ أبداً... أنا سوداوي. لست أؤذي أحداً، وأظل قابعاً في ركني، ولكن يتفق لي أن أبقى ثلاثة أيام صامتاً لا أفتح فمي بكلمة. ولقد كانت تلك القوادة ريسليخ تخفي خطة وتبيّت فكرة: كانت تقول لنفسها أن امرأتي القادمة سوف تُضجرني آخر الأمر، وأنني سوف أهجرها، فتقع عندئذ بين يديها

هي ريسليخ، «فتدخلها في التداول» في بيئتنا أو في بيئة أرفع. قالت لي إن للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرك ساقيه. وأضافت إلى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف في الأقاليم ولكنه لا يساعد ذويه؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كافٍ من الأفواه تطعمه، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها؛ وعلى أثر ذلك أُخرجت ابنتها الصغرى من الكوليج قبل أن تتم دراستها. وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر، فيمكن عندئذ تزويجها، أي يمكن أن أتزوجها أنا. وقد ذهبنا أنا وريسليخ إلى أهل الفتاة. مشهد مضحك. عرفتهم بنفسي: ملاك، أرمل، أسرة نبيلة، علاقات عالية، ثروة طائلة. فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة؟ من ذا الذي يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلي هو هذا الفرق في السن؟ أليس هذا أمراً مغرياً، أليس ظريفاً جذاباً؟ ها ها ها!.... ليتك رأيتني وأنا أتحدث مع أبيها وأمها! إن المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد! وظهرت الطفلة فجأة، فانحنت تحيي الضيوف كما يفعل الأطفال... تصور أنها ما تزال ترتدي الثوب القصير! إنها برعم ورد حقاً، يصطبغ خداها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أُطلعت على الأمر طبعاً). لا أدري ما رأيك في الفتيات الصغيرات. أما أنا فرأيي أن هذه السنين الست عشرة، وتلك العيون الصغيرة التي ما تزال عيون أطفال، وذلك الخجل، وهذه الدموع التي تنسكب حياء وخفراً، أن هذا كله آية من آيات الجمال. ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة. شعر أشقر خفيف متموج، شفتان مكتنزتان قرمزيتان، قدمان صغيرتان. عجيبة من العجائب!... ولقد تعارفنا. ثم أعلنتُ أنني في عجلة من أمري، لأسباب عائلية. لذلك تمت الخطبة في غداة ذلك اليوم، أي أمس الأول. ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت إليهم، ثم لا أتركها... فيحمر خداها من جديد

حتى لتصبح بلون الشفق عند الفجر، وآخذ ألتهمها بالقبل التهاماً! وأمها تقنعها طبعاً بأن الأمور يجب أن تجري على هذا النحو، لأنني سأصبح زوجها. الخلاصة: لذة ما بعدها لذة! ربما كانت حالة الخطيب هذه أحلى وأمتع من الحالة التي ستتلوها، أعني حالة الزوج. فها هنا نجد la nature et la verite![76] كما يقال! ها ها!... لقد تحدثت معها مرةً أو مرتين. إن الصبية ليست بالغبية البتة، وأنها في بعض الأحيان لتنظر إلي نظرة تشعل حريقاً في كياني كله. هل تعلم؟ أن لها وجهاً من نوع وجه «المادونا» التي صوّرها رافائيل. إن «مادونا سكستين» لها وجه عجيب تماماً، وجه يعبر عن حزن يلمُّ به جنون غيبي، ألم يخطف هذا بصرك؟ فاعلم إذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع. وما أن تمت خطبتنا حتى حملت إليها هدايا بألف وخمسمائة روبل: حلية من الماس، وحلية أخرى من لؤلؤ، وعلبة فضية لأدوات الزينة، كبيرة بهذا الحجم، مع جميع لوازمها... فإذا بوجه «المادونا» الصغير يُشرق ويزدهر. ثم أجلستها بالأمس على ركبتيّ، ولعلني بلغت في ذلك من قلة التحرج أنها احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها. ولكنها لم تشأ أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال. وخرج الجميع لحظةً، فأصبحنا وحيدين، أنا وهي، فإذا هي تبادر فجأة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرتين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرة). وتحلف لتكونَن لي زوجة مطيعة طيبة وفية، ولتسعدنني، ولتقفن على هذا حياتها كلها، كل لحظة من حياتها ولتضحي بكل شيء، بكل شيء، ولن تطالبني في مقابل ذلك إلا بشيء واحد: هو أن أحترمها، أن أحترمها فقط، فهي لا تريد إلا هذا، ولا تريد هدايا!» لا شك في أنك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا الاعتراف، في خلوة، من ملاك صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن، وأخذت دموع الحماسة تتلألأ في عينيها، أقول لا شك في أنك توافقني على أن ذلك كله جذاب مغرٍ! جذاب مغرٍ، هذا هو الوصف الصحيح، أليس كذلك؟ شيء يستحق أن يدفع المرء ثمنه،

هه؟ . . . اسمع . . . سنذهب إلى خطيبتي . . . ولكن ليس الآن!

- الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب في السن وفي الثقافة يثير رغبتك الشهوانية مزيداً من الإثارة! هل من الممكن أن تفكُر فعلاً في الإقدام على زواج كهذا الزواج؟

- لِمَ لا؟ طبعاً أفكِّر في ذلك! لكل امرئ أن يفكر لنفسه، وأقدر الناس على خداع نفسه أنجحهم في قضاء أيام سعيدة! ها ها! ولكن ما بالك قد أصبحت رجلاً فاضلاً حميداً على حين فجأة؟ رأفة بي يا عزيزي، لأنني امرؤ خاطئ مذنب! هى هى هى! . . .

- ولكنك عنيت بأولاد كاترينا إيفانوفنا على كل حال . . . كانت هناك بواعث تدفعك إلى ذلك . . . الآن فهمت كل شيء!

قال سفدريجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

- أنا أحب الأطفال كثيراً، أحبهم كثيراً جداً، ويمكنني بالمناسبة أن أروي لك حادثة غريبة ما تزال تجري حتى هذه الساعة. لقد طفت بمختلف الملاهي الموبوءة في العاصمة منذ وصولي أول يوم . . . أسرعت أطوف بها بعد فراق سبع سنين! لعلك لاحظت قلة حرصي على إعادة الصلة بيني وبين أصحابي وأصدقائي القدماء. حتى ليمكنني أن أقول إنني أفرُّ منهم فراري من الطاعون. يجب أن أقول لك أنني حين كنت أعيش في الريف عند مارفا بتروفنا كان ينتابني ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التي يستطيع الإنسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة! تباً لي! الشعب ههنا يسترسل في السكر، والشبيبة المثقفة تذوب وتضيع في أحلام خيالية ونظريات عجيبة بسبب عدم النشاط، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم من مال، وسائر الناس يستسلمون في أثناء ذلك للفسق والمجون. إذاً لقد أرسلت إليَّ هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً. وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة: هو ملهى موبوء فظيع (ولكنني أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز). كان الراقصون مندفعين

في رقص «الكانكان» اندفاعاً محموماً مسعوراً قلما يرى المرء مثله في هذه الأيام، ولم نكن نرى مثله في أيامنا أبداً. لقد تحقق تقدم في هذا المجال أيضاً. وفجأة لمحت صبية لعلها في الثالثة عشرة من عمرها، ترتدي ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً، وأمامهما شاب آخر. وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر إليها. هل تتخيل كيف كان الرقص؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد. وها هي ذي تحمر، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكي. فيمسكها الراقص الجميل، ويأخذ يدور بها، ويقوم بألف حركة وحركة بذيئة، والناس من حوله تضج بضحك صاخب. إنني في مثل هذه اللحظات إنما أحب جمهورنا خاصة، حتى جمهور هذا النوع من ملاهي الليل. كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين: «مرحى! مرحى! لم يكن عليها إلا أن ترفض المجيء إلى هنا! ليس هذا مكاناً للأطفال!» أما أنا فلم أكترث طبعاً. وسرعان ما حددت المكان الذي يناسبني، ومضيت أجلس قرب الأم. وبدأت أكلمها فقلت لها إنني أنا أيضاً مارّ ببطرسبرج مروراً. وأضفت إلى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم فراسة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والمداراة. وبعد أن أسمعتها أنني أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هي وابنتها بعربة، فقبلت وأوصلتهما، فرأيت مسكنهما (إنه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتا فيها منذ وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم). وقالتا لي إنهما تعدان زيارتي لهما شرفاً عظيماً. وعلمت بعد ذلك أنهما لا تملكان قرشاً، وأنهما جاءتا إلى بطرسبرج للقيام بمساع لدى إدارة من الإدارات. فعرضت عليهما خدماتي، وقدمت إليهما مالاً. وعلمت عدا ذلك إنهما بالمصادفة إنما وقعتا في ذلك الملهى تلك الليلة، فقد ظنتا أنه مكان لتعليم الرقص. وعرضت أن أساهم في إتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية، وبتعليمها الرقص خاصة. فسرعان ما قُبل هذا العرض بفرح شديد، وسرعان ما قيل لي إن هذا شرف كبير... وما تزال علاقتنا قائمة، وما تزال زياراتي متتالية... سنذهب إليها معاً لتراها أن شئت... ولكن ليس الآن!

- كفاك! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز، أيها الإنسان الفاسق، المنحل، المنحط!

- يا لك من شاعر! يا لك من شيللر انظروا أين تختبىء الفضيلة؟[77]، هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقص عليك المزيد من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات؟ هذه لذة حقيقية!

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقداً:

- نعم، لا شك أنني أبدو سخيفاً مضحكاً، فأنا كذلك في نظر نفسي.

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه، ثم نادى فيليب، فدفع الحساب، ونهض لينصرف وهو يقول:

- نعم. . . أنا سكران، سكران جداً. . . كفى حديثاً! . . . إنها لذة حقيقية! . . . .

صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً:

- كيف لا تشعر بلذة. . . كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر من طينتك أن يقصّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع شيطانية أخرى من هذا النوع، وأن يقصّ ذلك على إنسان مثلي وفي مثل هذه الظروف؟ . . . هذا يؤجج رغبتك، ويهيج نفسك، أليس كذلك؟

قال سفدريجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس في راسكولنيكوف:

- إذا كنت ترى هذا الرأي، فإنك إذاً لمستهتر عظيم. . . أو أن فيك لاستعداداً لهذا. إنك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء. . . وأن تصنع بها كذلك كثيراً من. . . ولكن كفى! يؤسفني حقاً أن حديثنا كان قصيراً هذا القصر كله، ولكنك لن تفلت مني هكذا. . . اصبر قليلاً. . . .

خرج سفدريجايلوف من الحانة، وتبعه راسكولنيكوف.

الحق أن سفدريجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً. إن الشراب لم يصعد إلى رأسه إلا لحظة قصيرة، وكان ثمله يتبدّد شيئاً بعد شيء. كان هناك أمر هام جداً يشغل باله، يشغل باله كثيراً، فكان يقطب حاجبيه، وكان انتظار شيء ما يقلقه إقلاقاً واضحاً، ويثير أعصابه. ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غيَّر لهجته في مخاطبته منذ لحظات، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظة والسخرية. وكان هذا الأمر يقلق راسكولنيكوف أيضاً.

واشتبه راسكولنيكوف في أمر سفدريجايلوف، فقرر أن يتبعه.

وصلا إلى الرصيف.

- أنت تذهب يمنةً وأنا أذهب يسرة، اللهم إلا أن يكون العكس! المهم أن نفترق Adieu, mon plaisir.. [78] سيسرني أن أراك مرة أخرى.

قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمنةً في اتجاه سوق العلف.

الفصل الخامس

سار راسكولنيكوف وراءه، فصاح سفدريجايلوف يقول ملتفتاً إليه:

- ما معنى هذا؟ أظن أنني قلت لك...

- معنى هذا أنني لن أتركك قيد أنملة...

- ماذا؟ ماذا؟

وتوقف الاثنان، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال دقيقة.

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة:

- بعد جميع الحكايات التي رويتها لي وأنت في شبه سكر، يحق لي أن أتصور تصوراً تاماً أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختي، بل إن هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك في أي وقت مضى. أنا أعلم أن أختي تلقت في هذا الصباح رسالة. ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقر على حال. ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة جديدة، ولكن هذا لا يبرهن على شيء، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسي.

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذي يريد أن يتحقق منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك.

قال سفدريجايلوف:

- ها . . . هكذا؟ أتريد أن أنادي الشرطة؟

- نادها!

وتوقفا من جديد، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرَّس في الآخر. وأخيراً تغير تعبير وجه سفدريجايلوف، فإنه حين رأى أن راسكولنيكوف لم يخف من تهديده، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة، وقال:

- ما أغرب أمرك! لقد تعمدت أن لا أكلمك في قضيتك، رغم أن الفضول ينهش قلبي نهشاً . . . إنها لقضية خيالية! لقد آثرت أن أرجئ الكلام فيها إلى مرة أخرى . . . ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبره وتثور أعصابه. تعال معي إن شئت، ولكنني أنبِّهك: إن عليَّ أن أرجع إلى البيت لحظةً لآخذ شيئاً من المال، ثم أغلق الباب بالمفتاح، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضي إلى قضاء السهرة في الجزر. فكيف تستطيع أن تتبعني والحالة هذه؟

- إن علي أن أذهب إلى عمارتك أنا أيضاً، لا إلى بيتك أنت، بل إلى بيت صونيا سيميونوفنا، لأعتذر لها عن تخلفي عن حضور الجنازة.

- لك ما تشاء. ولكن صونيا سيميونوفنا ليست في بيتها. فقد ذهبت بالأولاد إلى بيت سيدة عجوز محترمة هي صديقة قديمة لي تدير ملجأ للأيتام. لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعتُ لها مبلغاً من المال لصغار كاترينا ايفانونفا الثلاثة، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذي تديره. وقد قصصت عليها كذلك قصة صونيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفي شيئاً. فكان الأثر الذي أحدثته في نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف. وذلك هو السبب في أن صونيا سيميونوفنا قد دُعيت إلى أن تذهب في هذا اليوم نفسه إلى الفندق الذي نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من إجازتها.

- سأذهب مع ذلك إلى صونيا سيميونوفنا.

- افعل ما تشاء، لكنني لن أصحبك. ما ذهابي إلى هناك؟ ثم ها نحن قد أوشكنا أن نصل. قل لي: يخيّل إليَّ انك إنما تنظر إليَّ نظرة الريبة هذه لأنني كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن. . . أنت تفهم عني! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً، أليس كذلك؟ فهلا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب؟!

- وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك:

- ها. . . إذاً ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه! على كل حال، كان سيدهشني أن لا تثير هذا الموضوع حتى الآن! ها ها ها! ولكن الواقع أنني لم أسمع إلا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التي كنت تقصها على صونيا سيميونوفنا. . . وقد فاتتني خاتمة ذلك كله. قد أكون شخصاً متخلف الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أي شيء. ولهذا نفسه إنما أناشدك الله يا صديقي أن تشرح لي. . . أرجوك أن تنير عقلي على هدي مبادئ العصر. . .

- أنت تكذب! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً!

- عجيب! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أني سمعت بعض الأشياء). لا، إن كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع. إن شيللر الذي يثوي في نفسك يسبب لك اضطراباً في كل لحظة. ثم أنت تريد الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب! فإذا كنت قاسياً إلى هذا الحد، فهلمّ اعترف للسلطات وقل لها: «لقد ألمّت بي مصيبة، لقد وقع خطأ صغير في نظرياتي الفلسفية». أما إذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رؤوس العجائز التافهات اللواتي تقع عليهن يده، فما عليك في هذه الحالة إلا أن تبادر فتهاجر إلى مكان ما، إلى أمريكا مثلاً. . . لا أدري. . . وإنما يجب أن تفعل ذلك بأكبر سرعة. اهرب أيها الفتى! لعله لم يفت الأوان بعد. إنني

أكلمك صادقاً وأخلص لك النصح. ماذا؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر؟ سأعطيك ما أنت في حاجة إليه.

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز:

- لا يخطر هذا ببالي على الإطلاق.

- أفهم ذلك. (بالمناسبة، لا تكلّف نفسك عناء الكلام، فآن لك أن لا تقول شيئاً البتة كما تشاء...). إنني أفهم المسائل التي تدور في رأسك... هي مسائل... من نوع أخلاقي، أليس كذلك؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذي يليق بإنسان، بمواطن؟ ولكن دع هذه المسائل، انبذها! فيم يمكن أن تفيدك الآن؟ هيء هيء هيء لأنك تبقى إنساناً ومواطناً بعد ذلك كله؟... وإلا، ما كان عليك أن تزج نفسك في هذا الأمر وأن تشرع في عمل لست قادراً على المضي فيه إلى النهاية. هيا هشّم دماغك! لا تحب ذلك؟

- لكأنك تحاول احناقي عامداً لأنصرف.

- غريب أمرك! لقد وصلنا، فما عليك إلا أن تكلّف نفسك عناء صعود السلم! ها هو ذا باب صونيا سيميونوفنا. انظر. ليس في بيتها أحد. ألا تصدقني؟ اسأل إذن آل كابرناؤموف. إنها تترك لهم المفتاح دائماً. وهذه هي madame كابرناؤموفا بنفسها على كل حال. ماذا؟ (إنها صماء قليلاً). هل خرجت صونيا سيميونوفنا؟ فإلى أين ذهبت؟ ها قد سمعت أنها ليست في بيتها وأنها لن ترجع إلا في ساعة متأخرة من الليل. تعال إذن معي، إلى بيتي. كنت تريد أن تجيء إليّ فعلاً، أليس كذلك؟ فها نحن في بيتي! ليست السيدة ريسليخ هنا. إنها لا تنقطع عن الحركة، لكنها امرأة طيبة، أؤكد لك، وفي وسعها أن تفيدك كثيراً إذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل. انظر: هاأنذا آخذ من مكتبي سنداً مالياً (وأنت ترى أنني أملك سندات كثيرة أخرى)، غير أن السند سيبدل عند هذا المساء نقوداً رنانة. هل رأيت؟ لم يبق لدي وقت أضيعه. ها أنذا

أغلق مكتبي، وأغلق باب الشقة، وها نحن نهبط السلّم. هل تريد أن نركب عربة؟ إنني ذاهب إلى الجزر كما تعلم. هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة؟ انظر: هأنذا آخذ هذه العربة، وأطلب من الحوذي أن يقودني إلى جزيرة إيلاجين. ماذا؟ أترفض؟ أنت منهوك القوى؟ هيّا. . . لنقم بجولة صغيرة معاً! أحسب أن المطر سيهطل، ولكن لا ضير، سنرفع غطاء العربة.

كان سفدريجايلوف قد استقر في العربة. واعتقد راسكولنيكوف، في تلك اللحظة على الأقل، أن شبهاته ليس لها ما يسوّغها. فاستدار دون أن يجيب بشيء، وسار في اتجاه سوق العلف. ولو قد التفت إلى وراء لرأى سفدريجايلوف ينقد الحوذي أجره بعد مائة خطوة، ويعود يمشي على الرصيف. ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع. إن اشمئزازاً شديداً كان يدفعه بعيداً عن سفدريجايلوف. هتف يتساءل رغم إرادته: «كيف أمكنني، ولو خلال لحظة قصيرة، أن انتظر شيئاً من هذا الإنسان الدنيء الحقير! من هذا الوغد السافل المنحط!». ولكن الحقيقة هي أن حكم راسكولنيكوف على سفدريجايلوف كان فيه شيء من تسرع وتعجل. ومهما يكن من أمر فإن الجو الذي خلقه سفدريجايلوف كان يضفي على سفدريجايلوف شيئاً من شذوذ، بل ويحيطه بشيء من السر. أما أخته فظل راسكولنيكوف مقتنعاً بان سفدريجايلوف لن يدعها في سلام. ولكن التفكير وإعادة التفكير في هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف.

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل في أحلام عميقة على عادته. حتى إذا وصل إلى الجسر توقف قرب الإفريز وأخذ يتأمل الماء، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو. كان قد مرّ بها عند أول الجسر تماماً، ولكن دون أن يلاحظها. وهذه أول مرة تلتقي فيها دونيا بأخيها في الشارع على هذا النحو، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً

حين رأته، وتوقفت لا تدري أتناديه أم لا. ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجايلوف على حين فجأة، متجهاً نحو سوق العلف بخطى سريعة، وكأنه يسير محاذراً متخفياً؛ ولم يدخل الجسر، بل توقف على الرصيف، متنحياً بعض التنحي، حتى لا يراه راسكولنيكوف. كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة، وهو يحرك لها يديه بإشارات، فهمت دونيا منها أنه يحضها على أن لا تنادي أخاها، وأن تتركه وشأنه، وأن تلحق به هو.

وذلك ما فعلته دونيا: فها هي ذا تتجاوز أخاها، دون أن تقول كلمة، وها هي تقترب من سفدريجايلوف.

دمدم سفدريجايلوف قائلاً لها:

- تعالي بسرعة! لا أريد أن يعلم روديون رومانوفتش بموعدنا. اعلمي أنني خارج من حانة قريبة وافاني فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه إلا بكثير من المشقة والعناء! لا أدري كيف سمع بأمر الرسالة التي بعثت بها إليك، وهو الآن يشتبه في أن هناك شيئاً ما. أرجو أن لا تكوني أنت التي بحت له ببعض الأسرار. ولكن إذا لم تكوني أنت، فمن عسى يكون؟...

قاطعته دونيا تقول:

- لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع، فأصبح أخي لا يستطيع أن يرانا. لن أتبعك إلى أبعد من هذا المكان. فقل لي كل شيء هنا. إننا نستطيع أن نتكلم في الشارع.

- أولاً: لا يمكن أن يقال هذا في عرض الشارع. ثانياً: ينبغي أن تسمعي أيضاً صونيا سيميونوفنا. ثالثاً: هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها. أخيراً: إذا كنت ترفضين أن تجيئي إلى بيتي فسوف أمتنع عن كل شرح، وسوف أنصرف فوراً. هذا وأرجوك أن لا تنسي أن سراً شاقاً جداً، متعلقاً بأخيك الحبيب، يوجد بين يدي.

توقفت دونيا مترددة، ورشقت سفدريجايلوف بنظرة نافذة، فسألها سفدريجايلوف هادئاً:

- مم تخافين؟ ليست المدينة كالريف. ثم إنك في الريف قد أسأت إلي أكثر مما أسأت إليك. لذلك...

- هل أطلعت صونيا سيميونوفنا؟

- لا، لم أقل لها كلمة واحدة، حتى إنني لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن في بيتها. ولكن أغلب الظن أنها هناك. لقد دفنت اليوم قريبتها، فما هذا يوم زيارات تقوم بها. على كل حال، لن أحدث أحداً في هذا الأمر الآن، حتى ليؤسفني أنني أطلعتك عليه، فإن أقل طيش يساوي هنا وشاية. انظري: هذا هو المنزل الذي أقطن فيه، أمامنا. والبواب يعرفني جيداً. ها هو يحييني كما ترين. إنه يلاحظ أن معي سيدة. وطبيعي أن صورة وجهك قد نقشت الآن في ذاكرته. وينبغي لهذا أن يطمئنك إذا كنت تخافين مني وتشكّين فيَّ. اغفري لي هذه الفظاظة في مخاطبتك. أنا هنا مستأجر عند مستأجرين، وليس يفصلني عن صونيا سيميونوفنا إلا حائط، فهي أيضاً مستأجرة عند مستأجرين. الطابق كله مسكون، فممّ خوفك؟ ألا إن هذا الخوف خوف طفلة صغيرة! أأنا مخيف إلى هذه الدرجة؟

قال سفدريجايلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة أراد لها أن تعبر عن الطيبة والسماحة، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل. كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً، وكانت أنفاسه مختنقة. وكان يتعمد أن يتكلم بصوت قوي ليخفي اضطرابه المتزايد، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب. لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذي يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة في نظرها.

قالت بلهجة ظاهرها هادئ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً:

- رغم أنني أعدك رجلاً لا شرف له... فإنني لا أخاف منك البتة. تقدَّمني!

توقف سفدريجايلوف أمام باب صونيا.

- اسمحي لي أن أسأل هل هي في بيتها. لا، ليست في بيتها، يا لسوء الحظ! لكنني أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة. لئن تغيبت، فما ذلك إلا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام الذين ماتت أمهم. وكنت أنا أساعدهم أيضاً. فإذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها إليك في هذا اليوم إن رغبت في ذلك. هذا مسكني، وهاتان الحجرتان اللتان أحتلهما. وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليخ. والآن انظري هنا، سوف أظهرك على وثائقي الأساسية. من غرفة نومي يفضي هذا الباب الذي ترين إلى غرفتين خاليتين كل الخلو، مُعَدَّتين للتأجير. انظري. . . يجب أن تنتبهي إليهما أكثر الانتباه.

كان سفدريجايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين. أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر، لا في أثاث الغرفتين ولا في ترتيبهما، رغم أنها كان يمكن أن تنتبه إلى أن شقة سفدريجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً، يصل المرء إليهما لا من الممر رأساً، بل باجتياز غرفتين خاليتين تقريباً لصاحبة البيت. وفتح سفدريجايلوف باباً مقفلاً بالمفتاح، يقع في آخر غرفة نومه، فأرى دونيا المسكن الخالي المعدّ للتأجير.

وقفت دونيا عند العتبة لا تدري لماذا يدعوها سفدريجايلوف إلى أن تنظر، ولكن سفدريجايلوف أسرع يمدها بالشروح فقال لها:

- انظري هنا، إلى هذه الغرفة الكبيرة الثانية. لاحظي هذا الباب. إنه مغلق بالمفتاح. وقرب هذا الباب يوجد كرسي. إنه الكرسي الوحيد الذي يمكن العثور عليه في هاتين الغرفتين. أنا الذي جئت به إلى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب. ووراء هذا الباب مباشرة، توجد مائدة صونيا سيميونوفنا. لقد كانت جالسةً إلى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانوفتش. فمن موضع جلوسي على هذا الكرسي، في هذا المكان نفسه، ظللت أنا أتنصت إلى حديثهما مساءين متتاليين، خلال ساعتين في كل مرة. فعرفت بعض الأمور طبعاً. ما رأيك؟

- تتنصَّت على الباب؟

- نعم، أتنصّت على الباب. والآن فلنذهب إلى غرفتي. هنا لا نستطيع أن نجلس.

قال سفدريجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا إلى الغرفة الأولى التي يتخذها صالوناً، ودعاها إلى الجلوس. وجلس هو إلى الطرف الآخر من المائدة، ولكن عينيه كانتا تسطعان بذلك اللّهيب نفسه الذي كان قد روَّع دونيا ترويعاً شديداً في ذات يوم. ارتعشت دونيا؛ ومرةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابة. كانت لا تريد أن تظهر ارتيابها، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل، ولكن كبرياءها صَدَّتْها عن هذا السؤال. وكان قلبها على كل حال يعاني ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها. وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت وهي تضع رسالته على المائدة:

- هذه رسالتك. هل ما أوردته فيها ممكن؟ إنك تلمح إلى جريمة ارتكبها أخي. لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن. إن إلماحك أوضح من أن تنكره. واعلم أنني حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً واحداً. إن افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد. إنني أعلم كيف ولماذا لفقت هذه الخرافة. لا تستطيع أن تقدم أي برهان على... لقد وعدتني أن تبرهن: فتكلم إذن! ولكن عليك أن تعلم سلفاً أنني لن أصدقك. لا، لن أصدقك!

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال في لحظة.

قال سفدريجايلوف:

- ولكن إذا كنت لا تصدقينني فلماذا جئت إلى بيتي وحيدة؟ نعم، لماذا جئت إلى بيتي؟ هل بدافع الفضول وحده؟

- لا تعذبني! تكلم! تكلم!

- لا شك في أنك فتاة شجاعة. لقد ظننت أنك ستطلبين من السيد رازوميخين أن يصحبك إلى هنا. لكنه لم يظهر لا معك، ولا حولك. لقد نظرت ملياً فلم أره. هذه شجاعة منك. أنت تريدين إذن أن تنقذي أخاك روديون رومانوفتش! على كل حال، فإن كل ما فيك عظيم، رائع!... أما أخوك، فماذا أقول لك عنه؟ لقد رأيته بنفسك، فما رأيك في حالته؟

- أرجو أن لا تكون حالته هذه هي الأساس الذي بنيت عليك اتهامك إياه!

- لا، لا، لم أبنِ اتهامي على حالته فحسب، بل على أقواله أيضاً. على كل حال، لقد جاء إلى صونيا سيميونوفنا مساءين متتاليين، فجلسا في المكان الذي أريتك إياه. وهناك اعترف لها بكل شيء، اعترافاً تاماً. إنه قاتل. قتل العجوز المرابية التي كان قد رهن عندها أشياء، وقتل اختها المتاجرة التي تسمى اليزافيتا والتي دخلت مصادفةً بينما كان يقتل العجوز. قتلهما كلتيهما بفأس جاء بها لانفاذ جريمته. قتلهما ليسرق، وقد سرق. أخذ مالاً، وأخذ أشياء!... أنا إنما أروي لك ما رواه هو نفسه، كلمةً كلمة، لصونيا سيميونوفنا التي تعرف وحدها السر والتي لم تشارك في جريمة القتل أية مشاركة، لا بالقول ولا بالفعل، حتى لقد روعتها هذه القصة كما تروعك أنت الآن. لا تخافي! لن تشي به!

تمتمت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها، واختنق صدرها:

- هذا مستحيل! مستحيل! ليس هناك أي سبب يدفعه إلى ذلك! ليس هناك أي باعث يحضه على ذلك!... هذا كذب! كذب فظيع!...

- لقد سرق. هذا هو الدافع الوحيد. أخذ مالاً وأشياءَ. صحيح أنه، كما قال، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك الأشياء، بل مضى يخبئ كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والأشياء جميعاً. ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجرؤ. . .

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها واثبة:

- ولكن هل يعقل أن يكون قد سرق؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً؟ إنك تعرفه، إنك رأيته، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً؟

لكأنها كانت تتضرع إلى سفدريجايلوف. كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها.

- هناك يا آفدوتيا رومانوفنا ألوف وملايين من أصناف السارقين: رُبَّ رجل يسرق وهو يدرك في قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً. وقد سمعت مرةً عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد، فمن يدري؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود؟ لو كنت في مكانك لدهشت دهشتك هذه نفسها، ولو روى لي هذه القصة شخص آخر لما صدقته. ولكني لا أستطيع أن أكذّب أذنيّ. إن أخاك قد بسط لصونيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذي حضته على ارتكاب فعلته، فأبت هي نفسها أول الأمر أن تصدق، ولكنها ما تملك أخيراً إلا أن تصدِّق، حين رأت هيئته. . . فهناك الآذان، وهناك الأعين أيضاً. روى هو لها هذه القصة، هو نفسه.

- وما هي تلك الدوافع؟

- تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا. كيف أشرح لك؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة، كما أعتمد عليها أنا أيضاً، التي تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل. . . فعلة شر واحدة في مقابل مائة فعل من أفعال الخير! فعلة شر واحدة

ووحيدة... وبعدها مئة فعل من أفعال الخير! ثم... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً، زاخر بكبرياء لا حدود لها، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ؟ أضيفي إلى ذلك حالة الحنق المرضي الناشئ عن جوعه المزمن، وعن سكناه في حجرة ضيقة مسرفة في الضيق، وعن ارتدائه أسمالاً بالية وخرقاً ممزقة، وعن شعوره بكل ما في وضعه الاجتماعي من بؤس وشقاء، بالإضافة إلى وضع أمه وأخته. وهناك، فوق ذلك كله، الطموح، والأنفة، والغرور، ولكن ربما كانت له عواطف طيبة أيضاً... الله أعلم! صدقي أنني لا أتهمه. ثم إن اتهامه ليس شأني أنا. وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك - هي نظرية كأية نظرية أخرى - تلك التي تذهب إلى أن الإنسانية تنقسم إلى فئتين، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الخارقين أي الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلي أن لا يصدَّهم أي قانون من القوانين، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم، أي على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد، الذين يتألف منهم القطيع، الذين هم الغبار! نظرية لطيفة une theorie comme une autre،[79] أليس كذلك؟ لقد فتنه نابليون كثيراً، أو قولي إنه انقاد لإغراء ذلك الرأي الذي يرى أن العباقرة لا يكترثون لحالات الظلم الفردية، بل يتخطونها فلا يرتبكون بأمور هينة يسيرة. ولقد تخيّل، فيما يبدو، أنه هو نفسه عبقري؛ أو قولي على الأقل إنه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن. وقد تعذّب كثيراً كذلك، وما يزال يتعذّب، فهو يدرك الآن أنه إن استطاع أن يضع نظرية، فلقد عجز عن التخطي، عن المضي قدماً بلا تردد؛ أي لقد أدرك أنه ليس عبقرياً. وهذا الإدراك أمر يشعر منه الفتى، إذ كانت نفسه زاخرة بالكبرياء، يشعر منه بمذلة كبيرة وإهانة عظيمة، ولا سيما في عصرنا هذا...

- وعذاب الضمير؟ أأنت تنكر عليه إذاً أي حسٍ أخلاقي؟ أهو... حقاً... كما تصف؟

- آه يا آفدوتيا رومانوفنا! إن كل شيء قد اضطرب الآن واخْتَلّ. . .
ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد في هذا العالم يوماً. ثم إن الروس على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحيبة كأراضيهم، وهم ميّالون كثيراً إلى الخيال والنزوة والفوضى. ولكن النفس الواسعة الرحيبة تكون خطرة إذا لم يوهب لها شيء من عبقرية. تذكري مناقشاتنا القديمة في هذا الموضوع، بعد العشاء، هناك، في الشرفة المطلة على الحديقة. . . لقد كنت تعيبين عليَّ سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان. من يدري مع هذا؟ لعله، حينما كنا نحن نتكلم، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه. إن مجتمعنا المثقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا. بعض الناس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق، من كتب قرؤوها، وبعضهم يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضي. ولكن هذا إنما يصدق على العلماء، وأكثرهم يبلغ من الحماقة أن رجلاً من رجال المجتمع الراقي يخجل من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوةً له. على أنك تعرفين آرائي: أنا لا ألوم أحداً. كل ما هنالك أنني أتحاشى أن أقحم نفسي في شيء. لقد سبق أن تحدثنا في هذا مراراً. حتى أن آرائي قد شرّفها أن حظيت باهتمامك. . . إنك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا.

- أنا أعرف نظرية أخي هذه. قرأت في مجلة من المجلات مقالته عن الرجال الذين يباح لهم كل شيء. إن رازوميخين هو الذي جاءني بتلك المجلة.

- السيد رازوميخين؟ مقالة أخيك؟ ولكنني كنت أجهل وجود مقالة كهذه المقالة. لا بد أنها شائقة جداً!. . . إلى أين أنت ذاهبة يا آفدوتيا رومانوفنا؟

- أريد أن أرى صونيا سيميونوفنا. من أين يجب المرور للذهاب إليها؟ لعلها عادت! أريد أن أراها على الفور حتماً. يجب أن. . .

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها، فقد انقطع تنفسها فعلاً.

- لن تعود صونيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل. هذا ما افترضه على الأقل. كان يجب أن تعود في وقت مبكر جداً، وإذا لم تعد، فستأتي في وقت متأخر جداً...

- آه... الآن أرى أنك تكذب! أنت لم تزد على أن كذبت! إنني لا أصدق كلمة واحدة مما ذكرت... لا أصدق، لا أصدق!

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها.

ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه إليها سفدريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها.

- ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا؟ عودي إلى نفسك! إليك ماءً! اشربي جرعة!

قال سفدريجايلوف لها ذلك، ورشّ وجهها بالماء، فارتعشت وأفاقت.

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه:

- ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها.

ثم قال لها:

- هدئي روعك يا آفدوتيا رومانوفنا! اعلمي أن له أصدقاء. سوف ننقذه، سوف نخرجه من المأزق! هل تريدين أن أساعده على أن يجتاز الحدود؟ إنني أملك مالاً. وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت له جواز سفر. لقد قتل، نعم، ولكن هدئي نفسك. ما يزال في وقته متسع لأن يقوم بأعمال خيِّرة كثيرة. ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً عظيماً. ما بك؟ ألا تشعرين الآن بتحسن؟

- رجل شرير... ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزئ! دعني...

- إلى أين أنت ذاهبة؟ إلى أين؟

- إليه! أين هو؟ هل تعلم أين هو؟ لماذا هذا الباب مغلق؟ من هذا الباب دخلنا، فما لي أراه الآن مقفلاً بالمفتاح؟ متى أتيح لك أن تقفله؟

- لم يكن في الإمكان أن نُسمع جميع الغرف ما قلناه هنا! وأنا لا أسخر ولا استهزئ البتة، غير أنني سئمت من الحديث بمثل هذه اللهجة. غريب! إلى أين تريدين أن تذهبي وأنت مهتاجة مضطربة؟ أتراك تريدين أن تزجّيه في السجن؟ لو ذهبت إليه لاشتعل غضباً وحنقاً، ولمضى يشي بنفسه! اعلمي أنه مراقب منذ الآن، وأنهم يتتبعونه. لسوف تكشفين أمره مزيداً من الكشف! انتظري... لقد رأيته منذ قليل وكلمته. ما يزال في الإمكان إنقاذه. انتظري. اجلسي. سنفكّر معاً. من أجل هذا إنما دعوتك، من أجل أن نتحدث في خلوة وأن نتعمق في درس المشكلة. ولكن هلا جلست!

- بأيّ طريقة تستطيع أن تنقذه؟ وهل يمكن إنقاذه؟

قالت دونيا ذلك وجلست، فجلس سفدريجايلوف إلى جانبها، وبدأ يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات بسبب الانفعال:

- كل شيء متوقف عليك... عليك وحدك...

فتراجعت دونيا بضع خطوات، مذعورةً مرتجفة. وكان سفدريجايلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

- أنت... كلمة منك أنت ويُنقَذ! أنا... أنا سوف أنقذه! عندي مال، ولي أصدقاء! سأرحله فوراً، وسأحصل أنا نفسي على جواز سفر... سأحصل على جوازي سفر، واحد له وواحد لي. لي أصدقاء... رجال قانون... هل تريدين؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت، ولأمك... ما حاجتك إلى رازوميخين؟ إنني أحبك مثلما يحبك. أحبك حباً لا نهاية له. دعيني أقبل حافة ثوبك! دعيني أفعل هذا، دعيني!... أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك! مريني

بما يجب أن أفعل فأفعل. سأفعل كل شيء، سأفعل المستحيل! سوف أومن بكل ما تؤمنين به أنتِ! أفعل كل شيء، كل شيء! لا تنظري إليَّ هكذا، لا تنظري إلي هكذا! هل تعلمين أنك تقتلينني. . .

أخذ سفدريجايلوف يهذي. إن شيئاً ما قد مسّه فجأة، كأنه تلقى ضربة على رأسه. ونهضت دونيا بوثبة. واندفعت نحو الباب، وصاحت تقول وهي تهز الباب بكلتا يديها:

- افتحوا! افتحوا! ألا فتحتم الباب؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد؟

كان سفدريجايلوف قد جلس، وها هو ذا يثوب إلى رشده، وقد ألمت ابتسامةٌ خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان.

قال بصوت خافت متقطع:

- ليس ثمة أحد. صاحبة الدار خرجت. تضيِّعين وقتك سُدى بهذا الصراخ. تثيرين أعصابك في غير طائل.

- أين المفتاح؟ افتح الباب! افتح الباب فوراً! فوراً! يا لك من نذل حقير!

- أضعت المفتاح، ولا أعثر عليه!

صاحت دونيا تقول وقد اصفرّ وجهها حتى لكأنها ميتة:

- آ. . . هذا اغتصاب إذاً!

وهرعت إلى ركن من الغرفة، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة صغيرة كانت في متناولها.

أصبحت الآن لا تصيح، لكنها كانت مثبتة بصرها في عدوها ترصد بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته. وقد أصبح سفدريجايلوف لا يتحرك هو أيضاً، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الآخر من الغرفة. كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه، في الظاهر على الأقل. لكن وجهه ظل

أصفر كما كان قبل ذلك، وما تزال ابتسامته الساخرة مرتسمة على شفتيه. وقال أخيراً:

- لقد نطقت أنت بكلمة «الاغتصاب» يا آفدوتيا رومانوفنا. ولكن إذا كان في نيتي أن أغتصبك، فلا بد أنني اتخذت احتياطاتي كما تقدرين. إن صونيا سيميونوفنا ليست في بيتها. ولكي تصلي إلى أسرة كابرناؤموف، يجب أن تجتازي خمس غرف، هي الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح. ثم إنني أقوى منك مرتين على الأقل، هذا عدا أنني لست أخشى على شيء البتة، فلن يكون في وسعك أن تذهبي لتشتكيني. لن تريدي أن تفضحي أخاك، أليس هذا صحيحاً؟ ثم إن أحداً لن يصدقك على كل حال، فلماذا تذهب فتاة منفردة إلى بيت رجل وحيد؟ فحتى لو ارتضيت أن تضحّي بأخيك، فلن تستطيعي أن تبرهني على شيء. نعم، إنه لمن الصعب جداً أن تثبتي أن «اغتصاباً» قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا.

دمدمت دونيا تقول حانقة:

- وغد!

- قولي ما تشائين، ولكن لاحظي أنني لم أقدّم إلا افتراضات. وأنا شخصياً أوافقك في رأيك كل الموافقة: إن الاغتصاب دناءة وحطة. لكنني أردت أن أُفهمك أن ضميرك لن يعذبك أي تعذيب إذا... إذا أنت ارتضيت، بمحض إرادتك، أن تنقذي أخاك، كما أقترح عليك. فإنما أنت تخضعين عندئذ للظروف، أو تخضعين للقوة إذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة. فكري: إن مصير أخيك ومصير أمك بين يديك. أما أنا فسأظل عبدك المطيع... ما حييت... وسأظل أنتظرك هنا...

جلس سفدريجايلوف على الأريكة، على مسافة ثماني خطوات من دونيا. لكن دونيا أصبحت لا يساورها أي شك في أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع. لقد كانت تعرفه حق المعرفة.

فها هي ذي تسل من جيبها مسدساً على حين فجأة، فتشد الزناد بسرعة، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخي المسدس، فينتفض سفدريجايلوف وينهض عن مجلسه، ويصيح مدهوشاً، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً:

- آ. . . هكذا إذاً! لا، لا، إن هذا يغير الموقف تغييراً تاماً، ويقلبه رأساً على عقب. أنت بهذا تيسرين علي الأمور كثيراً يا آفدوتيا رومانوفنا! ولكن أين وجدت هذا المسدس؟ هل السيد رازوميخين هو الذي. . . ولكن. . . عجيب. . . هذا مسدسي أنا! لطالما بحثت عنه! إن دروس الرماية التي تشرفت باعطائك إياها في الريف لم تذهب إذن سدى!

- ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد، بل مسدس مارفا بتروفنا التي قتلتها! لا شيء في منزلها كان ملكك أنت! لقد أخذتُ المسدس حين أخذت أشتبه في نياتك وأدرك سفالتك. يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوةً واحدة لقتلتك فوراً!

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدةً صوابها، وهي ممسكة بالمسدس متأهبة لإطلاق الرصاص.

قال سفدريجايلوف وهو ما يزال واقفاً في مكانه:

- وأخوك؟ إنما ألقي عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر!

- أخي؟ أبلغ عنه السلطات إن شئت! لا تتحرك، وإلا أطلقت الرصاص. لقد دسست لزوجتك السمَّ في الطعام، أنا أعرف ذلك، أنت نفسك قاتل!

- هل أنت على يقين من أنني دسست السمَّ لمارفا بتروفنا؟

- نعم، أنت! حتى لقد ألمحت إلى هذا السم أمامي. وإني لأعلم أنك إنما سافرت لتجيء به. . . هيأت كل شيء. . . أنت القاتل! . . . لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقي!

- حتى إذا صح هذا، فإنك تكونين أنت السبب.

- كاذب! أنا أبغضتك دائماً، دائماً!

- مهلاً مهلاً يا آفدوتيا رومانوفنا... أرى أنك نسيت كيف كنت، أثناء تمثيلك دور الواعظ، تميلين عليَّ متلهفة النظرات. لقد قرأت شيئاً في عينيك... هل نسيتِ؟... ذلك المساء... والقمر... وأغنية العندليب؟...

- كاذب! كاذب! مفترٍ نمام!

كان الحنق يشتعل في عيني دونيا.

قال سفدريجايلوف:

- كاذب... لنسلّم بأنني كاذب! على كل حال، ما ينبغي للمرء أن يذكُر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة...

وابتسم، ثم أردف قائلاً:

- أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة... فماذا تنتظرين؟ أطلقي!

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجايلوف وقد اصفرَّ لون وجهها حتى لكأنه وجه ميت، وابيضّت شفتها السفلى وأخذت تختلج اختلاجاً قوياً. كانت تنظر إليه بعينيها السوداوين الواسعتين اللتين ترشقان شرراً، وقد عزمت أمرها فهي ترصد أيسر حركات الرجل.

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام. إن اللّهب الذي كان ينبجس من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه إحراقاً. وتشنج قلبه ألماً.

وتقدم سفدريجايلوف خطوة، فانطلقت الرصاصة، فلامست شعره ومضت تضرب الحائط وراءه. فتوقف، وأخذ يضحك في رفق وهدوء.

- وخزتني النحلة! إنها تسدد إلى الرأس... ما هذا؟ دم؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه الأيسر: لعل الرصاصة قد خدشت جلد رأسه.

خفضت دونيا المسدس ونظرت إلى سفدريجايلوف. إن نظرتها لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشداه. لكأنها لم تدرك ماذا فعلت ولا ماذا حدث!

قال سفدريجايلوف بصوت خافت، مع ابتسامة عابسة:

- طاشت الضربة. هلاّ أطلقت مرة أخرى! إني انتظر! وإلا كان في وقتي متسع لأن أقبض عليك قبل أن تَشُدّي الزناد مرة أخرى.

ارتعشت دونيا، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية، وشهرته على سفدريجايلوف من جديد. وقالت يائسة:

- دعني! يميناً لأطلقن مرة أخرى إذا لم تتركني! يميناً... لأقتلنك...

- وبعد ذلك؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد ثلاث خطوات... ولكن ماذا لو أخطأتني مرة ثانية، ما عساك فاعلة حينذاك؟....

قال ذلك وسطعت عيناه، وتقدم خطوتين أخريين فضغطت دونيا على الزناد، ولكن الطلقة لم تخرج.

- لم تحسني حشو المسدس! لا بأس! ما يزال عندك رصاصة. أحكمي وضعها! سوف انتظر.

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر، وينظر إليها بعينين يتوهّج فيهما لهيب ثقيل شهواني، وتعبّران عن عزيمة وحشية وتصميم جنوني.

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تنصرف. «طيب، طيب، في هذه المرة، وهو منها على بعد خطوتين فقط، ستقتله فعلاً». بهذا حدثت دونيا نفسها، ولكن ها هي ذي ترمي المسدس فجأة.

قال سفدريجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه:

- رميته؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل، حمل ليس مردّه إلى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة، وإنما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر، من شعور أشد إيلاماً وأحلك ظلاماً، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدّده.

واقترب من دونيا، وضم إليه قامتها في رفق وهدوء، فلم تقاوم، ولكنها نظرت إليه بعيني ضارعتين وهي ترتعش كورقة في مهب الريح. ودّ لو يقول شيئاً ولكن شفتيه تقلصتا، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد:

- اتركني!

فاختلج سفدريجايلوف. إن استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل.

سألها بصوت خافت:

- أأنت لا تحبينني إذاً؟

فحرّكت دونيا رأسها بإشارة النفي. فهمس يسألها يائساً:

- ولن... تستطيعي... أن تحبيني في يوم من الأيام؟

فأجابته هامسة:

- لا، لن أستطيع ذلك في يوم من الأيام!

نشبت في نفس سفدريجايلوف، خلال لحظة من الزمن، معركة خرساء رهيبة. كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل إلى وصفها. وفجأة سحب يده، واستدار، وأسرع يبتعد نحو النافذة، ولبث هنالك جامداً لا يتحرك.

انقضت برهة أخرى.

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه الأيسر، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة، قائلاً لها:

- إليك المفتاح! خذيه وانصرفي بسرعة!

كان ينظر إلى النافذة في عناد، لا يحوِّل بصره عنها يمنةً ولا يسرة.

اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح. فقال سفدريجايلوف مكرراً، دون أن يتحرك أو أن يلتفت:

- بسرعة! بسرعة!

ولكن كلمة «بسرعة» هذه كان لها جرس رهيب!

لاحظت دونيا ذلك. وتناولت المفتاح، واندفعت نحو الباب ففتحته، وهرعت تخرج من الغرفة. فما هي إلا دقيقة واحدة حتى كانت تجري كالمجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س....

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة حوالي ثلاث دقائق. ثم التفت ببطء، ونظر حواليه، ومرَّ بيده على جبينه في رفق. إن ابتسامة غريبة تعقف الآن شفتيه، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير ويأس شديد. وكان الدم قد جف على يده، فنظر إليه نظرة تفيض بغضاً، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه. ووقع بصره على المسدس الذي كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض. إنه مسدس صغير للجيب، من طراز قديم ذي ثلاث طلقات. إن فيه الآن طلقتين وكبسولة. ما يزال يمكن استعماله مرة. فكَّر سفدريجايلوف لحظة، ودسّ المسدس في جيبه، ثم تناول قبعته وخرج.

الفصل السادس

قضى السهرة حتى الساعة العاشرة في الحانات والمحلات المشبوهة متنقلاً بينها. وعثر في مكان ما على كاتيا. كانت كاتيا ما تزال تغني أغنيتها المألوفة التي تتحدث عن «الطاغية الحقير».

الذي أخذ يقبّل كاتيا.

فسقاها سفدريجايلوف وسقى صاحبها الصغير، العازف على الأرغن اليدوي، وسقى الخدم والمغنين، واثنين من صغار الموظفين جذبه إليهما أن أنفيهما معوجّين، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً إلى اليمين، وثانيهما كان أنفه منحرفاً إلى الشمال، فلفت هذا الأمر انتباه سفدريجايلوف وخطف بصره. وقاده الموظفان أخيراً إلى حديقة ملاهٍ، فدفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب.

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر عمرها ثلاثة أعوام، وثلاث شجيرات صغيرة، وكان في الحديقة كذلك مبنى أُطلق عليه اسم «فوكسهول»[80] من باب التفخيم وما هو في حقيقته إلا خمارة صغيرة يُشرب فيها الشاي أيضاً. إن في الخمارة عدة موائد صغيرة، وكراسي خضراء؛ وفيها جوقة هزيلة من المغنين، وألماني بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من ممثل مهرّج أحمر الأنف، لكن وجهه يظل

كالحاً إلى أقصى حد، لا يدري المرء كثيراً لماذا)، وكانت مهمة الجوقة والألماني تسلية الزبائن.

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك، حتى أوشك التشاجر أن يصير إلى تماسك بالأيدي. واحتكم المتشاجرون إلى سفدريجايلوف، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر، ولكنه لم يفلح في ذلك من شدة صراخ هؤلاء وأولئك. أغلب الظن فيما أشارت إليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً، ولكن السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه. واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول»، وقد تمّ تعرفها، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة. فما كان من سفدريجايلوف إلا أن دفع ثمن الملعقة، ونهض، وغادر حديقة الملاهي.

كانت الساعة تقترب من العاشرة. لم يشرب سفدريجايلوف خمرة طوال تلك السهرة، وإنما كان يكتفي بطلب كأس من الشاي؛ وحتى هذا إنما كان يفعله من باب التقيد بالشكل. وكان الحر أثناء ذلك ثقيلاً والسماء مكفهرة. وفي نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم كبيرة من جميع أطراف الأفق، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول. كان الماء لا يتساقط قطرات، وإنما هو شلالات تضرب الأرض. وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة وومضة. وابتل سفدريجايلوف بالماء حتى العظام، ووصل أخيراً إلى بيته، فأغلق على نفسه الباب، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته، ومزق بعض الأوراق، حتى إذا فرغ من دسّ أمواله كلها في جيبه، بدا له أن يبدِّل ملابسه، لكنه بعد أن ألقى نظرة إلى النافذة وأصاخ بسمعه إلى هزيم الرعد وتساقط المطر، حرّك يده بإشارة تنم على عدم الاكتراث، وتناول قبعته، وخرج دون أن

يغلق الباب وراءه، ومضى إلى صونيا رأساً، فوجدها في غرفتها.

لم تكن صونيا وحدها، وإنما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة. كانت صونيا سيميونوفنا تسقيهم شاياً. واستقبلت سفدريجايلوف بصمت واحترام، ونظرت مدهوشة إلى ثيابه المبتلة، لكنها لم تقل كلمة واحدة. أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالب.

جلس سفدريجايلوف إلى المائدة، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت، وتهيأت لأن تصغي إليه خجلة وجلة.

قال سفدريجايلوف:

- صونيا سيميونوفنا، ربما سافرتُ إلى أمريكا، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا، لذلك جئت أتخذ بعض الإجراءات. لقد رأيتِ اليوم تلك السيدة، أليس كذلك؟ أنا أعرف ما قالته لك، فلا حاجة إلى أن ترويه لي (هنا حرَّكت صونيا يدها بإشارة واحمر وجهها). إن لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً. على كل حال، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير، فإن مستقبلهم مؤمن، لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يؤول إليهم، وأخذت به إيصالات. خذي، إليك هذه الإيصالات. بهذا تُسوَّى المسألة. وإليك ثلاث سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل. هذه لك أنت. أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لا يعلم به أحد، مهما تسمعي من كلام. سوف تحتاجين إلى هذا المال يا صونيا سيميونوفنا، فإن الحياة التي عشتها حتى الآن سيئة، ولن تضطري إليها بعد اليوم.

تمتمت صونيا تقول:

- غمرتني بنعم كثيرة... أنا... والأيتام... والمرحومة أيضاً... وإذا لم أشكر لك جميلك شكراً كافياً حتى الآن فلا يذهبنَّ بك الظن خاصة إلى أن...

- رحماك! رحماك!

وتابعت صونيا كلامها فقالت:

- أما هذا المال يا أركادي إيفانوفتش، فإنني أشكره لك أجزل الشكر... لكنني لست في حاجة إليه. إنني وقد أصبحت وحدي أستطيع أن أجني رزقي. لا تحسبن هذا عقوقاً. وما دمت إنساناً محسناً إلى هذا الحد، فإن هذا المال يمكن دائماً أن...

- بل هذا المال لك أنت يا صونيا سيميونوفنا، وكفى كلاماً، أرجوك! ليس في وقتي متسع. لك أنت، سيكون هذا المال مفيداً. لا يملك روديون رومانوفتش إلا أن يختار أحد أمرين: فإما رصاصة في رأسه، وإما طريق فلاديمير[81].

نظرت إليه صونيا مروّعة وأخذت ترتجف. وتابع هو كلامه يقول:

- لا تقلقي! لئن كنت أعرف كل شيء، فلأنه هو الذي روى لي كل شيء!... وإذ كنتُ امرءاً قليل الثرثرة، فلن أذكر لأحد شيئاً. أنت أسديت له في ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً، هي أن يشي بنفسه ويعترف بجريمته. وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله. وإذا كان مصيره هو الرحيل إلى سيبيريا، فسيرحل إليها، وستتبعينه أنت، أليس كذلك؟ فأنت إذاً في حاجة إلى مال. سوف تحتاجين إلى هذا المال من أجله هو، هل تفهمين؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأنني أعطيه له. ثم إنك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعي الديون التي لها على أسرتك. هذا سمعته بنفسي. ولكن لماذا يا صونيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأنٍ أو تروٍ؟ إن كاترينا ايفانوفنا هي المدينة للألمانية، لا أنت. فكان ينبغي لك أن لا تحفلي بهذه الألمانية وأن لا تكترثي لها. ما هذا أسلوب سليم في الحياة! على كل حال، إذا استجوبوكِ في يوم من الأيام غداً أو بعد غد مثلاً إذا استجوبوك عني، أقصد عن أمري (وسيستجوبونك عن أمري حتماً)، فإياك أن تذكري شيئاً عن زيارتي هذه خاصةً، وإياك أن تتيحي لأحد أن

يفترض أنني أعطيتك مالاً. والآن، إلى اللقاء!

قال سفدريجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً:

- تحياتي لروديون رومانوفتش... بالمناسبة: اخزني المال عند السيد رازوميخين إلى حين الحاجة إليه. تعرفين السيد رازوميخين، أليس كذلك؟ تعرفينه حتماً! إنه فتى طيب شهم! فاحملي إليه المال غداً، أو... حين يأزف الوقت! وإلى أن يأزف الوقت، خبئيه عن الأنظار.

كانت صونيا قد نهضت هي أيضاً وشخصت ببصرها إليه مذعورة. ودَّت لو تقول شيئاً ما، ودَّت لو تطرح سؤالاً، لكنها لم تجرؤ في البداية، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمر إلقاء السؤال. وقالت أخيراً:

- لكن... لكن... هكذا... هكذا.... تخرج... تحت هذا المطر؟

- هه! هل يخشى المرء المطر إذا كان يتهيأ للسفر إلى أمريكا؟ استودعك الله يا صونيا سيميونوفنا العزيزة. أتمنى لك أن تعيشي طويلاً، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين. بالمناسبة: أبلغي السيد رازوميخين تقديري. قولي له بالنص: إن أركادي ايفانوفتش سفدريجايلوف يبلغك تقديره. لا تنسي.

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا في جمود وذعر، وقد استولى عليها شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث.

وقد عُرف فيما بعد أن سفدريجايلوف، في ذلك المساء نفسه، بعد الساعة الحادية عشرة، قام بزيارة أخرى، زيارة بعيدة جداً، غير متوقعة أبداً. كان المطر ما يزال يهطل غزيراً. وها هو ذا، في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين، يدخل البيت الصغير الذي يقطنه أهل خطيبته في الخط الثالث من فاسيليفسكي اوستروف في شارع ماليبي[82]. كان

مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً. لقد طرق الباب مدة طويلة، ففتحوا له آخر الأمر، فأحدث ظهوره في البداية اضطراباً كبيراً؛ لكن أركادي ايفانوفتش قد أوتي موهبة حُسْن الحيلة ولباقة السلوك وجمال التصرف متى شاء، لذلك فإن الظن الأول الذي قام في وهم أهل خطيبته (وهو ظن لطيف، فقد اعتقدوا أنه سكر في مكان ما فأصبح لا يدري ماذا يفعل)، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه. وبادرت أم الخطيبة، المرأة الحنون الشفوق العاقلة، فجرّت مقعد الأب الهرم الخرف العاجز وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها بإلقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (إن هذه المرأة لا تلقي في يوم من الأيام أسئلة مباشرة: إنها تبدأ بأن تبتسم وتأخذ تفرك يديها، فإذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادي ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذي ينوي تحديده للاحتفال بزواجه، طفقت تسأله بكثير من الشوق والشراهة عن باريس، وعن حياة المجتمع الراقي هناك، ثم لا تصل إلى فاسيليفسكي أوستروف وإلى ما يجب أن يحدث فيها إلا رويداً رويداً). ولقد كان يمكن، في ظروف غير هذه الظروف، أن يصغي سفدريجايلوف إلى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم، لكنه بدا في هذه المرة نافد الصبر جداً، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أُعلم، منذ أولى الكلمات التي جرى بها الحديث، أنها قد نامت). فقال لها أركادي ايفانوفتش بدون لف أو دوران أن عليه، بسبب ظروف طارئة استثنائية، أن يغادر بطرسبرج إلى حين، وإنه إذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل، أوراقاً مالية وسندات، راجياً أن تقبلها هدية منه إليها، وإنه على كل حال كان ينوي منذ مدة طويلة أن يقدم إليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج.

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء في منتصف الليل تحت وابل المطر. ومع ذلك لم يعترض أحد أي اعتراض. وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت في هذه المرة معتدلة جداً، على

خلاف العادة. وتدفق الشكر في مقابل ذلك حاراً عنيفاً، حتى أن الأم العاقلة ذرفت في سبيل الشكر دموعاً. ونهض أركادي ايفانوفتش، وابتسم وقبَّل خطيبته، وربَّت على خدها في رفق ولين، وأكد مرة أخرى أن غيابه لن يطول؛ وإذ لاحظ في عيني الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً في آن واحد، وتساؤلاً أبكم، فكّر لحظة، وقبّلها مرة أخرى، وشعر في الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدَّر أن الأم العاقلة ستخبئ الهدية في الحال مقفلة عليها بالمفتاح. وخرج آخر الأمر، تاركاً جميع مَنْ في البيت في حالة اهتياج شديد خارق. وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدريجايلوف رجل ذو سلطان، رجل له أعمال وصلات، وأنه على جانب عظيم من الثراء الطائل، والله يعلم ما الذي خطر بباله لكنه قد عنَّ له أن يسافر فسافر، ثم عنَّ له أن يهب مالاً فوهب، فلا داعي إلى التعجب والدهشة والحالة هذه. صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب، ولكن الإنجليز، مثلاً، أكثر شذوذاً من الآخرين وأغلب الظن أن هذه خصلة من خصالهم وعادة من عاداتهم. إنها الشذوذ والتفرد، أليس كذلك؟ ثم إن أبناء المجتمع الراقي لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم، فهم لذلك لا يتحرجون. حتى أن من الممكن أن يكون أركادي ايفانوفتش قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً. ولكن ينبغي خاصةً أن لا تقال كلمة واحدة لأي إنسان عن هذه «المغامرة»، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذي قد تنقلب إليه هذه الأمور كلها. ويجب إخفاء المال والإقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت في المطبخ ولم تر وتسمع شيئاً... نعم، يجب خاصةً أن لا يقال لأحد شيء... هست... هست!... ما من كلمة إذاً، لا لتلك الذبابة الحقيرة ريسليخ، ولا للآخرين، وهلم جرا، وهلم جرا...

وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح. لكن الخطيبة مضت تنام قبل ذلك بكثير، وهي تشعر بشيء من الدهشة وكثير من الحزن.

وفي أثناء ذلك، عندما دقت الساعة منتصف الليل، كان سفدريجايلوف يجتاز جسر «. . . كوف» في اتجاه «حي بطرسبرجسكي». كان المطر قد انقطع عن الهطول، لكن الريح ما تزال تزمجر. أخذ سفدريجايلوف يرتعد من البرد، ونظر خلال دقيقة من الزمن، بنوع من الاستطلاع الخاص، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم، نظر إلى المياه السوداء، مياه نهر «نيفا الصغير». لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو. فاستدار، واتجه نحو شارع «س. . . .».

ظل سفدريجايلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة، في ذلك الشارع الذي لا نهاية له، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع. إنه حين مرَّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح في مكان ما، على اليمين، فندقاً لا بد أن اسمه «فندق أندريهنوبل» إذا صدقت ذاكرته. إن هذا الفندق هو في هذا الحي التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس. هو مبنى طويل من خشب، أسود من كثرة السنين التي تعاقبت عليه، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل، وكانت تُلاحظ فيه حركة وجلبة.

دخل سفدريجايلوف الفندق، فالتقى في الدهليز بخادم بائس المظهر رثّ الثياب، فطلب منه غرفة. بعد أن ألقى عليه الخادم نظرة، عدل قامته، وقاده فوراً إلى حجرة نائية لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلّم عند آخر الممر. لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية، فجميع الغرف مشغولة.

نظر الخادم إلى سفدريجايلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة. فسأله سفدريجايلوف:

- هل عندكم شاي؟

- عندنا.

- ماذا عندكم أيضاً؟

- لحم عجل، فودكا، مقبّلات.

- جئني بلحم عجل وشاي.

سأل الخادم متردداً بعض التردد:

- ولست في حاجة إلى أي شيء آخر؟

- لست في حاجة إلى أي شيء آخر.

فانصرف الخادم وقد خاب أمله:

حدّث سفدريجايلوف نفسه قائلاً: «لا بد أنه محل مريب. كيف لم يخطر هذا ببالي؟ آ... لا شك أن هيئتي أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة في الطريق. ليتني أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل!»

وأشعل سفدريجايلوف شمعة وفتّش الغرفة تفتيشاً دقيقاً. هي حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفدريجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسي عتيق. أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكت فيها المسامير التي تربط بعضها ببعض؛ وهي مغطاة بورق ملطخ مهترئ ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميز فيه أي رسم، ولا يكاد يرى منه إلا لون أرضيته الصفراء. وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة، شأنَ جميع الحجرات التي تقع تحت الأسطح، غير أن السلّم يمر هنا فوق الزاوية المقطوعة.

وضع سفدريجايلوف الشمعة، وجلس على السرير، وغرق في أفكاره وخواطره. غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو في الغرفة المجاورة وتصل إلى حد الصراخ أحياناً، فما لبثت أن استرعت انتباهه. إن هذه الأصوات لم تنقطع في الواقع منذ دخل. أصاخ سفدريجايلوف بسمعه: كان هناك شخص يقرِّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكي. ليس يميّز المرء إلا صوتاً واحداً.

نهض سفدريجايلوف، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة، فسرعان ما أضاء شق صغير في الجدار، فاقترب سفدريجايلوف منه ونظر. الغرفة أوسع قليلاً من غرفته، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشعر محمر الوجه، بدون سترة، قد وقف متخذاً وضع الخطيب، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه، وأخذ يلطم صدره لائماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقي تافه ليس له أي رتبة، وليس له أي كرامة اجتماعية، مذكِّراً إياه بأنه هو الذي أخرجه من الماء، ففي وسعه أن يعود فيغطسه في الماء متى شاء، وأن عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله. وكان الرجل الثاني الذي ينصَبُّ عليه هذا التقريع وهذا التأنيب جالساً على كرسي، وهيئته هيئة رجل يودّ لو يعطس لكنه لا يفلح في ذلك على أي نحو من الأنحاء، وهو يلقي على الخطيب من حين إلى حين نظرة مضطربة بلهاء. كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الإطلاق، بل لا يسمع، كما يبدو، من الأمر شيئاً.

وعلى المائدة، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفئ، كان يوجد أيضاً إبريق فودكا يكاد يكون فارغاً، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة، وخبز، وخيار مخلل؛ ورغم أن الشاي قد شُرب منذ مدة طويلة حتماً، فإن الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة.

تأمل سفدريجايلوف هٰذه اللوحة بانتباه، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث، وعاد يجلس على السرير.

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاي، لم يستطع أن يمتنع عن سؤال سفدريجايلوف مرة أخرى أليس في حاجة إلى شيء آخر، فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً إلى غير رجعة. وانقضّ سفدريجايلوف على الشاي التماساً للدفء، فاحتسى منه كأساً، لكنه لم يستطع أن يذوق اللحم، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أي طعام.

واضح أن الحُمّى كانت قد ألمّت به. وخلع معطفه وسترته، واضطجع على السرير، وتدثّر بالبطانية. كان مستاءً ممتعضاً. «إن من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف»، كذلك قال يحدث نفسه، وضحك ساخراً.

كان جو الغرفة خانقاً، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً، وكانت الريح في الخارج تزمجر، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء في مكان بأحد أركان الغرفة، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فئران وجلد.

لبث مضطجعاً غارقاً في أحلامه. كانت الخواطر تتعاقب في خياله، يطرد بعضها بعضاً. كان كمن يريد أن يتشبث بشيء ما في الخيال بكل ما أوتي من قوة. قال يحدث نفسه: «لا شك أن تحت النافذة حديقة تهزّ الريح أشجارها فتهمهم! آه... لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة في الظلام! يا له من إحساس كريه!». وفي هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكي، مشمئزاً. وتذكر عندئذ مروره بجسر «... كوف» على نهر «نيفا الصغير» أيضاً، فأحس بتلك البرودة نفسها التي أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر. «أنا لم أحب الماء يوماً، ولا مناظر الطبيعة»، بهذا حدث نفسه، ثم إذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحكة سخرية. قال يخاطب نفسه: «يخيل إليّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغي أن لا تثير اهتمامي اليوم وأن تدعني غير مكترث بها أي اكتراث، فما بالي أُعنى بها أشد العناية؟ ألا أنني لأشبه الحيوان الذي يهمه أشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً

مناسباً. . . في حالة كهذه الحالة! لقد كان الأفضل أن أعود إلى جزيرة بتروفسكي! لكنني وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة! هئ هئ هئ! إني لأكاد أنشد الأحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة! بالمناسبة: لماذا لا أطفئ الشمعة؟»

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها، وإذ لم ير ضوءاً في شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال: «نام جيراني! هلمي يا مارفا بتروفنا! الآن، الآن إنما ينبغي لك أن تجيئي، تفضلي، فالظلام دامس، والمكان مناسب، واللحظة فريدة. ومع ذلك لا تجيئين اليوم!»

وتذكّر فجأة، دون سبب ظاهر، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا في حماية رازوميخين. قال يحدث نفسه: «حقاً. . . لا بد أنني قلت ذلك من باب التبجح، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً! إنه لماكر، هذا الفتى راسكولنيكوف! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته. ولكي يصبح المرء ماكراً كبيراً لا بد له من وقت، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات. وهو الآن مسرف في حب الحياة. من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء. ولكن ما بالي أهتم به! ليذهب إلى الشيطان! ألا فليفعل ما يشاء، فذلك لا يعنيني!»

وظل سفدريجايلوف عاجزاً عن النوم. وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل، فسرت في جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة. قال يخاطب نفسه وقد ثاب إلى صوابه: «لا، يجب عليَّ الآن أن أتخلص من هذا كله. يجب أن أفكر في شيء آخر. مضحك أمري. . . مضحك: إنني لم أكره أحداً كرهاً شديداً في يوم من الأيام، بل إنني لم تراودني رغبة قوية في الانتقام قط. هذه علامة سيئة! لا ولا أحببت يوماً أن أتشاجر، وأن أندفع وأتحمس! هذه أيضاً علامة سيئة. . . ولكن ما أكثر الوعود التي بذلتها لها منذ قليل! مع ذلك، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر، من يدري. . . »

وصمت سفدريجايلوف وكزَّ أسنانه. وعرضت له صورة دونيا من جديد، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرةً واحدة دون أن تستطيع إظهار أية مقاومة. لقد قصد هو نفسه أن يردَّها إلى إدراك الواقع! وتذكر أيضاً أنه شعر في تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرأفة بها، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً شديداً. «سحقاً لهذه الخواطر!... يجب التخلص من هذا كله! يجب التخلص!»

وأخذ النعاس يدبُّ إلى جفنيه، وأخذت رعدة الحمى تهدأ. وتراءى له فجأة أن تحت البطانية شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه. فارتعش، وقال: «آ... لكأنها فأرة! طبعاً... لأنني تركت اللحم على المائدة!» كره كرهاً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف البطانية عن جسمه، وأن ينهض، وأن يتعرض للبرد. لكن شيئاً لامس قدمه مرةً أخرى ملامسة كريهة مزعجة، فرمى عنه البطانية وأشعل شمعة. ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى، فلم يجد شيئاً. حتى إذا نفض البطانية قفزت إلى السرير فأرة على حين بغتة، فأسرع يريد القبض عليها، ولكن الفأرة أخذت، دون أن تغادر السرير، ترسم خطوطاً متعرجة في كل اتجاه، وتتملص من بين أصابعه، وتركض على ذراعه، ثم اندست تحت المخدة. فرمى المخدة على الأرض، ولكنه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيء يثب عليه، ويتنطط على طول قامته، ويصبح فوق ظهره، تحت قميصه. فارتعش سفدريجايلوف ارتعاشةً عصبية واستيقظ من نومه.

كان الظلام دامساً وهو لا يزال راقداً على السرير، متكوماً تحت البطانية. وكانت الريح ما تزال تصفرُ تحت النافذة.

قال لنفسه غاضباً: «يا له من حلمٍ وسخ!»

ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره إلى النافذة. «الأفضل

أن لا أنام البتة». على هذا حزم أمره. وكان يهبّ من النافذة هواء رطب بارد، فشد سفدريجايلوف البطانية وتدثر بها دون أن يبارح مكانه. ولم يشعل الشمعة. كان لا يفكر في شيء، ولا يريد أن يفكر في شيء على كل حال. لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله، وكانت شذرات أفكار تمرّ في ذهنه بفوضى، لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل. لقد أصبح في ما يشبه النوم. هل يرجع هذا إلى البرد والظلمات والرطوبة والريح التي تزمجر تحت النافذة وتهز الأشجار؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ أشكالاً غريبة، وأخذت توقظ في نفسه رغبة، وكانت أزهارٌ تتراءى له بغير انقطاع. هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره. نهار مضيء، دافئ، يكاد يكون حاراً. هو يوم عيد العنصرة. منزل ريفي أنيق ثري، على الطراز الإنجليزي، ينتصب في وسط مروج مزهرة، وتحيط به أحواض موقوفة على زراعة الأزهار. نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات مدخل المنزل غارقةً تحت الورود. وعلى طول سلّم كبير، مضيء نضير، مغطى بسجادة فخمة، تترتب أواني خزف صيني تضم أزهاراً نادرة. ولاحظ سفدريجايلوف بوجه خاص، على حواف النوافذ، في أوان ملأى بالماء، باقات نرجسات بيض نضرة تميل على سيقانها الخضر الطويلة القوية وتنشر عبقاً نافذاً. كان سفدريجايلوف يود أن لا يبتعد عن هذه الأزهار، ولكنه صعد السلّم ودخل قاعةً كبيرة عالية السقف. هناك أيضاً كانت الأزهار منتشرة في كل مكان: على النوافذ، قرب الباب الكبير الذي يطل على الشرفة، وفي الشرفة نفسها. أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر. مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها إلى القاعة أنسام لطيفة. العصافير تغرّد تحت النوافذ. ولكن في وسط الغرفة، فوق منضدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذي يُستعمل للموتى، كان هناك تابوت. إن التابوت منجّد بنسيج من ساتان نابولي السميك، ومحفوف بابزيم سميك، أبيض اللون أيضاً. إن حبالاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات. وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدي ثوباً من نسيج التول الأبيض، قد عقدت ذراعيها على

صدرها وشدت إحداهما إلى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان في المرمر. غير أن شعرها المبعثر، الأشقر، رطب مخضل. وعلى جبينها إكليل من الزهر يطوقه. إن وجهها الذي يظهر من جانب، ويعبِّر عن صَرَامة، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً من مرمر أيضاً، ولكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له، حزن ليس من الطفولة، وشَجَن كبير. إن سفدريجايلوف يعرف هذه البنية. لم يكن إلى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء، ولا شموع مشتعلة، وليست تُتلى عليها صلوات. إن هذه البنية قد انتحرت غرقاً. عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً، لكن قلبها قد تحطم وهي في تلك السن: لقد سعت إلى الموت، لأنها وقعت ضحية إهانة روَّعت ضميرها إلى الأبد، وملأت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة، تلك النفس الملائكية الطاهرة، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة، صرخة لم تُسمع، اختنقت بوقاحة في الظلمات والبرد والجليد الذائب وزمجرات الريح...

استيقظ سفدريجايلوف من نومه، فترك سريره واتجه نحو النافذة، وتلمس المزلاج ففتحها، فاندفعت إلى الحجرة الصغيرة هبةُ ريح صفعت خده وصدره الذي لا يغطيه إلا القميص، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج. وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل روَّاد الفندق يقضون فيها أوقات مبهجة ومسرة أحياناً، فتغنّى فيها الأغاني ويُقَدَّم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً. أما الآن فإن قطرات ماء تسيل على النافذة آتيةً من الشجيرات المحيطة، وإن الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميّز إلا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمة.

لبث سفدريجايلوف خمس دقائق، مائلاً إلى أمام، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة، محدِّقاً إلى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره. وفجأة، في وسط الظلمات، دوت طلقة مدفع أولى، فثانية.

قال سفدريجايلوف يحدِّث نفسه: «هذا هو الإنذار! المياه تعلو[83]، فما أن يطلع الصبح حتى تتدفق في الشوارع فيضانات تغرق الأقبية.

الفئران ستطفو على سطح الماء ميتة. وتحت المطر والريح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم إلى الطوابق العليا، وقد تبللت أجسامهم وانهدّت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون. . . لكن كم الساعة الآن؟»

وفيما كان سفدريجايلوف يفكِّر في هذا، إذا بساعة جدارٍ في مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق.

قال سفدريجايلوف لنفسه: «آ. . . بعد ساعة يطلع الصبح. فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار؟ سأنصرف حالاً. سأمضي قدماً إلى جزيرة بتروفسكي، فأختار هناك، في مكان ما دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات. . .» وابتعد عن النافذة قليلاً، فأغلقها، ثم أشعل شمعة، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته، ومضى إلى الممر حاملاً شمعته، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذي لا بد أنه نائم في ركن من الأركان التي تودع فيها الأشياء البالية وبقايا الشموع. كان سفدريجايلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق. وقال يحدِّث نفسه: «هذه خير لحظة. لا يمكن اختيار لحظة أفضل!»

لبث يطوف في الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد. فلما هَمَّ أن ينادي اكتشف على حين فجأة، في ركن مظلم، بين خزانة قديمة وباب، شيئاً غريباً، شيئاً بدا له حياً. فمال على الشيء والشمعة بيده، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير، ترتدي ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الخرق التي تغسل بها الأرض، وهي ترتجف من البرد وتبكي. لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفدريجايلوف، ولكنها حدَّقت إليه بعينيها السوداوين الكبيرتين مبهوتة. وكانت تشهق من حين إلى حين، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء وهدأ آخر الأمر، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة. كانت الطفلة شاحبة الوجه مرهقة الهيئة، وكان واضحاً أن البرد

قد بلغ منها العظام. «ولكن كيف أمكن أن تقع في هذا المكان؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت في ركن ولم تنم طوال الليل»!

أخذ سفدريجايلوف يستجوبها. فانتعشت الطفلة فجأة، وأسرعت تتدفق في الكلام فتروي بلغتها الطفولية قصةً فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً.

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف؛ وفي وسع المرء أن يحزر مما روته وقَصَّته أنها ليست محبوبة، وأن أمها (وهي طباخة تظل دائماً سكرى، ولعلها طباخة هذا المحل) تروِّعها وتضربها، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة؛ وأنها اضطرت أن تختبئ مدة طويلة في مكان ما من الحوش، تحت المطر، ثم استطاعت أن تتسلل إلى هذا المكان خلسةً، فاختبأت وراء الخزانة، وقضت الليلة هنالك مرتعدةً من البرد والظلام مرتجفة باكية، خائفة من ضربات أمها.

أخذ سفدريجايلوف الطفلة بين ذراعيه، وعاد إلى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسها. كان حذاءاها مقطَّعَيْن، مبتلَّيْن بالماء ابتلالاً شديداً لكأنهما قد نُقعا في غدير ليلة كاملة. ولم يكن لها جوربان.

فلما فرغ سفدريجايلوف من خلع ملابسها عنها، أرقدها ودثَّرها بالبطانية حتى العنق، فما لبثت أن نامت فوراً. وما أن انتهى من هذا حتى عاد يغرق في أحلامه المظلمة وخواطره القاتمة.

قال يحدِّث نفسه في غضب وحنق: «هذا ما كنت في حاجة إليه أيضاً! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصة! يا للحماقة!». وتناول الشمعة مغتاظاً ليمضي باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة. فلما هَمَّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها. رفع البطانية

محاذراً. كانت البنيّة تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً. لقد دفأتها البطانية، حتى أن خديها قد استردا لونهما منذ الآن. ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يُلاحظ في الأطفال الآخرين. فقال سفدريجايلوف لنفسه: «إن بها حمّى». لكأنها قد شربت، لكأنها قد سُقيت من الخمر كأساً كبيرة مترعة. إن شفتيها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين. «لكن ماذا؟ ما هذا؟». لقد رأى سفدريجايلوف فجأة أن أهداب الصبية، الطويلة السوداء، تختلج وترتعش كأنها تنفتح، ورأى من تحت الأهداب نظرةً ماكرة حادة ليست نظرة أطفال، تتسلل إليه، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم. نعم، ذلك ما كان... وانفرجت شفتا الصبية عن ابتسامة، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة. ولكن محاولة الكظم تنتهي، فتنطلق الضحكة. إنها ضحكة صريحة، وقحة، فيها تحدٍ واستفزاز، تتفجر في وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة. هو الآن وجه العهر والانحلال، وجه وقح زايله الحياء، وجه امرأة مثل «كاميليا»[84]، وجه مومس تتعاطى البغاء في سبيل المال، مومس فرنسية. وها هي ذي البنت، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه، ها هي ذي تفتح عينيها، وتلفه بنظرة عنيفة محرقة، في غير تحفظ أو احتشام. إن عينيها تناديانه، وتضحكان... وإن هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً في هذه الضحكة، وفي هاتين العينين، وفي كل هذا الوجه الذي أصبح لا يعبر إلا عن الرجس والعار. «وكيف؟ أفي هذه السن؟ أفي الخامسة من العمر؟»، بهذا تمتم سفدريجايلوف مذعوراً. ولكن ها هي ذي تدير نحوه وجهها المتقد، وتمد إليه ذراعيها، فيقول مروعاً: «آه... يا للمعلونة!»، ويشهر عليها ذراعه... ولكنه استيقظ من نومه في تلك اللحظة.

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالبطانية. ولم تكن الشمعة مشتعلة، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ.

«كوابيس طوال الليل!». كذلك قال سفدريجايلوف، ثم نهض

منتصباً على سريره في غيظ وحنق. كان يحس بأنه مُحَطَّم. إنه يشعر بوجع في جميع عظامه. وفي الخارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية. لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة. لقد تأخر في النوم!

وقام سفدريجايلوف، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين؛ وبعد أن تلمَّس مسدسه في جيبه، أخرجه فتثبت من الكبسولة، ثم جلس، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة. حتى إذا أعاد قراءة الأسطر التي كتبها، رجع يسترسل في أحلامه من جديد، متكئاً بكوعيه على المائدة. المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه. وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التي لم يمسسها. ظل سفدريجايلوف ينظر إلى الذباب برهة طويلة، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التي كانت طليقة. ولكنه لم يفلح في ذلك رغم الجهود الكثيرة التي بذلها. وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل الشيِّق فثاب إليه صوابه، وارتجف، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة. فما هي إلا لحظة حتى كان في الشارع.

إن ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة. وسار سفدريجايلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة، في اتجاه نهر «نيفا الصغير». كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل، وعن تخيل جزيرة بتروفسكي، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التي يتقاطر منها الماء، ثم الدغل المقصود!... واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحّص المنازل من حوله ليصرف تفكيره إلى شيء آخر. لم يكن في الشارع أحد من المارة، ولم يكن فيه أيّ عربة. والمنازل الخشبية الصغيرة، الصفراء الفاقع لونها، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة، قذرة المظهر كالحة الهيئة.

أخذ سفدريجايلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا فيه. فإذا وقع بصره على لافتة دكانٍ من دكاكين البضائع والخضراوات بين الحين

والحين، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متفحصاً.

ها قد انتهى الشارع المبلَّطة أرضه بالخشب. لقد وصل سفدريجايلوف إلى مبنى كبير من حجر. وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع، واضعاً ذيله بين قائمتيه. وهذا رجل سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر، قد رقد على الرصيف عرضاً، لابساً معطفاً سميكاً، واضعاً وجهه على الأرض. نظر سفدريجايلوف إليه ثم تابع طريقه.

وظهر له برج كبير على شماله فجأة. فهتف يقول لنفسه: «آ. . . وجدت المكان المناسب. علام الذهاب إلى جزيرة بتروفسكي؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد شاهد رسمي». وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة، ثم انعطف يدخل شارع «س. . .». هناك كان ينتصب المبنى الذي يعلوه برج[85]. وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجلٌ قصير القامة متدثر بمعطف رمادي اللون من معاطف الجنود، وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل[86]. رشق الرجل سفدريجايلوف بنظرة باردة تعبِّر عن النعاس. إن في وجهه تلك الكآبة الساخطة التي عمرها مئات السنين، تلك الكآبة التي تطبع في كثير من المرارة قسمات وجوه جميع الناس الذين ينتمون إلى ملّة اليهود دون استثناء. وتفحص كل من سفدريجايلوف وآخيل صاحبه مدة من الوقت في صمت. ورأى آخيل أخيراً أن من غير الطبيعي أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً، أن يقف على بعد ثلاث خطوات منه، ويأخذ يحدق إليه ويتفرّس فيه دون أن ينطق بكلمة. فقال يسأله، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك:

- هيه! عمّ تبحث؟

فأجابه سفدريجايلوف:

- لا أبحث عن شيء أيها الأخ. صباح الخير.

- امضِ في طريقك!

- هل تعرف أيها الأخ؟ أنا مسافر إلى الخارج.

- إلى الخارج؟

- إلى أمريكا.

- إلى أمريكا؟

تناول سفدريجايلوف مسدسه وحشاه. فرفع آخيل حاجبه. وصاح يقول:

- ما هذا المزاح؟ ليس هذا هو المكان...

- ولماذا لا يكون هو المكان...

- لأنه ليس هو المكان...

- دعك يا صاحبي، لا ضير... هذا المكان مناسب مع ذلك. فإذا سئلت فقل إني سافرت إلى أمريكا.

قال سفدريجايلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن. فانبرى آخيل يقول له مندفعاً محملقاً مزيداً من الحملقة:

- ممنوع هنا. ليس هذا هو المكان!

وضغط سفدريجايلوف على الزناد.

الفصل السابع

في ذلك اليوم نفسه، عند المساء، بين الساعة السادسة والساعة السابعة، كان راسكولنيكوف يقترب من مسكن أمه وأخته، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميخين في عمارة باكلايف. إن مدخل السلم يطل على الشارع. كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً، متباطئ الخطو وكأنه يسأل في دخيلة نفسه «أأدخل أم لا؟». ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال، فقد اتخذ قراره وعزم أمره. كان يقول لنفسه: «إنهما، على كل حال، لا تعرفان شيئاً حتى الآن، وقد ألفتا أن تعدّاني شاذاً. . .» كانت ثيابه في حالة رهيبة، فإنه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل. وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والطقس الرديء والإجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. كان قد قضى الليل وحيداً لا يعلم إلا الله أين، ولكنه كان قد عقد العزم على إنفاذ الأمر.

طرق الباب، ففتحت له أمه. كانت دونيا قد خرجت. وحتى الخادمة كانت غائبةً في هذه الساعة. خرست بولخيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر، ثم أمسكت يده وقادته إلى الغرفة. وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت:

- آ. . . هاأنت ذا أخيراً! لا تزعل يا روديا إذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكيةً. إنني أضحك. إنني لا أبكي. أتظن أنني أبكي؟ لا، أنا سعيدة. ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتي. دموعي تنسكب لغير سبب. . . منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأتفه أمر من الأمور. اجلس يا حبيبي، لا بد أنك متعب، أنا أرى هذا واضحاً! آه. . . ثيابك متسخة جداً! . . .

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال:

- كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه!

فاندفعت بولخيريا السكندروفنا تقول والبكاء والفرح يختلطان في كلامها:

- لا، لا، لا يذهبنّ بك الظن إلى أنني استجوبك، على عادتي القديمة المتعبة. اهدأ بالاً، فإنني أفهم الآن كل شيء. لقد تعلمت عادات الناس هنا، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك. وأيقنت أنه ليس من حقي أن أحاول معرفة أفكارك، وأن أحاسبك. الله يعلم ما هي الخطط والشؤون التي تملأ رأسك، وما هي الخواطر التي ترهقك، فهل يجوز لي أن أشدك من ذراعك وأسألك: «هيا، هيا قل لي، قل لي فيم تفكر؟» يا رباه! ما حاجتي إلى هذه الثرثرة أخبط فيها خبط عشواء! هل تعلم يا روديا؟ أنا الآن أقرأ، للمرة الثالثة، المقالة التي نشرتها في. . . في تلك المجلة. لقد جاءني بها دمتري بروكوفتش. فما إن رأيتها صحت أقول: آه. . . من فرط دهشتي! قلت لنفسي: «ما كان أغباني وأشد حماقتي. هذا هو إذاً ما يشغل باله. هذا يفسر كل شيء. إنه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها، وأجيء أنا فأزعجه وأعذبه. . .». إنني أقرأ مقالتك يا بني، فيها أشياء لا أفهمها طبعاً. ولكن لا غرابة في ذلك، فما أنا إلا امرأة بسيطة.

- أريني تلك المقالة يا أمي.

تناول راسكولنيكوف المجلة، وألقى على مقالته نظرة عجلى. فشعر، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة، شعر بتلك العاطفة الغريبة، بتلك العذوبة الحادة، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين). ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. فبعد أن قرأ الأسطر الأولى، تقطب حاجباه، وانقبض صدره، واختنق قلبه بحزن رهيب. إن جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن إلى ذاكرته دفعةً واحدة. فها هو ذا يرمي المجلة على المائدة بحركة اشمئزاز ولوعة.

- مهما أكن غبية يا روديا فإنني أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف، إن لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء!... هه!... ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون! ها ها ها!... لعلك لا تعرف هذا، ولكنهم زعموه، ودار في خلدهم! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض! مساكين! أنّى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء! ولكن ما بال دونيا، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدّق ذلك هي أيضاً؟... أهذا ممكن؟ إن المرحوم أباك قد أرسل... إنتاجه مرتين إلى إحدى المجلات، مرةً شعراً (ما زلت احتفظ بالدفتر، وسأريك إياه يوماً) ومرة قصةً (وقد رجوته أن يسمح لي بنسخها)، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا إنتاجه ذاك ولكنهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ إنني منذ ستة أيام أو سبعة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن؛ ولكنني أدرك الآن أنني كنت غبية في هذه المرة أيضاً، فلو قد شئت لنلت كل شيء دفعةً واحدة بفضل ذكائك وموهبتك. ولكنك في أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن، لأنك مشغول عنه بأمور أهمّ شأناً.

- أليست دونيا في البيت يا أمي؟

- لا يا روديا، إنها تخرج في أكثر الأحيان وتدعني وحدي. لقد تلطف دمتري بروكوفتش فجاء يزورني ويقضي بعض الوقت في صحبتي. إنه يكلمني دائماً عنك. إنه يحبك، ويقدرك حق قدرك يا بني. لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمري وأنها مقصرة في حقي، فلست ألومها، ولكن لها طبعها ولي طبعي. وهي تخفي أسراراً صغيرة لا حصر لها، تخفيها عني ولا تطلعني عليها. أما أنا فلست أخفي عنكما أي سر. أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً، وأنها كذلك تضمر لي، وتضمر لك أنت أيضاً، كثيراً من العاطفة والحنان. ولكني لا أدري كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها. لقد أسعدتني بمجيئك كثيراً يا روديا، ولكن ها هي ذي قد خرجت في الوقت الذي جئت أنت فيه! سأقول لها حين تعود: «جاء أخوك في غيابك، فأين كنت خلال ذلك الوقت؟». ولكن لا تدللني كثيراً يا روديا: تعال إليَّ إن استطعت، فإن لم تستطع أن تجيء فلا ضير، وسأنتظرك على كل حال، وسأعرف دائماً أنك تحبني، وهذا يكفيني. سوف أقرأ مؤلفاتك، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك، وسوف تجيء أنت إليَّ من حين إلى حين. ما عساي أتمنى أكثر من ذلك؟ هاأنت ذا قد جئت اليوم لتواسي أمك، إنني أرى هذا واضحاً، فهل يمكن أن أطلب المزيد؟

هنا أخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي فجأة.

- آه. . . ها أنا أعود إلى البكاء! لا تنظر إليَّ يا بني! ما أنا إلا حمقاء!

ثم هتفت تقول وهي تنهض واثبة:

- آ. . . ما بالي أظل جالسة هذا الجلوس! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها. . . هذه أنانية المسنين! حالاً! حالاً! . . .

- أماه! دعي هذا! أنا ذاهب بعد لحظة! ما من أجل ذلك جئت. أرجوك، أصغي إلي!

اقتربت منه بولخيريا الكسندروفنا وجلة. فقال يسألها طافح القلب، دون أن يفكر دون أن يزن كلامه:

- أتظلين تحبينني، يا أماه، كما تحبينني الآن، مهما تسمعي عني، ومهما تعلمي من أمري؟

فأجابت الأم:

- روديا، روديا، ماذا بك؟ كيف يمكنك أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال؟ من ذا الذي يجرؤ أن يقول فيك سوءاً؟ وهب أحداً قال فيك سوءاً، فإنني لن أصدقه؛ لن أصدق أحداً يجرؤ أن. . . سوف أطرد من يجرؤ. . . سوف أطرده. . . .

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحماس:

- جئت لأؤكد لك أنني أحببتك دائماً، وإنه ليسرني أن نكون الآن وحيدين، وأن لا تكون دونيا هنا. لقد جئت لأقول لك بصراحة إن عليك، مهما يصبك من شقاء، أن تعلمي أن ابنك يحبك أكثر مما يحب نفسه، وأن كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتي وقلة عاطفتي إنما هو باطل. وإنني لن أكف عن حبك يوماً. . . كفى هذا الآن، وإنما أنا قدَّرت أن علي أن أقول هذا الكلام وأبدأ به. . .

ضمت بولخيريا الكسندروفنا ابنها صامتة، وشدته إلى صدرها، وبكت في رفق. وقالت أخيراً:

- لا أدري ماذا بك يا روديا. كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل ما في الأمر هو أنك قد ضقت بنا. ولكنني أدرك الآن إدراكاً واضحاً أن آلاماً كبيرة تنتظرك، وأن هذا هو السبب في حزنك. لقد أحسست بشيء من هذا إحساساً غامضاً منذ مدة يا روديا. سامحني إذا أنا حدثتك في ذلك، ولكنني دائمة التفكير فيه، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم. كانت أختك في هذه الليلة تهذي، وتكلمت أثناء هذيانها عنك. ميّزت بعض الكلمات، لكنني لم أفهم شيئاً. وظللت طوال الصباح كمن ينتظر

تنفيذ حكم الإعدام فيه؛ نعم، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث، وها هو ذا الشيء الذي توقعته يحدث فعلاً! روديا! روديا! إلى أين أنت ذاهب؟ ستسافر، ستسافر، أليس كذلك؟

- نعم، سأسافر.

- ذلك ما كنت أقدّره! ولكن في وسعي أن أسافر معك، إذا كان ذلك ينفعك. ودونيا أيضاً تحبك، تحبك كثيراً؛ ولتأت معنا صونيا سيميونوفنا أيضاً إذا وجب ذلك! إنني مستعدة لأن أقبلها بنتاً لي. وسيساعدنا دمتري بروكوفتش في الاستعداد للسفر. ولكن إلى أين تريد أن تسافر؟

- استودعك الله يا أماه!

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها إلى الأبد:

- كيف؟ أفي هذا اليوم نفسه؟

- لا أستطيع التأخر... آن الأوان... يجب حتماً أن...

- وأنا؟ ألا أستطيع أن.. أذهب معك؟

- لا. ولكن اركعي وصلي لي، فلعل الله يستجيب لصلاتك!

- دعني أرسم عليك إشارة الصليب، دعني أباركك. نعم، هكذا، هكذا! رباه... ماذا نفعل؟

نعم، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً، سعيداً جداً بأن البيت خالٍ ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلو إلى أمه، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التي عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةً واحدة؛ فها هو يرتمي على قدمي أمه فيقبّلهما، وها هما يبكيان كلاهما ويتعانقان. والأم في هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقي سؤالاً. لقد أدركت أن ابنها يعاني أموراً فظيعة، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً.

قالت ناشجةً:

- روديا، يا بني الحبيب، يا أول ولد لي، هأنا ذي أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً. كنت تجيء إليّ على هذا النحو نفسه، فتطوقني، وتقبّلني، بهذه الطريقة نفسها. وحين كان أبوك ما يزال معنا، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك. وبعد أن دفنت أباك، كم من مرة بكينا على قبره، أنا وأنت، متعانقين كتعانقنا الآن! لئن كنت أبكي منذ مدة، فلأن قلبي قلب الأم قد أوجس أن شراً سيقع، أن مصيبة ستنزل. حين رأيتك أول مرة ذلك المساء، هل تذكر؟ - يوم وصلنا إلى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها، فسرعان ما ارتعش قلبي؛ واليوم، حين فتحت لك الباب، نظرت إليك فلم ألبث أن قلت لنفسي: لا شك أن الساعة المشؤومة قد حانت. روديا، روديا، أأنت مسافر فوراً؟

- لا.

- هل ستعود؟

- نعم... سأعود.

- روديا، لا تزعل، أنا لا أجرؤ أن أسألك، أنا أعرف أنني لن أجرؤ، ولكن قل لي كلمة واحدة فقط: هل المكان الذي ستسافر إليه بعيد؟

- بعيد جداً.

- ما الذي يدعوك إلىَ هناك؟ وظيفة، عمل؟

- ما يرسله إلي الله... ولكن صلّي من أجلي!

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب، غير أنه أمه تشبثت به، ونظرت إليه محدقةً في عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد، وانقلبت سحنتها خوفاً وذعراً.

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء:

- كفى يا أماه!

- لست تسافر إلى الأبد، أليس كذلك؟ لست تسافر إلى الأبد بعدُ، أليس كذلك؟ وسترجع غداً، ألن ترجع غداً؟

- سأرجع، سأرجع، استودعك الله!

وانتزع نفسه منها أخيراً.

كان المساء ناعماً طرياً صافياً. لقد صحا الجو منذ الصباح. وعاد راسكولنيكوف إلى بيته. كان مسرعاً. كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس. وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً. فلما كان صاعداً إلى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تحدق فيه وتتابعه بنظراتها. قال يسأل نفسه: «أيكون أحد عندي؟». وتذكر بروفيري مشمئزاً ممتعضاً. لكنه حين وصل إلى غرفته وفتح الباب، رأى دونيا. كانت جالسةً بمفردها على الديوان، غارقة في تأمل عميق. وكان واضحاً أنها قد انتظرته مدة طويلة. وقف على العتبة. نهضت خائفة وانتصبت أمامه. إن نظرتها المحدِّقة إليه الثابتة عليه تعبّر عن ذعر هائل وحزن لا نهاية له. أدرك من هذه النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء.

سألها حائراً:

- أأدخل أم أنصرف؟

فقالت:

- قضيت النهار كله عند صونيا سيميونوفنا. كنا ننتظرك كلتانا. وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي.

دخل راسكولنيكوف، وتهاوى على كرسي، مهدود القوى، وقال:

- أشعر بضعف ووهنٍ يا دونيا، إنني متعب جداً، وأنا في هذه اللحظة خاصةً إنما احتاج إلى قواي كلها.

ونظر إليها نظرة ارتياب.

- أين كنتَ طوال الليل؟

- لا أتذكر جيداً. لقد أردت يا أختي أن أتخذ قراراً حاسماً، ومضيت عدة مرات إلى قرب نهر نيفا. هذا أتذكره. أردت أن أنهي الأمر هنالك...

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقي على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها:

- ولكنني... لم أعزم أمري...

- الحمد لله!... ليتك تعلم كم كنا خائفتين، أنا وصونيا سيميونوفنا، من أن تفعل ذلك! إذاً ما زلت تؤمن بالحياة! الحمد لله! الحمد الله!

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة. وقال:

- كنت لا أؤمن بها، ولكنني آمنت منذ قليل، حين تعانقنا أنا وأمي، وبكينا. أنا لست مؤمناً، ومع ذلك طلبت من أمي أن تصلي من أجلي وأن تدعو الله لي. الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا! على كل حال، لست أفهم من الأمر شيئاً!....

هتفت دونيا تقول مذعورة:

- كنت عند أمنا؟ وقلت لها؟... هل جرؤت حقاً أن تقول لها...

- لا، لم أقل شيئاً... لكنها فهمت الكثير. لقد سمعتك تهذين في الليل. وإني لواثق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن. لا أدري لماذا ذهبت إليها. أنا إنسان سيىء دنيء يا دونيا!

- أأنت إنسان سيىء، أنت الذي ترضى أن تقبل الألم؟ ذلك أنك تقبل الألم، أليس كذلك؟

- نعم، الآن أقبله. إنني من أجل أن أتحاشى هذا العار، أردت أن

أغرق نفسي يا دونيا. ولكني حين ملت فوق مياه النهر، قلت: ما دمت أعد نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أتراجع أمام العار. هذه كبرياء يا دونيا، أليس كذلك؟

- نعم، هي كبرياء يا روديا!

لكأن شعلة قد عادت تتقد في عيني راسكولنيكوف المنطفئتين: كأنما ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء!

وسأل أخته وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويحدق إلى عينيها بنظرة ثابتة:

- قولي يا أختي، لماذا لا تظنين أن الخوف من الماء وحده هو الذي صدّني عن الانتحار غرقاً؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة:

- كفى يا روديا!

وساد الصمت دقيقتين.

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين. وكانت دونيا واقفةً عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد. ونهض راسكولنيكوف فجأة. وقال:

- تأخرت. حانت الساعة. سأمضي أشي بنفسي. ولكني لا أدري لماذا أشي بنفسي!

فانحدرت على خدّيْ الفتاة دموع كبيرة.

قال راسكولنيكوف:

- تبكين يا أختي؟ ولكن هل تقبلين أن تمدي إليّ يدك؟

قالت:

- هل يساورك شك في هذا؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضماً قوياً. وهتفت تقول وهي ما تزال تعانقه وتقبّله:

- ألست تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم؟

فصاح فجأة يسألها في سورة من غضباً شديداً:

- جريمة؟ أية جريمة؟ أيكون جريمة قتل قملة قذرة ضارة، قتل مرابية عجوز لا يحتاج إليها أحد، مرابية تمتص دماء الفقراء؟ ألا إن قتلها ليمحو أربعين خطيئة! لا أظن أن هذا الفعل جريمة، ولا أريد أن أتطهّر منه وأكفّر عنه. ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعي: «جريمة، جريمة»؟ نعم، إنني وقد قررت أن أتحمل هذا العار الذي لا طائل تحته، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبني من سخف. إن الدناءة وعدم الكفاءة وحدهما هما اللتان تدفعاني إلى أن. . . وربما أضيفت إليهما المنفعة. . . كما. . . كما كان يقترح علي ذلك. . . بورفيري!

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها يأس شديد:

- أخي، أخي، ما هذا الذي تقوله؟ لقد سفحت دم إنسان!. . . .

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره:

- دم يسفحه جميع الناس، يجري وسيظل يجري على الأرض أنهاراً. . . نعم. . . يسكبه جميع الناس كالشمبانيا، ومن أجل ذلك يتوج بعضهم في «الكابيتول»[87]، ويسمى بطلاً من الأبطال الذين أحسنوا إلى الإنسانية! أنعمي النظر قليلاً واحكمي في الأمر! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة. . . بل قولي عن تلك الخرافة البسيطة، لأن الفكرة في ذاتها لم تكن حمقاء إلى الحد الذي يبدو الآن، بعد أن أخفقت (نعم إن كل من يخفق يبدو غبياً أحمق). الخلاصة إنني رجوت بهذه الحماقة - إذا سلّمنا أنها حماقة - أن أخلق لنفسي وضعاً مستقلاً، أن أخطو خطوة أولى، أن أحصل على موارد، فإذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو أكثر فائدةً (بالمقارنة مع القتل)، فائدة لا تقاس. . . كل ما هنالك إنني منذ الخطوة الأولى قد

ترنّحت لأنني جبان. تلك هي الحقيقة! غير أنني لن انظر إلى الأمر بعيونكم أنتم: فلو قد نجحت لوضعوا على رأسي أكاليل الغار، أما الآن فإنهم يلقونني إلى الكلاب. . . .

- ليس هذا صحيحاً، ليس صحيحاً أبداً! ما هذا الذي تقوله يا أخي؟

- صحيح أنني لم أراع الأشكال، لم أراع الأشكال البديعة التي توجبها قواعد الجمال. ولكن هل تعتقدين حقاً أن قذف القنابل على سكان آمنين، وانهاكهم بحصار منتظم، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد الجمال؟ ثم إن الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز. . . إنني لم أحسّ هذه الحقيقة في يوم من الأيام كما أحسّها الآن، ولا عجزت في يوم من الأيام عن أن أفهم ما هي جريمتي كما أعجز عن هذا الآن! لم أكن في يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً مني في هذه اللحظة! . . . .

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة. لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه مصادفةً بنظرة دونيا، فقرأ في هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب إلى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه على الرغم من إرادته. لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكينتين. إنه هو السبب مهما يكن من أمر! . . . قال:

- دونيا العزيزة، إذا كنتُ مذنباً فاغفري لي (رغم أن الغفران مستحيل إذا كنت مذنباً). استودعك الله! كفى مناقشة! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت! لا تتبعيني، أرجوك! هناك زيارة أخرى يجب أن أقوم بها. . . انصرفي حالاً وابقي إلى جانب أمنا، أرجوك، أضرع إليك! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به إليك. لا تتركيها لحظة واحدة. لقد ودّعتها وهي على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها. . . فإما أن تموت وإما أن تُجن. فابقي إذاً بقربها! وسيكون رازوميخين إلى جانبكما، لقد كلمته

في الأمر... لا تبكي علي... سأحاول أن أكون طوال حياتي شريفاً وشجاعاً، رغم أنني قاتل. وقد تسمعين باسمي في يوم من الأيام. لن ألطخ شرفكم بالعار. سوف ترين. سوف أبرهن...

وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبَذَلَ تلك الوعود أن عيني دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب:

- والآن، إلى اللقاء. لماذا تبكين هكذا؟ لا تبكي! لا تبكي! إننا لا نفترق إلى الأبد! ها... نعم... انتظري... نسيت!...

واقترب من المائدة، فتناول كتاباً ضخماً غشاه الغبار، ففتحه، وسحب منه صورة صغيرة لوجهٍ مرسوم بالألوان المائية على عاج، كانت موجودة بين أوراق الكتاب. إنها صورة بنت صاحبة البيت، الفتاة التي ماتت من الحمى وكانت في الماضي خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير. تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبِّر المتألم، ثم قبَّل الصورة ومدها إلى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن:

- كثيراً ما كلمتها هي أيضاً عن ذلك الأمر. لقد بحت لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنمياً!

وأردف يقول لدونيا:

- لا تقلقي يا دونيا! كانت لا تؤيد آرائي ولا تحبِّذها مثلما لا تؤيدينها ولا تحبّذينها أنت! وإني لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم!

ثم هتف يقول فجأة وقد عاد إليه عذابه:

- المهم، المهم أن كل شيء سيتغير، وأن الانفصال عن الماضي سيكون تاماً. نعم، كل شيء، كل شيء سيتغير! ولكن هل أعددت نفسي لهذا؟ وهل أنا أريده حقاً؟ يقال إن هذه المحنة لازمة لي، ولكن فيم هذه المحن السخيفة كلها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أقدر على الفهم مما أنا عليه الآن، حين أصبح، بعد عشرين سنةً من

الاعتقال، شيخاً مرهقاً هدّه الألم ودَمَّره العذاب وصار أبله معتوهاً؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة؟ آه. . . لقد أدركت حقاً أنني جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا في هذا الصباح عند الفجر!

وخرج الاثنان أخيراً. كانت دونيا تتألم كثيراً، ولكنها كانت تحب أخاها. وابتعدت. غير إنها ما أن سارت خمسين خطوة حتى التفتت إلى وراء لتنظر إليه ولو مرة واحدة. كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى. وحين وصل إلى ناصية الشارع التفت هو أيضاً، فالتقت نظراتهما آخر مرة. لكنه حين لمح أن أخته تنظر إليه حرّك يده بإشارة تململ بل بإشارة غضب، ليومئ لها بأن عليها أن تتابع السير في طريقها. وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع.

وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التململ أو الغضب التي بدرت منه: «أنا شرير! واضح أنني شرير! . . . ولكن لماذا يحبّونني كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آه. . . لو كنت وحيداً، لو لم يكن هناك أحد يحبني، ولو لم أحب أحداً أبداً إذاً لما حدث شيء من ذلك كله! والآن أود لو أعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من السّجن، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً إلى الحد الكافي الذي يجعلني أمضي إلى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع، وأعلن لهم أنني وغد؟ طبعاً، هذا هو السبب الذي يحضهم على إرسالي إلى السجن؛ ذلك هو ما يريدون. . . آه. . . إنني أراهم جميعاً يذهبون ويجيئون في الشوارع. إنهم جميعاً جبناء حقيرون أوغاد، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون! ومع ذلك يكفي أن أحاول تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاؤون ساخطون! آه. . . إنني أكرههم! وأمقتهم جميعا!».

وغرق راسكولنيكوف في خواطره وتأملاته، فكان يتساءل: «كيف

سأنتهي شيئاً فشيئاً إلى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع مني بذلك؟ ولكن لم لا؟ لا شك أن الأمر سيجري هذا المجرى. ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة إلى بلوغ هذا الهدف؟ الماء يأكل الصخر. ولكن إذا صحَّ هذا، فعلام أحيا، علام أحيا؟ نعم، علام أذهب إلى هناك مع أنني أعلم منذ الآن أن كل شيء سيجري على نحو ما أتنبأ، لا على أي نحو آخر»؟.

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة. لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في السير.

الفصل الثامن

حين دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط. لقد انتظرته صونيا طوال النهار وهي في حالة قلق رهيب. انتظرته مع دونيا. إن دونيا قد جاءت إلى صونيا في الصباح إذ تذكرت أن سفدريجايلوف قال لها إن صونيا «تعرف». لن نروي تفاصيل الحديث الذي جرى بين دونيا وصونيا، ولن نتحدث عن الدموع التي ذرفتاها، وعن التفاهم الذي نشأ بينهما. وحسبنا أن نقول إن دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير: إن أخاها لن يكون وحيداً. فلها، لصونيا، إنما أفضى بسره وباح بجريمته قبل أي شخص آخر؛ وفيها، في صونيا، إنما التمس إنساناً يركن إليه حين أحسّ أنه في حاجة إلى إنسان يركن إليه. فهي التي ستتبعه إذن أينما ترسله الأقدار. لم تلق دونيا أي سؤال عن هذا الأمر، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث. حتى لقد كانت تنظر إلى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا في أول الأمر، وخجلت منه، وكاد يبكيها، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأناً وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها إلى دونيا. إن صورة دونيا الرائعة الفاتنة، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما في بيت راسكولنيكوف، قد انحفرت في نفسها إلى الأبد صورةً من أجمل وأروع ما رأت في حياتها من صور جميلة رائعة.

ونفد صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتنتظر أخاها في بيته. لقد بدا لها أنه سيذهب إلى هناك أولاً. فلما خلت صونيا إلى نفسها عاودها الخوف الرهيب من أن راسكولنيكوف قد ينتحر. وكانت دونيا، هي أيضاً، تخشى ذلك. ولكن كلاً منهما كانت قد ظلّت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له ما يسوّغه وأن الأمر يستحيل أن يقع، مستندتين في ذلك إلى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها. لهذا كانتا هادئتين بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما. ولكن ما إن افترقتا حتى أصبحتا كلتاهما لا تفكران إلا في هذا. تذكرت صونيا أن سفدريجايلوف قال لها أمس أن أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما: فإما سيبيريا وإما... وكانت تعرف من جهة أخرى كبرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية، فكانت تتساءل يائسة أشد اليأس: «هل يمكن أن يكون التخاذل والخوف من الموت كافيين وحدهما لصده عن الانتحار وجعله يتشبث بالحياة؟».

كانت الشمس تميل إلى الغروب في أثناء ذلك. وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدق إلى الخارج حزينةً ملتاعة. ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك. وأخيراً، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات، دخل عليها راسكولنيكوف.

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح، ولكنها حين تفرست في وجهه ملياً اصفرّ وجهها فجأة.

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- هيه صونيا! لقد جئت آخذ صليبك! ألم تأمريني أنت نفسك بأن أمضي أعترف على رؤوس الأشهاد؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ؟

كانت صونيا تنظر إليه مذهولة مبهوتة. لقد بدت لها هذه اللهجة

غريبة. وسرت في جسمها رعدة باردة، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة أن كل شيء، اللهجة والكلمات لم يكن إلا تظاهراً وتصنعاً. لقد كان يكلمها وهو ينظر إلى ركن، متهرباً من نظراتها. وأردف يقول:

- اسمعي يا صونيا، لقد وجدت أن من مصلحتي أن أتصرف هذا التصرف، فإن هناك ظرفاً خاصاً... ولكن الأمر يطول شرحه... ثم لا قيمة لهذا... ولكن هل تعلمين ما الذي يغيظني ويحنقني؟ إنني أُجنُّ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الأغبياء الوحوش يزدحمون حولي ويحيطون بي ويحملقون فيّ، وحين أتصوَّر جميع الأسئلة البلهاء التي سيلقونها عليّ والتي سيكون من واجبي أن أجيب عنها؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون إليّ بأصابعهم... هه!... هل تعلمين؟ لن أذهب إلى بورفيري. لقد أزعجني كثيراً. وإنما سأذهب إلى صديقي «البارود». وبذلك أدهشه أشد دهشة. لا شك أنني سأثير في نفسه دهشة كبيرة! ولكن ينبغي أن أكون أكثر هدوء، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة ثائر الأعصاب! هل تصدقين؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختي بيدي مهدداً متوعداً، لا لشيء إلا لأنها التفتت تلقي عليّ نظرة أخيرة! آه... إنه لعار أن أكون في مثل هذه الحالة العصبية! أتراني هبطت إلى مثل هذا الدرك الأسفل؟ والآن، أين الصليبان؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو في حالة سوية. كان لا يستطيع حتى أن يستقر في مكانه دقيقة واحدة، ولا أن يركز انتباهه على أي شيء. كانت أفكاره تختلط في أحاديثه وتتشابك وتضطرب. وكانت يداه ترتجفان قليلاً.

سلّت صونيا صليبيها من الدرج من دون أن تقول شيئاً: الصليب الخشبي المصنوع من خشب السرو، والصليب النحاسي. ورسمت على نفسها إشارة الصليب ثم رسمت إشارة الصليب على راسكولنيكوف، ثم علّقت صليب خشب السرو في عنقه.

- يرمز هذا إجمالاً إلى أنني أحمل صليبي... ها ها ها!... كأنني

ما تألمت ألماً كافياً حتى الآن! إن الصليب الخشبي هو أبناء الشعب! أما الصليب النحاسي، أي صليب اليزافيتا، فأنت تحتفظين به لنفسك. أرينيه! إذن كانت اليزافيتا تحمله... في ذلك الأوان! أنا أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع، بل صليباً من فضة وأيقونة صغيرة. رميتهما في ذلك اليوم على صدر العجوز. فانظري ماذا يجب علي أن أضع في عنقي اليوم! على كل حال... أنا أقول سخافات، وأنسى الأمر الأساسي... إنني ذاهل... اسمعي يا صونيا: لقد جئت لأبلغك... نعم، يجب أن تعلمي... أنا لم أجيء إلا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر أن أقول أكثر مما سأقول)... اسمعي: أنت التي حضضتني على أن أفعل ما سأفعل... سوف أنفذ إرادتك فأدخل السجن. ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً؟ كفى كفى! كفى بكاءً! آه... لشد ما يؤلمني هذا كله!

غير أن حناناً وُلد في قلبه، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكي. وتساءل: «وهذه، لماذا تتألم هذه؟ ماذا أنا عندها؟ ما بالها تبكي؟ ما الذي يجعلها تهتم بي كأنها أمي أو أختي؟ ما الذي يحملها على أن تصاحبني إلى نهاية الشوط؟ آه... سوف تكون لي بمثابة المربية للطفل».

تضرعت إليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش:

- ارسم إشارة الصليب! صلِّ مرة واحدة على الأقل!

- إذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات! سأفعله راضياً كل الرضى يا صونيا!

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً.

وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات. وتناولت صونيا شالها فغطت به رأسها. هو خمار أخضر من جوخ السيدات، لعله «شال الأسرة» الذي تكلم عنه مارميلادوف. ومضت هذه الفكرة في ذهن

راسكولنيكوف خلسةً، ولكنه لم يلق أي سؤال. لقد بدأ يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً. خاف من شعوره هذا. وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تتهيأ لمصاحبته.

صاح يقول لها غاضباً:

- ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ابقي! ابقي! سأذهب وحدي.

واتجه نحو الباب شبه زعلان، وتمتم يقول وهو يخرج:

- أأنا في حاجة إلى خفير؟

بقيت صونيا في وسط الغرفة. لقد أهمل حتى توديعها. نسيها منذ الآن، لأن الارتياب اللاذع المتمرد غمر قلبه. تساءل وهو يهبط السلم: «هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً؟ أليس من الممكن أن أتوقف، أن أنكص على عقبي، أن أدبر الأمور. . . أن لا أذهب إلى هناك؟»

ومع ذلك واصل سيره. لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل ووقت التردُّد قد مضى. حتى إذا صار في الشارع تذكر أنه لم يودع صونيا، وأنها بقيت في وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه. فتوقف لحظة. ولكن فكرة واحدة ومباغتة وافته في تلك اللحظة نفسها، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه. تساءل قائلاً: «لماذا ذهبت إليها؟ لقد قلت لها إنني إنما جئت لها تنفيذاً لمهمة يجب علي أن أقوم بها؟ ما هي تلك المهمة؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني إلى زيارتها! ألأبلغها إنني ذاهب إلى هناك؟ أكان هذا ضرورياً؟ أتراني أحبها؟ لا، لا، غير معقول!. . . ألم أدفعها عني منذ لحظة كما يُدفع كلب؟ هل صليبها إذاً هو ما كنت في حاجة إليه؟ آه. . . إلى أي درك من الدناءة قد هبطت! لا، لا، وإنما أنا كنت في حاجة إلى دموعها. كنت في حاجة إلى أن أرى رعبها وذعرها، كنت في حاجة إلى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق. كنت في حاجة إلى أن أتشبث بشيء ما،

إلى أن أكسب وقتاً، إلى أن أتأمل إنساناً! هذا ما كنت في حاجة إليه، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً يناديني إليه، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمور كتلك الأمور، أنا الذي لست إلا إنساناً حقيراً تافهاً، وغداً، وغداً!»

كان يسير على طول رصيف القناة. لم يبق بينه وبين الوصول إلا مسافة قصيرة. لكنه حين وصل إلى الجسر توقف لحظة، ثم لم يلبث أن مضى يعبر الجسر، فنأى بذلك عن طريقه، واتجه نحو سوق العلف.

كان ينظر يمنةً ويسرة بشراهة، ويحاول أن يتفحّص كل شيء من الأشياء متمعّناً، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على شيء من هذه الأشياء. فكل شيء يتهرب منه ويغيب عنه. وخطرت بباله خاطرة، وحدث نفسه قائلاً: «بعد شهر، بعد أسبوع، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي إلى مكان ما على عربة سجناء، فأيّ نظرة سألقي على هذه القناة نفسها يومذاك؟ هل سأتذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن؟ وهذه اللافتة؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها؟ هذه كلمة «شركة».

فهل سأتذكر هذه «الشين»، هل سأتذكر حرف «الشين» هذا؟ وإذا تلبثت عيناي بعد شهر على الحرف نفسه فهل سأنظر إليه كما انظر إليه الآن؟ نعم، ما عسى تكون احساساتي وأفكاري حينذاك، أوه... ما أتفه وما أسخف هذه المشاغل!... لا شك أن هذا أمر غريب... (هأ هأ هأ... ماذا أيضاً؟) إنني أرتد إلى الطفولة، فاصطنع أوضاعاً انظر إليها وأعتز بها. ولكن لا، لماذا أخجل من نفسي؟ أوه... ما أكثر التزاحم والتصادم في هذا المكان! هذا هو، الرجل السمين ذاك... لا شك أنه ألماني... هو الذي صدمني ودفعني. فهل يعلم من هو الذي صدمه؟ وهذه المرأة العجوز التي تجر طفلاً وتستجديني صدقة، من المضحك أنها تظنني أسعد منها. طيب... على كل حال... علي أن أنفحها صدقة، هكذا، من باب اللعب، على سبيل العبث... هوه!

بقي في جيبي خمسة كوبكات! تُرى من أين وكيف؟»

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسولة:

- خذي، خذي، أيتها الأم الطيبة!

فقالت المتسولة بصوت فيه بكاء:

- حماك الله!

ودخل راسكولنيكوف سوق العلف. كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس، كان يشعر بإحساس مزعج كريه أليم، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه إلى حيث يحتشد الناس أكثف احتشاد. كان مستعداً لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يخلو إلى نفسه، ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة. هذا رجل سكران يصخب ويعربد: إنه يحاول أن يرقص، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه. واجتمعت حوله جمهرة من الناس. شقَّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد، ونظر إلى السكران بضع لحظات، فإذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة. ثم ما إن مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل، وأصبح لا يراه، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه. وانصرف أخيراً عن المكان الذي كان فيه، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف. ولكنه حين وصل إلى وسط الميدان حدث في فكره شيء، واستولى عليه إحساس قوي مباغت، فسرى في ذهنه وجسمه.

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة: «اذهب إلى ميدان من الميادين، فسلِّم على الشعب، وقبل الأرض لأنك أثمت في حقها أيضاً، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس: إنني قاتل».

فما إن دارت في ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الرأس إلى القدمين. إن الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعة التي عاناها في الأيام السابقة، ولا سيما في الساعات الأخيرة، قد بلغت من إرهاقه أنه

استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الإحساس الجديد الشامل. اعتراه نوع من نوبة عصبية. إن شرارة قد انبعثت في نفسه فأشعلتها دفعة واحدة. ثم استولى عليه حنان واسع كأن كل كيانه قد لان في الحال فسالت دموعه على خديه. وتهالك على الأرض حيث كان. . .

ركع في وسط الميدان، ثم سجد، فقبَّل الأرض الموحلة منتشياً ثملاً سعيداً، ونهض ثم سجد مرة أخرى.

قال فتى على مقربة منه:

- هيه! كم هو سكران!

وضجَّ الناس من حوله بضحك صاخب. وأضاف بائع صغير ثمل بعض الثمل:

- لا شك أنه مسافر إلى القدس يا أصحابي، فهو يودِّع أولاده، ووطنه، ويسلِّم على الناس جميعاً، ويهب قبلةً أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج، ولأرضها.

وقال ثالث:

- ما يزال في ريعان الشباب!

وعقب رابع بصوت جازم:

- وهو ابن أسرة كريمة.

وأضاف خامس:

- أصبح المرء لا يميز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء أسر كريمة!

هذه التعليقات المتفكهة كلها أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتَي: «أنا قاتل» اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه. ومع ذلك تحمَّل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء، ومضى يسير في شارع صغير يؤدي إلى قسم الشرطة، دون أن يلتفت إلى وراء. وفيما كان

يمشي عرضت لعينيه صورة، ولكنه لم يُدهش، فإنه كان قد تنبأ بأن هذا هو ما سيحدث. إنه حين سجد في سوق العلف سجدة ثانية، قد التفت يسرةً فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة. كانت لحرصها على أن لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبي كان قائماً في الميدان، وإذاً فقد تبعته في صعوده على «الرابية التي يعلوها صليبه»!

في تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون معه إلى الأبد، وأنها ستتبعه ولو إلى آخر العالم، ستتبعه إلى أي مكان يقوده إليه قدره. فاضطرب من ذلك قلبه... ولكن ها هو ذا يصل إلى المكان المحتوم.

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة. كان عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني. قال لنفسه: «من هنا إلى أن أصير فوق...». وبدا له أن هناك زمناً طويلاً سينقضي قبل أن يصل إلى فوق، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال يمكن أن توافيه، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة.

السلم مملوء بالأقذار نفسها والقشور ذاتها؛ والأبواب مفتوحة على مصاريعها كما كانت في المرة الماضية؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة العفونة والدخان الخانق. أن راسكولنيكوف لم يرجع إلى هذا المكان بعد زيارته الأولى له.

كانت ساقاه متخدرتين وكانتا تترنحان، ولكنه ظل يتقدم. وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه، وليسترجع رباطة جأشه، من أجل أن يظهر بالمظهر الذي يجب أن يظهر به إنسان. ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهد فتساءل: «ولكن لماذا؟ ما فائدة هذا؟ ما دام يجب علي أن أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة أو تلك؟ بالعكس... فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك أفضل!». وفي تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش، الملازم «بارود». فتساءل: هل يجب حقاً أن أذهب إليه هو؟ إلا يمكن أن أتجه

إلى شخص آخر؟ ولماذا لا أتجه إلى نيكوديم فومتش؟ وماذا لو عدت أدراجي فذهبت إلى مفوض الشرطة ألقاه في بيته؟ ميزة هذه الطريقة، على الأقل، أن الأمور تجري عندئذ في جو كأنه جو أسرة!. . . لا، لا، بل اتجه إلى «بارود»، إلى الملازم «بارود»! ما دام يجب عليّ أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدة!

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعي ما يفعل. في هذه المرة لم يكن هناك إلا قليل جداً من الناس. لا أحد إلا بواب ورجل من الشعب ينتظران. شرطي الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه. مر راسكولنيكوف إلى الغرفة المجاورة. وحدث نفسه قائلاً: «لعلني ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً». هذا كاتب من القسم يرتدي سترة رسمية قد مال على مكتبه يكتب شيئاً ما. وهذا كاتب آخر مستقر في ركن. ليس زاميوتوف هناك، ولا نيكوديم فومتش طبعاً.

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه:

- ألا يوجد أحد؟

- من تريد؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً:

- آ. . . آ. . . آ. . . لا حاجة إلى أذنين، ولا حاجة إلى عينين. . . غريزتي أنبأتني بوجود رجل «روسي». . . كما تقول الحكاية. تحياتي واحترامي.

أخذ راسكولنيكوف يرتجف. إن الملازم «بارود» الذي انبجس من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه. حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً: «هذه هي الأقدار. لماذا هو هنا؟»

وعاد ايليا بتروفتش يصيح، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل ومهتاج الأعصاب قليلاً:

- أأنت عندنا؟ ما هي المشكلة؟ إذا كنت آتياً لعمل، فالوقت مبكر

جداً. أنا نفسي إنما... بمصادفة محضة!... على كل حال، إذا كنت أستطيع... أعترف لك... نعم... كيف... كيف أنت... معذرة...

- أنا راسكولنيكوف.

- طبعاً، طبعاً راسكولنيكوف! هل تخيَّلت، ولو لحظة واحدة، أنني نسيت... أرجوك، لا تصدقني إذا... يا روديون رو... رو... روديونتش، أليس كذلك؟

- روديون رومانوفتش.

- نعم نعم نعم، روديون رومانوفتش! روديون رومانوفتش! ذلك هو الاسم الذي كنت أحاول تذكره! لقد سألت عن أخبارك مراراً! لقد أسفتُ حقاً منذ ذلك الزمن، اعترف لك بذلك للطريقة التي تصرفنا بها معك في ذلك اليوم. وقد ذكروا لي فيما بعد... لقد علمت فيما بعد أنك شاب أديب، بل وعالم... وأنك تخطو خطواتك الأولى إن صح التعبير. أي أديب وأي عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ والتفرد في بداية حياته الأدبية أو العلمية؟ إننا، أنا وزوجتي، نعشق الأدب، حتى إن امرأتي تبلغ في ذلك حد الوله والتدله!... الأدب والفن! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت، ولكن الشيء الهام هو ما يناله بالموهبة، بالعلم، بالعقل، بالعبقرية! ما قيمة قبعة مثلاً؟ القبعة قرص أستطيع أن أشتريه من محل تسيمرمان، أما ما هو تحت القبعة، أما ما تغطيه القبعة، فذلك لا أستطيع أن أشتريه!... أعترف لك بأنني قد تمنيت أن أذهب إليك، لأعتذر لك، ولكني قدّرت أنك قد... بالمناسبة: أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن! وصلت أسرتك، أليس كذلك؟

- نعم، أمي وأختي.

- لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك. إنها فتاة مثقفة رائعة. اعترف لك بأنني آسف لاندفاعنا أنا وأنت... كانت قصة مؤسفة! ولكن لئن

نظرت إليك نظرة اشتباه عند اغمائك، فإن أسباب هذا الإغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً! لقد كان ذلك مني نزقاً وتعصباً لا أكثر! إنني أفهم استياءك! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك، أليس كذلك؟

- لـ. . . لا. . . وإنما جئت. . . لأسألك. . . لقد كنت أتصور أنني سأجد زاميوتوف.

- ها. . . نعم. . . أصبحتما صديقين. . . سمعت عن هذا! ولكن زاميتوف تركنا، فلن تجده بعد اليوم هنا! نعم، لقد فقدنا ألكسندر جريجوريفتش. . . منذ أمس! قَدَّم استقالته، حتى إنه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خشنة. نعم. . . مضى في قلة التهذيب إلى ذلك الحد. . . إنه صبي، إنه صبي، إنه طائش! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه، ولكن كيف السبيل إلى الاتكال على شبابنا اللامع هذا؟ إنه يريد، فيما يبدو، أن يتقدم إلى امتحان مسابقة، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثرثرة والمفاخرة! ذلك هو امتحان المسابقة الذي يريد أن يدخله! ليس هو مثلك، أو مثل صديقك رازوميخين. . . فإنك أنت قد اعتنقت رسالة العلم، وما من إخفاق يمكن أن يحرفك عنها. جميع مباهج الحياة هي في نظرك أنت باطل nihilest. . .[88]، أليس كذلك؟ أنت، أنت رجل زاهد متقشف، أنت راهب، أنت ناسك. المهم في نظرك أنت إنما هو القلم وراء الأذن، وإنما هو البحث العلمي. نعم، ذلك هو في نظرك الشيء الـ. . . وأنا أيضاً، إلى حد ما. . . . هل قرأت «مذكرات ليفنجستون؟»[89]

- لا!

- أما أنا فقد قرأتها. ثم إن عدد الذين يعتنقون المذهب العدمي قد ازداد في هذه الأيام ازدياداً كبيراً، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً. في أي عصر نعيش نحن؟ أنني ألقي عليك ذلك السؤال! ولكن ما بالي أحدثك

أنت. . . أنت لست من معتنقي المذهب العدمي، أليس كذلك؟ أجبني بصراحة، بصراحة.

- لـ. . . لا.

- لا؟ ولكن في وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة. نعم، لا تتحرج، كلمني كما لو كنت تكلم نفسك. العمل شيء والـ. . . شيء آخر. كنتَ تظن أنني سأقول: الصداقة، أليس كذلك؟ إذاً لقد أخطأ ظنك. ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير إليه، وإنما أردت أن أشير إلى عاطفة الإنسان والمواطن، إلى العاطفة الإنسانية، وكذلك إلى الحب الذي يحمله المرء للعلي القدير. صحيح أنني موظف حكومة، صحيح أنني شخص رسمي، ولكن هذا لا يمنعني من أن أشعر دائماً بأنني مواطن، بأنني إنسان، وأن أحسب حساب ذلك. إليك هذا المثال: لقد تكلمت أنت عن زاميوتوف. ولكن زاميوتوف شخص يحدث صخباً وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ المحال سمعةً لا لشي إلا لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون. . . نعم، ذلك هو صاحبك زاميوتوف! أما أنا فإنني أحترق نشاطاً وحماسةً إن صح التعبير. العواطف الكبيرة تلهبني، ثم أنني أملك رتبة وأشغل منصباً. وأنا متزوج، ولي أولاد! أنني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق إنسان ومواطن، أما هو فهلا قلت لي ما الذي يعمله؟ أنني أحدثك حديثي إلى رجل صقلته الثقافة وسمت به. إليك هذا المثال أيضاً: لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه تكاثراً تجاوز الحدود. . .

نظر إليه راسكولنيكوف مبهوتاً. إن جميع الكلمات التي قالها ايليا بتروفتش - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رنّت في أذنيه رنين كلمات لا معنى لها. ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو ما استطاع. وألقى على ايليا بتروفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدري كيف سينتهي هذا كله.

تابع ايليا بتروفتش الذي لا ينضب لكلامه معين، تابع كلامه فقال:

- إنني أطلق هذا اللقب - القابلات - على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص[90] لأنه يبدو لي موفقاً جداً... هئ هئ!... إنهن يدخلن كلية الطب[91]، ويتعلمن التشريح، ولكن قل لي: أتراني إذا مرضت أدعو إحدى هذه الآنسات لمعالجتي؟ هئ هئ!....

انفجر ايليا بتروفتش ضاحكاً، وقد رضي عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كل الرضى!

ثم تابع كلامه فقال:

- لنسلم بأن الدافع إلى ذلك ظمأ إلى التعلم والتثقف لا يرتوي، ولكن يخيَّل إليَّ أن على الإنسان، متى تعلم، أن يتوقف، أن يكف... فلماذا الإسراف والإفراط؟ لماذا تُهان شخصيات نبيلة، كما يفعل ذلك الرجل التافه زاميوتوف؟ أشخصٌ مثل زاميوتوف يهينني أنا؟... ثم تلك الانتحارات التي تتكاثر؟ لا تتصور ما أكثر عددها!... يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر! بنات، شباب، شيوخ!... إليك هذا المثال: في هذا الصباح نفسه، أُبلغنا... أن سيداً كان قد وصل إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة... هيه!... نيل بافلتش... يا نيل بافلتش... ما اسم ذلك السيد الذي أُبلغ عنه... أطلق على رأسه رصاصة عند ضفة النهر... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر نيفا؟

أجاب صوت أبح غير مكترث، صوت رجل في الغرفة الأخرى، أجاب يقول:

- اسمه سفدريجايلوف.

فارتجف راسكولنيكوف، وصاح يسأل:

- سفدريجايلوف؟ سفدريجايلوف أطلق على رأسه رصاصة؟

- هل تعرف أنت سفدريجايلوف؟

- نعم... أ... أعرفه... لقد وصل في الآونة الأخيرة فعلاً!...

- نعم، في الآونة الأخيرة... كانت زوجته قد ماتت منذ حين... ثم إن هذا الرجل الذي كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من مسدس فجأة... وقد فعل ذلك في ظروف فاضحة يستحي المرء حتى أن... لقد ترك بضع كلمات في دفتره قائلاً إنه يموت مالكاً كل عقله فما ينبغي اتهام أحد بقتله. يقال إنه كان يملك ثروة طائلة. ولكن كيف عرفته؟

- تعرفت... تعرفت عليه... لأن أختي كانت تعمل معلمة لأولاده في منزلهم...

- هه... هه... إذاً تستطيع امدادنا بمعلومات عنه. ألست تفترض شيئاً ما؟

- رأيته أمس... وكان... يشرب خمراً... ولم أطلّع على شيء...

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره يسحقه سحقاً.

- لكأنك تصفَرُّ من جديد. لا شك أن الجو هنا خانق...

تمتم راسكولنيكوف يقول:

- آن لي أن أنصرف. اغفر لي ازعاجك...

- ولكنك لم تزعجني البتة! أنا في خدمتك! ثم إنك قد سررتني، ويسعدني جداً أن أقول لك...

ومد ايليا بتروفتش إليه يده.

جمجم راسكولنيكوف يقول:

- كنت أريد... فقط... أن... أن أرى زاميوتوف....

- فهمت، فهمت، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم:

- أنا سعدت بلقائك. . . استودعك الله. . .

وخرج مترنحاً. كان يشعر بدوار فلا يكاد يدري أهو ما يزال منتصباً على ساقيه. وأخذ يهبط السلم، متكئاً بيده اليمنى على الحائط. تراءى له أن بواباً في يده سِجِلّ قد صدمه ليدخل إلى قسم الشرطة، وإن كلباً كان ينبح في مكان ما، وأن امرأة كانت تطوحه بشوبق لتسكته. فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء.

كانت صونيا واقفة في الخارج، غير بعيد عن الباب، صفراء كصفرة الموتى، تنظر إليه مروعة منقلبة السحنة. وقف أمامها، فتشنجت قسمات وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن يأس وارتسمت على شفتيه ابتسامة تيه وشرود بشعة.

توقف راسكولنيكوف لحظة، فابتسم بمرارة، ثم قفل راجعاً إلى المكتب الذي بارحه منذ قليل.

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقب بين أوراقه، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذي صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم.

فما أن رآه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله:

- أهذا أنت أيضاً؟ هل نسيت شيئاً ما؟ ولكن ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً، أبيض الشفتين جامد النظرة، واقترب من المائدة فأسند إليها إحدى يديه، وأراد أن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يستطع ذلك. لم تُسمع منه إلا جمجمات لا تبين عن شيء.

هتف ايليا بتروفتش:

- ماذا بك؟ هل تشعر بدوار؟ هاتوا كرسياً، بسرعة! خذ، اجلس، اجلس هنا، هاتوا ماءً!

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قُدِّمَ إليه، ولكنه لم يحوّل

بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذي دهش من ذلك اشد الدهشة. وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما إلى الآخر وينتظر. وجيء بماء.

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال:

- أنا الذي....

- اشرب جرعة ماء!

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه بإحدى يديه، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز، مع وقفات بين الكلمات:

- أنا الذي قتلت، بضربات فأس، العجوز التي تقرض على رهن، واختها اليزافيتا، وأنا الذي سرقتهما.

لبث ايليا بتروفتش فاغر الفم، وهرع ناس من كل جهة.

وأعاد راسكولنيكوف الإدلاء بإفادته.

خاتمة

الفصل الأول

سيبيريا... على الشاطئين المقفرين من نهر عريض، تقوم مدينة هي أحد المراكز الحكومية في روسيا. إن في هذه المدينة قلعة، وإن في القلعة سجناً. وفي هذا السجن حُبس، منذ تسعة أشهر، السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية[92]، روديون راسكولنيكوف، الذي انقضت حوالي سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته.

لقد سارت إجراءات المحاكمة بدون مصاعب. كرر المجرم إفادته بثبات ووضوح ودقة، لم تتداخل الظروف في أقواله، ولا حاول أن يخفف من شأن جرمه، ولا هو شوّه الوقائع، أو أسقط منها شيئاً. حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه، وأوضح سر الرهن اللوح الصغير بشريط معدني، الذي كان بيدي العجوز القتيل؛ - وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق؛ وعدَّدَ بعض الأشياء التي كان يضمها الصندوق؛ وأوضح أيضاً سر مقتل اليزافيتا؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب، وكيف جاء بعده الطالب؛ وذكر الأقوال التي تبادلأها كلاهما؛ وقصّ، كيف أنه، هو القاتل، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيقولاي ودمتري،

فاختبأ في الشقة الخالية، ثم عاد إلى بيته. وختم ذلك كله بأن حدّد صخرة موجودة في فناء أحد المنازل بشارع فوزنيسينسكايا، قرب باب الفناء، حيث عُثر على الأشياء والمحفظة المسروقة. الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبقَ منها في الظل شيء. وقد دهش المحققون والقضاة دهشةً خاصة إذ علموا أن الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكراً صحيحاً، حتى لقد أخطأ في عددها. أما قوله إنه لم يفتح المحفظة مرةً واحدة بل وإنه يجهل المبلغ الذي تحتويه فقد بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبين أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبكاً؛ كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق، وهي أكبرها، قد ساءت حالها من طول بقائها تحت الصخرة). وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب في هذه النقطة، مع انه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق بصراحة ومن تلقاء نفسه. ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون أن يعرف ما تحتويه. غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أُرتكبت إلا في نوبة جنون طارئة، أي في لحظة: «مونومانيا» القتل والسرقة، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون المؤقت، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام. ثم إن حالة الوسواس (الهيبوكوندريا) المزمن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود، جازمين قاطعين؛ فمن هؤلاء: الدكتور زوسيموف صديقه القديم، ورفاقه القدامى، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه، والخدم. ذلك كله ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم

عادي، قاتل أو سارق، أي شبه على الإطلاق، وأن شأنه شأن آخر، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف. ولكن الجاني نفسه لم يحاول أن يدافع عن نفسه، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية أشد الأسف. حتى إذا أُلقي عليه السؤال الأخير عن السبب الذي دفعه إلى القتل والسرقة، أعلن بوضوح تام ودقة فظة أن فقره، وعجزه عن الخروج منه، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة، بمعونة ثلاثة آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز، أما القتل فإنه عزم عليه بسبب طبعه الطائش والضعيف والذي هيجته، زيادة على ذلك، بلاياه واخفاقاته. ولما سئل عن الدافع الذي حدا به إلى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة مخلصة.

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة، بل كان فيه غلظة وفظاظة! . . . .

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه الجريمة، وربما كان مرد ذلك إلى أن الجاني لم يحاول أن يسوغ نفسه، حتى لقد أظهر رغبةً في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام. ولقد بَصر بعين الاعتبار إلى جميع الظروف العجيبة الخاصة التي لابست القضية. من ذلك أن حالة المرض والعوز التي كان عليها المتهم قبل انفاذه جريمته لم توضع موضع الشك. كما أن عدم استفادة الجاني من المسروقات قد نُسب إلى الندامة وعذاب الضمير تارة، ونسب تارة أخرى إلى حالة قواه العقلية التي لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة. وكان مقتل اليزافيتا، دون عمد، مثالاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده: نحن ههنا إزاء رجل يرتكب جريمتي قتل، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً! ذلك كله بالإضافة إلى أن الجاني قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في اللحظة التي اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الإفادة الكاذبة التي أدلى بها شخص مهووس خارت عزيمته (نيقولاي)،

بل وفي اللحظة التي لم يكن فيها أي دليل واضح يدين القاتل الحقيقي، بل ولم تبق فيها أية شبهة تحوم حوله. (لقد حافظ بورفيري بتروفتش على وعده وبر بعهده تماماً). ذلك كله قد أسهم في حمل المحكمة على أن تسلِّم للجاني بظروف مخففة.

يضاف إلى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البتة. فإن الطالب السابق رازوميخين قد استطاع أن يعثر لا يدري أحد من أين على شهادات ثَبُتَ صدقها، بأن الجاني راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد، أثناء دراسته بالجامعة، على رفيق فقير مصاب بداء السل، فقام بأوده وسد حاجاته وخفف عنه خلال ستة أشهر كاملة. حتى إذا مات رفيقه ذاك، اهتم راسكولنيكوف بأبيه، وهو شيخ عاجز بقي وحيداً في هذه الحياة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد)، ثم أدخله مأوى للشيوخ، حتى إذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة، تكفل راسكولنيكوف بنفقات دفنه.

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسكولنيكوف. وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهي أم خطيبته المتوفاة)، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع «الأركان الأربعة». قد أنقذ، أثناء حريق، في ذات ليلة، طفلين صغيرين من مسكن شبّت فيه ألسنة النيران واشتعل، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق. وقد جرى تحقيق دقيق في هذه الواقعة، فشهد بصدقها شهود كثيرون. الخلاصة أن كل شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثماني سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة.

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى. واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلاها إلى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة. لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل إليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى آفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة.

وكان مرض بولخيريا الكسندروفنا إصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الجنون لدرجة ما أن لم يكن كاملاً. إن دونيا، حين عادت إلى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة، قد وجدت أمها في حالة حمى بالغة وهذيان شديد. فاتفقت مع رازوميخين في ذلك المساء نفسه على الأجوبة التي ينبغي أن يجيبا بها بولخيريا الكسندروفنا متى سألتهما عن ابنها، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر، سفر بعيد، سفر إلى مكان على حدود روسيا، فقد كُلِّف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة. فما كان أشد دهشتهما حين لم تطرح عليهما بولخيريا الكسندروفنا أي سؤال، لا في ذلك الحين ولا بعده؛ حتى أنها، على خلاف ذلك، قد تخيّلت هي نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة؛ وقد قصّت عليهما، وهي تبكي زيارة ابنها لها مودّعاً، وألمحت في هذه المناسبة، ببعض الإشارات والتلميحات، إلى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية، قائلة: أن لابنها روديا خصوماً أشداء عتاة، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار. أما عن مستقبل ابنها، فإنها لا تشك في أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح في المستقبل «رجل دولة»؛ فإن مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوي على ذلك. وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع، حتى لقد كانت تقرؤها في بعض الأحيان بصوت عال، وتوشك أن تنام معها في الليل. ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا في ذلك الأوان، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن مَنْ حولها يتحاشون أي حديث عنه (وكان

حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً). وأصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولخيريا الكسندروفنا آخر الأمر وعدم اكتراثها لبعض النقاط. حتى لقد كانت، مثلاً، لا تشكو من أنها لا تتلقى أيّ رسالة من ابنها، مع أنها كانت قبل ذلك، في مدينتها الصغيرة، لا تحيا إلا على الانتظار والأمل في تلقي أنباء ابنها الحبيب روديا بأسرع وقت ممكن. ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير، وكان لها بمثابة إنذار، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذي حل بابنها، وأنها لا تريد أن تسألهما، لخشيتها من أن تعرف شيئاً أفظع. ومهما يكن من أمر، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولخيريا الكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة.

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيهاً ما كان للشابين أن يجيبا معه عن أسئلتها إجابة تامة دون أن يشيرا لها إلى المكان الذي يوجد فيها روديا. حتى إذا جاءت الإجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم في حالة حزن رهيب دامت مدة طويلة. وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق، وانتهت إلى هذه النتيجة، وهي أن التزام الصمت التام في النقاط الحسّاسة أفضل وأسلم. ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شيء أن الأم المسكينة تشتبه في شيء ما، في شيء مروِّع فظيع. وتذكرت دونيا، فيما تذكرت، بعض أقوال أخيها. ألم يقل لها أن بولخيريا الكسندروفنا سمعتها تهذي، في الليلة التي سبقت اللحظة الحاسمة من لقائهما الأخير، بُعَيْدَ المشهد الذي حدث مع سفدريجايلوف؟ ألم تسمع بولخيريا الكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء، ففهمت شبه فهم؟ وكثيراً ما أصبح يحدث، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين عابس ودموع خرساء، أن ينتاب المريضة انتعاش مرضي ونشاط هستيري، فتأخذ تتكلم عن ابنها، وعن آمالها، وعن المستقبل، متدفقةً تدفقاً سريعاً،

بغير توقف تقريباً! . . . وكانت أخيلتها في بعض الأحيان عجيبة حقاً! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها مواساةً لها، وتسريةً عنها، (ولعل موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلي عليها ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها الثري الذي لا ينضب له معين. . .

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته. وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف في السجن كلما تمكن من ذلك. وكذلك كانت تفعل صونيا. وأزفت أخيراً ساعة الفراق. فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون أبدياً. وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك. وقد ترسّخت في دماغ رازوميخين، في دماغه الفتيّ الفائر المتحمّس المندفع، ترسّخت ترسُّخاً قوياً، فكرة المشروع الذي قام في ذهنه، وهو أن يرسي قواعد مصيره المقبل، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية، فيدّخر ولو مبلغاً قليلاً من المال ليمضي يقيم في سيبيريا، حيث الأرض غنية، وحيث الأيدي العاملة ورؤوس الأموال قليلة. فهناك سيستقرون، بالمدينة نفسها التي سيكون فيها روديا، وهناك. . . سيبدؤون جميعاً حياة جديدة!

وبكى الجميع في ساعة الفراق. كان راسكولنيكوف، خلال الأيام الأخيرة مغموماً جداً، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمّه، ويُظهِرُ قلقاً شديداً عليها، فكان يتعذّب عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرها بأسوأ العواقب. ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولخيريا الكسندروفنا معرفة دقيقة، أصبح قاتم النفس مظلم المزاج. ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة، فهو لا يبوح لها بما في نفسه. وكانت صونيا، بفضل المال الذي تركه لها سفدريجايلوف، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التي ستضبم راسكولنيكوف. إنهما لم يبحثا هذا الأمر معاً في يوم من الأيام، ولكنهما كلاهما يعرف أن الأمر سيكون كذلك. وفي اللحظة الأخيرة، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامةً غريبة حين سمع

التأكيدات الحارة من أخته ومن رازوميخين عن المستقبل الجميل الذي ينتظرهم جميعاً عند خروجه من السجن. لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً.

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا.

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا من رازوميخين. وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً، وكان يرين عليه جو الحزن. وكان بين المدعوين بورفيري بتروفتش وزوسيموف. وقد اكتسى رازوميخين في الآونة الأخيرة مظهر رجل قوي العزيمة ثابت الرأي. وكانت دونيا تؤمن إيماناً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه. وكان لا يمكنها، على كل حال، إلا أن تؤمن بذلك: فإن إرادة حديدية كانت تتجلى في هذا الرجل. ولقد استأنف، خاصةً، متابعة دروس الجامعة لينهي دراسته. وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل، وكانا كلاهما ينتويان حقاً أن يرحلا إلى سيبيريا بعد خمس سنين. وإلى أن يحين ذلك الحين، كانا يتكلان على صونيا.

وقد باركت بولخيريا الكسندروفنا زواج ابنتها ورازميخين وفرحت به، لكنها سرعان ما سقطت في حزن أشد وأسى أعمق وأكبر. ومن أجل أن يهيئ لها رازوميخين بضع لحظات من فرح قصَّ عليها قصة الطالب وأبيه العاجز، وحكى لها حكاية الحريق الذي حدث في السنة الماضية والذي برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة الّلهب حتى إنه مرض بسبب ذلك. فكانت القصص تلقي بولخيريا الكسندروفنا التي كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال، تلقيها في نشوة تشبه ان تكون وجداً، حتى أصبحت لا تتكلم إلا عن هذا، وحتى مضت في ذلك إلى حدّ استيقاف الناس في الشارع لتقصّ عليهم هي أيضاً... (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيثما تذهب). أصبحت بولخيريا الكسندروفنا تتجه إلى أول إنسان تلقاه، في عربات الخيل، في الدكاكين، في أي مكان آخر، فتأخذ تكلمه عن ابنها، وعن مقالته، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيضةً

كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف أنه اقتحم ألسنة اللّهب أثناء حريق، وهلمّ جرا. وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها. كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع أحد اسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها.

وقد اكتشفت بولخيريا الكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما روديا، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر. وبلغ قلقها أبعاداً خطيرة في النهاية. فهي تارة تنفجر باكية ناشجة، وتارة أخرى تتكلم هارفة هاذية. وفي ذات صباح أعلنت فجأة أن روديا وفقاً لحساباتها عائد في القريب، فقد وعدها وهو يودعها وهي تتذكر وعده أنه سيرجع بعد تسعة أشهر.

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته، فهيأت له غرفتها هي، ودهنت الأثاث، وغسلت، ومسحت، وعلقت ستائر جديدة، الخ.. ولم تقل دونيا شيئاً، رغم جزعها، بل ساعدتها في هذه الاستعدادات. وبعد أن قضت بولخيريا الكسندروفنا ذلك النهار كله في تخيل أشياء تبلغ غاية الجنون، وفي البكاء والانقياد للأحلام، مرضت في تلك الليلة نفسها، فما طلع الصباح حتى كانت في حالة هذيان، فقد اعترتها حمى حارة، ثم ماتت بعد أسبوعين.

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذي آل إليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها، وتفترض ابنتها.

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله إلى سيبيريا. كانت صونيا تكتب إلى رازوميخين كل شهر دون تخلف، وكل شهر أيضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج. وفي أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوميخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى.

ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك؛ وأن من السهل عليهما أن يكوّنا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التي يعيش فيها أخوهما البائس. كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعتقل. كانت لا تذكر شيئاً عن آمالها، وعن أحلامها المتصلة بالمستقبل، لا ولا عن عواطفها الشخصية. كانت صونيا في هذه الرسائل، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية وحياته الروحية، تذكر وقائع جرت له، وتنقل أقوالاً قالها، وتقدم تفاصيل عن صحته، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التي عبّر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك، وما كلّفها بأن تنقله، الخ. وكانت هذه الأخبار كلها مفصّلة، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها، ولم يكن من الممكن أن يحدث أي خطأ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة.

غير أن جميع هذه الأنباء، ولا سيما في البداية، لم تحمل إلى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة. كانت صونيا تبلغهما أن راسكولنيكوف لا يزال قاتم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التي تنقلها إليه كلما تلقت رسالةً منهما؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب عن وفاتها، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثَّرَ في نفسه تأثيراً كبيراً، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل.

وكانت صونيا تقول لهما أيضاً إنه رغم انطوائه على نفسه دائماً، يبدو راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة، وأنه يدرك الوضع الذي هو فيه، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره في مستقبل قريب، وأنه لا يراوده أي أمل باطل في غير محله (كما يحدث عادة للسجناء)، وأنه لا يدهش من شيء تقريباً، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة.

وكانت تقول لهما إن صحته حسنة، وإنه يمضي إلى الشغل دون تهرّب أو تملّص، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة. وأنه لا يكاد يهتم بأمر الطعام، ولكن هذا الطعام، في غير أيام الآحاد وأيام الأعياد، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هي صونيا، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شيء من الشاي (أما فيما عدا ذلك، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به، وقال لها إن عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه).

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه في السجن يسكن مع السجناء الآخرين في مهجع مشترك، وأنها لم تدخل المهجع، ولكن ظاهر المباني يدل على أن المكان ضيق قذر غير صحي؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر؛ وأنه على كل حال، إذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة إلى هذا الحد، لا يفعل ذلك التزاماً بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معيّن، بل لأنه لا يكترث للظروف المادية ولا يحفل بها.

وكتبت صونيا بصراحة أنه، في أول الأمر خاصةً، لم يكن يعبأ بزياراتها، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء، ولا يفتح فمه بكلمة، ويعاملها معاملة أميل إلى الفظاظة. غير أن لقاءاتها أصبحت عادةً له بعد ذلك، وأوشكت أن تصير حاجة، حتى أن الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التي لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألمّ بها. إنها في أيام الأعياد تراه عند بوابة السجن، من وراء القضبان الحديدية، أو تراه في غرفة هيئة الحرس التي يؤتى به إليها بضع دقائق. وأما في الأيام الأخرى فإنها تراه أثناء الشغل، في ورشات العمل، أو في مصانع الآجر، أو في المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايرطيش[93]. أما عنها هي فلم تزد على أن أشارت إلى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها في المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها؛ وأنها تعمل في الخياطة، وأنها لقلة الخياطات في المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا

تستغني عنها. ولكن صونيا أسقطت ذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه، بفضلها هي، أن يحظى بشيء من العطف عليه، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة، وكانت الأشغال التي يُعهد بها إليه غير شاقة كثيراً، الخ....

ثم وصل النبأ الذي يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية في الرسائل الأخيرة التي بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذي يقول إن راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين، وأن هؤلاء لا يحبونه كثيراً، وأنه يظل صامتاً ساعات بكاملها، وأن شحوبه يزداد شيئاً بعد شيء.

وكتبت صونيا أخيراً في ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً، وأنه يعالج الآن في مستشفى المعتقل.

الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذ مدة طويلة، ولكن لا الأهوال التي تشتمل عليها حياة السجين، ولا الأشغال الإجبارية الشاقة، ولا الطعام الرديء، ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من القصاصتين المختلفتي اللون[94]، لا شيء من هذا كله هو الذي حطّمه! لا، لا، إن جميع هذه الأنواع من البؤس والعذاب لا تعنيه في شيء! بالعكس: لقد كان يرضيه أن يكون عليه أن يعمل عملاً مضنياً. إنه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن يتمتع ببضع ساعات من نوم هادئ مريح. أما الطعام الرديء، أما حساء الكرنب ذاك المليء بالصراصير، فإنه لا يهمه البتة. ألم يتفق له، حين كان طالباً، في أول عهده بالحياة، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام؟ وأما ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء، وهي تلائم طراز الحياة الجديدة التي يحياها، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ وأما الأغلال الحديدية، فقد كان لا يكاد يُحِسُّ بها... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه محلوقاً أو من ملابس السجين؟ يخجل أمام من؟ أمام صونيا؟ إن صونيا تخاف منه وتخشاه، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا، صونيا التي ينتقم منها فيعاملها باحتقار وفظاظة. ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزي

والعار لا يرجع لا إلى أن شعر رأسه محلوق، ولا إلى أنه مكبّل بالسلاسل! إن ما كان يشعره بالخزي والعار، وما كان يؤلمه إيلاماً شديداً حتى جعله مريضاً، إنما هو الجراح التي أصيبت بها كبرياؤه! آه. . . لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان في وسعه أن يتهم نفسه وأن يدين نفسه! لو استطاع ذلك إذن لكان يمكن أن يحتمل الخزي وأن يحتمل العار! ولكنه مهما تشتد قسوته في الحكم على نفسه، فإن ضميره المتصلب كان لا يجد في ماضيه أية خطيئة فظيعة، اللهم إلا أن تكون هذه الخطيئة هي أن ضربته قد أخفقت. صحيح أن هذا يمكن أن يقع لجميع الناس، ولكنه كان يشعر بالخزي من أنه ضاع بمثل هذه العماوة، بمثل هذه الحماقة، بمثل هذا الانهيار، ومن أنه خاصة مضطر، وهو راسكولنيكوف، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى، وأن يخضع أمام «سخافة» هذا الحكم، إذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة.

إن قلقاً لا موضوع له ولا غاية له في الحاضر، وإن تضحية متصلة غير منقطعة في المستقبل، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض! فأي فائدة إذاً في أن يقول لنفسه أنه بعد ثماني سنين لن يكون عمره قد تجاوز اثنتين وثلاثين سنة، وأنه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته؟ علام يحيا؟ ما هي الغاية التي ما يزال يستطيع أن يلاحقها؟ ما هو الهدف الذي ما يزال يمكنه أن يسعى إليه؟ ماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر في الصراع والكفاح؟ أيحيا من أجل أن يوجد؟ ألا أنه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحّي بوجوده ألف مرة في سبيل فكرة، في سبيل أمل، بل وفي سبيل تحقيق نزوة! إن الوجود في حد ذاته لم يكن كافياً له في يوم من الأيام. وإنما هو كان يطمع دائماً في أكثر من ذلك! ولعل عنف رغباته كان وحده السبب في أنه ظن نفسه إنساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره.

ولو أن القدر قد اختار له الندامة، الندامة المحرقة التي تحطم القلب وتطرد النوم. الندامة التي تجعل صاحبها يفكر في الانتحار شنقاً أو غرقاً، إذاً لكان سعيداً كل السعادة! إن الآلام والدموع هي الحياة أيضاً!

ولكن راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته.

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته، كما غضب في الماضي من أفعاله الشاذة الغبية التي قادته إلى المعتقل. أما وقد أصبح الآن في المعتقل، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال بحرية تامة، فإنه لا يراها شاذة ولا سخيفة إلى الحد الذي تراءىٔ له قبل ذلك في اللحظة المحتومة المشئومة.

إنه الآن يقول لنفسه: «هل فكرتي أغبى من تلك الأفكار والنظريات التي تجري في هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم؟ يكفي أن نواجه الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى ندرك أن فكرتي ليست... غريبة إلى ذلك الحد الذي قد يتوهمه بعضهم... أيه أيها الجاحدون، أيها الفلاسفة التافهون، لماذا تتوقفون في منتصف الطريق؟ غريب! لماذا تبدو لهم فعلتي شاذة إلى هذا الحد؟ ألأنها جريمة؟ ماذا تعني كلمة: جريمة؟ إن ضميري مرتاح. صحيح أن جريمة قد وقعت. صحيح أن نص القانون قد اختُرق وأن دماً قد سُفِك. فإذا كان الأمر أمر تقيد بنص القانون، فاقطعوا رأسي... ولنسكت! ولكن يجب أن نذكر في هذه الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا إلى الإنسانية ولم يكونوا قد ورثوا السلطة وراثةً وإنما استولوا عليها استيلاءً، وبالتالي كان ينبغي أن تقطع رؤوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى. إن الفرق الوحيد بين هؤلاء وبيني هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم، فكان ذلك مبرراً لهم، أما أنا فلم أقدر على الاحتمال. إذن كان لا يحق لي أن أجيز لنفسي القيام بتلك الخطوة».

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها: وهي أنه لم يستطع أن يحتمل، بل مضى يشي بنفسه ويعترف بجريمته.

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال: لماذا لم ينتحر

حينذاك؟ لماذا، حين مال على ماء النهر، آثر أن يشي بنفسه؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة، يصعب التغلب عليه إلى هذه الدرجة من الصعوبة؟ إن سفدريجايلوف الذي كان يخشى الموت، قد استطاع مع ذلك أن ينتصر على حب الحياة هذا!

كان راسكولنيكوف يعاني من إلقاء هذه الأسئلة على نفسه عذاباً شديداً، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس في نفسه وفي اقتناعاته كذباً. إنه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن أن يكون علامة انعطاف مقبل في حياته، وبشارة انبعاث جديد، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر. وإنما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة البليد، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على ذلك الثقل. وكان إذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً، ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء. ومع ذلك ما أقسى أنواع العذاب، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعانيها بعضهم! المتشردون مثلاً... هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها، في نظرهم، لشعاع من شمس، لغابة متوحشة، لنبع ماء بارد في قرارة الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين، فأصبحت صورته تلازمه حتى لكأنها صورة لقاء خليلته يراها في منامه)، لنبتة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع، لطير يغرِّد في الأدغال؟

وأمعن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الإمعان، فكانت تفجأ بصره، وتثير دهشته أمثلةٌ أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً. إن في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوته، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال. لقد كان يعيش غاضاً بصره خافضاً عينيه إن صح التعبير. كان النظر إلى ما حوله يثير اشمئزازه. غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه آخر الأمر، فإذا هو، على غير علم منه تقريباً، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلده أو يخطر بباله قبل ذلك. ولعل ما أدهشه أكثر من أي شيء آخر

هو الهوّة الرهيبة، هذه الهوّة التي لا يمكن اجتيازها، أعني الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس. لكأنهم ينتمون إلى أجناس مختلفة. إنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة شك وعداوة. وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر، ولكنه لم يتصور في يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة.

وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نُفوا إلى سيبيريا لجرائم سياسية[95]. فكان هؤلاء ينظرون إلى الآخرين نظرتهم إلى رعاع وعبيد، ويعاملونهم معاملة احتقار، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك في هذا الرأي. ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواحٍ كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم. وكان بين الروس أيضاً أناس يزدرون رفاقهم ازدراءً زائداً، ولا سيما ضابط سابق، ورجلان مثقفان. وقد أدرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً.

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته. حتى لقد انتهى بهم الأمر إلى كرهه. لماذا؟ ليس يدري! كان بعضهم، وهم أشد إجراماً منه، يحتقرونه ويستهزئون به، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك! كان هؤلاء يقولون له:

- أنت سيد! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات فأس؟ ليس هذا شأن سيد من السادة!

وفي الأسبوع الثاني من الصوم الكبير، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه. فعل كما فعل الآخرون، فذهب إلى الكنيسة وصلّى. ولكن مشاجرة شبّت في ذات يوم دون أن يعرف لماذا. لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد، وأخذوا يصيحون قائلين له:

- أنت ملحد! أنت لا تؤمن بالله! يجب قتلك!

إنه لم يكلمهم في يوم من الأيام عن الله، ولا عن الدين؛ ولكنهم يريدون قتله بحجة أنه ملحد لا يؤمن بالله. لم يعترض بشيء، وصمت. ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً. فانتظره راسكولنيكوف هادئاً

صامتاً. لم يحرك ساكناً، لم يتزحزح من مكانه، ولا اختلجت قسمة من قسمات وجهه. واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي همَّ فيها الرجل أن يفتك بالضحية، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم.

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلاً: لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم. وكانوا لا يلقونها إلا في مناسبات نادرة، أثناء العمل، حين تجيء لتراه دقيقة واحدة. ومع ذلك عرفوها جميعاً، وعرفوا جميعاً أنها تبعته هو، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن. وهي لا تهب لهم مالاً، ولا تقدم إليهم خدمات خاصة. مرةً واحدة، في عيد الميلاد، حملت هديةً إلى السجن كله: فطائر صغيرة وخبزاً أبيض. غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شيء: أصبحت تتولى عنهم كتابة رسائل إلى أسرهم، وتضع الرسائل في البريد. وإلى صونيا إنما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة، يعهدون بالأشياء أو حتى بالأموال التي يريدون إرسالها إليهم، بإشارة من السجناء أنفسهم. كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين إليها في بيتها. وكان السجناء، إذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف، أو صادفت فريقاً منهم ذاهباً إلى العمل، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويحيونها جميعاً. كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون[96] يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة: «ماتوشكا»[97] صونيا سيميونوفنا، أنت أمنا الحنون الرؤوف». وكانت صونيا ترد على تحيتهم، وتبتسم لهم، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم. كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي، فإذا مرّت التفتوا يتابعونها بنظراتهم. كانوا لا يقولون فيها إلا مدحاً، كانوا يمدحون حتى ضآلتها. أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح. وإذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً.

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها، وعيد الفصح كله. فلما أصبح في دور النقاهة تذكر الأحلام التي رآها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان. لقد حلم، طوال مدة مرضه، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثله من قبل، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا؛ وأن جميع الناس سيهلكون إلا قلة قليلة مختارة. إن طفيليات من نوع جديد قد ظهرت، واختارت أجسام البشر مسكناً لها. غير أن هذه المخلوقات الميكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وإرادة، والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانين مسعورين، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرَّؤون من الخطأ، في أحكامهم، في نتائجهم العلمية، في مبادئهم الأخلاقية والدينية. إن قرى ومدناً وأمماً بكاملها قد سرت إليها هذه العدوى، وفقدت العقل. أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون، لا يفهم بعضهم عن بعض شيئاً، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً؛ كل واحد يؤمن بأنه الإنسان الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، فإذا نظر إلى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعةً وحسرة. أصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغي أن يُعد شراً وما ينبغي أن يعد خيراً. أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرِّئوا. أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يُفهم. هم يجتمعون ليؤلِّفوا جيوشاً كبيرة، فما أن يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق في جميع الصفوف فتنحل الجيوش، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض، فيَعَضّ بعضهم بعضاً، ويذبح بعضهم بعضاً، ويلتهم بعضهم بعضاً. في المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار، ويُستنفر الشعب. ولكن من الذي يستنفره؟ ولماذا يستنفره؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً. الرعب يستبد بجميع الخلق. المهن العادية هجرها أصحابها، لأن كل واحد يعرض آراءه

وإصلاحاته، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد. الزراعة أُهملت إهمالاً تاماً. هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك، متعاهدين بأغلظ الإيمان على أن لا يفترقوا قط، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا في شيء لا يمت بأي صلة إلى ما عقدوا النية على القيام به، ثم ما يلبثون أن يأخذوا في التراشق بالتهم، ثم ما يلبثون أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً. وتشتعل الحرائق، وتظهر المجاعة. كل شيء يصيبه الدمار، وجميع الناس تقريباً يهلكون. البلاء ما ينفك يشتد قوة ويتسع مدى. ولا ينجو من البلاء إلا عدد قليل من الناس: هم الأنقياء الأطهار، المصطفون الأخيار، الذين كتب عليهم أن ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة، أن يجددوا الأرض ويطهّروها. غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد في مكان، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم.

إن الشيء الذي كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان السخيف يترجّع في ذاكرته ترجُّعاً حزيناً وأليماً. وأن الانطباع الذي خلفته تلك الأحلام المؤلمة لا يمحى إلا ببطء.

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح. أصبحت الأيام دافئة مضيئة. هي أيام ربيع حقاً. فُتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هي نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير).

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره إلا مرتين، وقد اضطرت في المرتين كلتيهما أن تطلب إذناً بذلك، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً. لكنها كثيراً ما كانت تأتي إلى فناء المستشفى، ولا سيما عند هبوط الليل لتنظر إلى النوافذ من بعيد، ولتمكث في الفناء بضع دقائق أحياناً.

ففي مساء من الأماسي، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه تقريباً وكان نائماً، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة، فإذا هو

يلمح صونيا تحت، قرب الباب. كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً. فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنةً نفذت في قلبه. فارتعش وأسرع يبتعد عن النافذة.

ولم تجيء صونيا في غد، ولا جاءت بعد غد. فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر. وأُخرج أخيراً من المستشفى، فلما عاد إلى السجن علم من السجناء أن صونيا سيميونوفنا مريضة، وأنها ملازمة غرفتها لا تبرحها.

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً، وأرسل يسأل عنها. فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً. وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت إليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص، وفيها تنبئه بأن صحتها تحسنت كثيراً، وأن مرضها لم يكن إلا برداً بسيطاً، وأنها ستمضي تراه أثناء العمل في أقرب فرصة. فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة.

كان النهار في هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً. ومضى راسكولنيكوف إلى العمل على ضفاف النهر في ساعة مبكرة من الصباح هي الساعة السادسة، وذلك تحت سقيفة فيها فرن لحرق الرخام الشفاف وسحقه. لم يرسل إلى هذا المكان إلا ثلاثة عمال من السجناء. فأما الأول فقد عاد مع المراقب إلى السجن ليجيء بالأدوات، وأما الثاني فكان يهيئ الحطب ويضعه في الفرن. وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على إحدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر. إن المرء يرى، من على هذه الضفة العلية، هضبة واسعة. ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن. إن هناك في المرج الذي تغمره الشمس، والذي يمتد على مدى البصر، خيام، بدو رحّل تبدو للناظر إليها نقاطاً صغيرة سوداء. هناك الحرية. هناك يعيش بشر آخرون، يختلفون كل الاختلاف

عن البشر الذين يعيشون هنا. هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر إبراهيم وقطعانه لمّا ينصرم بعد. كان راسكولنيكوف ينظر إلى ذلك المشهد جالساً في مكانه جامداً على وضعه، لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره. لقد انزلق فكره نحو الاسترسال في الأحلام والاستغراق في التأمل دون أن يحس. أصبح لا يفكر في شيء، واجتاح نفسه حزنٌ كبير.

وفجأة وقفت صونيا أمامه. كانت قد دنت منه دون ضجة، وها هي ذي تجلس إلى جانبه. إن برودة الصباح لم تكن قد خفّت بعد. وكانت صونيا ترتدي معطفاً مهترئاً، وتضع الشال الأخضر. وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير. ابتسمت له في رقّة ولطف، مرحة الهيئة، ولكنها على عادتها لم تمدد إليه يدها إلا خجلة وجلة.

كانت دائماً تمد إليه يدها على خجل ووجل، وكانت في بعض الأحيان لا تمدها إليه البتة، كأنما هي تخشى أن يدفعها عنه. كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض، وكان يبدو عليه دائماً أنه يستقبل الفتاة باستياء ومضض. وفي بعض الأحيان كان يصرُّ على الصمت في عناد طوال مدة الزيارة. وكانت صونيا في بعض الأيام ترتعش أمامه خائفةً، ثم تنصرف وفي نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة. أما في هذه المرة فإن يديهما لم تحاولا أن تنفصلا. ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة، ولم يقل شيئاً، وخفض عينيه. كانا وحيدين. لم يكن يراهما أحد. كان الحارس قد ابتعد للحظات.

لا يدري راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا. لقد ارتمى راسكولنيكوف على قدمي صونيا، وبكى، وضمّ ركبتيها إلى صدره. ذُعرت في أول الأمر ذعراً شديداً، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى. ثم نهضت فجأة، ونظرت إليه مرتجفة مرتعشة. ولكنها سرعان

ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة. أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها. لقد فهمت - وليس يخالجها الآن في ذلك أي شك - فهمت أنه يحبها، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية، وأن تلك الدقيقة قد آن أوانها أخيراً. . .

أرادا أن يتكلما، ولكنهما لم يستطيعا. امتلأت عيناهما دموعاً. كانا كلاهما أصفري الوجه هزيلي الجسم؛ ولكن ها هو ذا فجر مستقبلٍ جديد يسطع في وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً إلى حياة جديدة. لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً، إن قلب كل منهما يفجّر في قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب.

قررا أن ينتظرا وأن يذعنا. ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين أخرى في سيبيريا. صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً. هو يعرف ذلك. هو يحس ذلك بكل كيانه الجديد. وهي، أليست تحيا بحياته، أليست حياتها من حياته؟

في ذلك المساء، في مبنى السجن المقفل، فكر راسكولنيكوف في صونيا وهو راقد على مضجعه. وبدا له، في ذلك المساء أيضاً، أن جميع السجناء، جميع أعدائه القدامى، نظروا إليه نظرة جديدة، ورأوه بأعين أخرى. لقد خاطبهم، فأجابوه برقة ونعومة. هو يتذكر ذلك الآن، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون: ألا يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم؟

فكر في صونيا. فتذكر أنه قد عذبها دائماً، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً. تذكر وجهها الصغير الشاحب الذي نحل نحولاً شديداً، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه. فهو يعرف أنه سيكفّر الآن عن جميع تلك الآلام بحُبّ لا نهاية له.

ثم، ما قيمة تلك الآلام الماضية كلها الآن؟ إن كل شيء، حتى

الجريمة التي ارتكبها، وحتى الحكم الذي صدر عليه، وحتى النفي الذي يقاسي منه، إن كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاعة الأولى، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو. ثم إن راسكولنيكوف كان في ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة: فإنما هو يشعر بإحساسات، لا شيء غير الإحساسات. لقد حلت الحياة محل الجدل؛ وفي أعماق نفسه أصبح ينضج شيء آخر تماماً.

وكان تحت وسادته إنجيل، فتناوله بحركة آلية. كان هذا الكتاب لصونيا، وهو بعينه الكتاب الذي قرأت له فيه في الماضي قصة انبعاث لعازر. كان راسكولنيكوف يقدِّر في أول عهده بالسجن أن صونيا ستصدّع رأسه بالكلام على الدين، وأنها ستحدِّثه عن الإنجيل بغير انقطاع، وأنها ستحاول أن تفرض عليه كتباً دينية. فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا الموضوع في يوم من الأيام، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالإنجيل قط. إنه هو الذي طلب منها ذلك قبل مرضه بقليل، فحملت إليه الكتاب دون أن تقول كلمة واحدة.

وهو لم يفتحه في تلك المرة، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن بسرعة كوميض البرق: «هل يمكن أن لا يكون إيمانها الآن هو إيماني؟ أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هي عواطفي وأشواقي؟...»

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هي أيضاً، وألمّ بها المرض مرة أخرى في تلك الليلة. ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة، وكانت تبلغ من المباغتة، أنها تكاد ترعبها! سبع سنين، سبع سنين فقط!

ومرّت بهما في البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين السبع

أياماً سبعة. كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة الجديدة لن توهب له بغير تضحية، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً، وأن يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى، قصة تجدد إنسان شيئاً بعد شيء، قصة انبعاثه رويداً رويداً، قصة انتقاله من عالم إلى عالم آخر متدرجاً، قصة معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل.

هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة، أما قصتنا التي نرويها الآن فهي تنتهي هنا.

الهوامش

(1) «وأنه ما من إنسان. . .»: وردت في النص باللاتينية Nihil humanum وهي إشارة إلى جملة تيرانس المشهورة: «أنا إنسان، فلا شيء مما هو إنساني غريب عني».

(2) حرب مشروعة. (بالفرنسية في الأصل).

(3) عهد «النقد المفيد»: الإشارة هنا إلى مطلع الستينات من القرن 19، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي، في جو يسوده شيء من الحرية. ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة 1861، نددت عدة صحف، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفسكي، بسيد اسمه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار.

(4) «الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة العصر»: في عام 1861 نددت المجلة الأسبوعية «العصر»، (في رسالة من مراسلها بمدينة برم)، بالتمثيلية الخليعة التي قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين «ليال مصرية» التي يصف فيها غراميات كليوباتره. وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة «العصر» وتسفه تدخلها هذا. وقد شارك دوستويفسكي في تلك المساجلات (في مجلته «الزمان»)، متهكماً على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمراً تافهاً لا قيمة له.

(5) «أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسسنا بسوء»: إن قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في 19 نيسان (أبريل) سنة 1861، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم إلا الأراضي الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم، أما الغابات والمراعي فقد ظلت ملكاً للسادة.

(6) «مطاعم دوسو»: هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع حينذاك، وقد أقام فيه دوستويفسكي زمناً. والحديث عن «الحلقات» إشارة إلى مكان بجزيرة إيلاجين اسمه «الحلقة»، وهو محل ملاه ومباهج وملذات شعبية.

(7) «يوناني حقير من نييجين»: في عام 1779 نزح عدد كبير من يونان القرم في عهد كاترينا الثانية، إلى مدينة نييجين، وهي مدينة صغيرة من مدن أوكرانيا لا تبعد كثيراً عن مدينة كييف (عاصمة أوكرانيا حالياً). وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجاراً أغنياء.

(8) خمرتي فسدت «لأن خمرتي فسدت»: بالفرنسية في الأصل، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل إلى الشراب.

(9) «بيرج»: ألماني كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران بالمنطاد، وقد نظم في بطرسبرج نزهات طيران بالمنطاد.

(10) «محطة مالايا-فيشيرا»: محطة تقع على خط موسكو - سان بطرسبرج، وتبعد عن العاصمة مسافة 150 كيلومتراً.

(11) «آنيسكا»: تصغير تحقيري لاسم آنيسيا.

(12) «فيلكا»: تصغير تحقيري لاسم فيليب.

(13) من المعروف أن دوستويفسكي كان معجباً أشد الإعجاب بلوحة رافائيل «مادونا سيكستين» التي تأملها كثيراً بمدينة درسدن، وكان يحتفظ في حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها.

(14) «عمارة فيازمسكي»: عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكاً لأسرة الأمراء فيازمسكي. وهي في العهد الذي تجري فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جداً، وتضم بيوتاً مشبوهة ومأوى ليلياً.

(15) إن اسم رازوميخين مشتق من كلمة «رازوم» الروسية ومعناها «العقل». وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم، ويحل محله اسم راسودكين، المشتق من كلمة راسودوك الروسية ومعناها «الذكاء».

(16) «ضعيف»: وردت الكلمة بالألمانية في الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا إلى أن مشروع رازوميخين الذي يدور عليه الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التي لقيها دوستويفسكي نفسه من الناشرين، وعن الحلم الذي كان يحلمه دائماً وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه.

(17) «. . . وفي هذا الصباح ذهبنا كلتانا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا. . .»: حتى الآن كان دوستويفسكي يسمي أولاد مرميلادوف: بوليتشكا وليدوتشكا وكوليا. أما هنا وفيما بعد فقد ظهرت الصبية لينيا بدلا من ليدوتشكا ومثل هذه الأخطاء نصادفها في روايات دوستويفسكي الأخرى.

(18) «أين الحديث عن قيام لعازر؟»: يجب أن نتذكر أن قاضي التحقيق كان قد سأل راسكولنيكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر؟.

(19) «الفرسخ السابع»: كان يوجد على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج، مستشفى للمجانين؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى.

(20) «سترى الله»: إشارة إلى الآية الواردة في إنجيل متى: «طوبى للأطهار، لأنهم سيرون الله» (الإصحاح الخامس، 8).

(21) «إنجيل يوحنا، الإصحاح الحادي عشر).

(22) إنجيل مرقص (الإصحاح العاشر، 14).

(23) كان مفوض التحقيق جزءاً من الشرطة، فلما صدرت قوانين الإصلاح القضائي في 20 تشرين الثاني (نوفمبر 1864)، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل.

(24) بلا تكليف. (بالفرنسية في الأصل).

(25) ذلك واجب لا مفرّ منه. (بالفرنسية في الأصل). المعرب

(26) «يقال إن رجالاً من مستشاري الدولة...»: مستشار الدولة رتبة مدنية في روسيا القيصرية من الدرجة الخامسة وتعادل رتبة العقيد العسكرية...

(27) «فستتغير أسماؤنا على الأقل»: إشارة إلى قوانين الإصلاح القضائي المرتقب، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخاً هو تموز (يوليو) 1864.

(28) «بعد معركة ألما راسا»: هي معركة 20 أيلول (سبتمبر) 1854 التي خسرها الجيش الروسي فانكفأ إلى سيباستوبول أثناء حملة القرم.

(29) مهرِّج - بالفرنسية في الأصل.

(30) إشارة الى بداية حملة 1805 حين أفسد نابوليون خطط «المجلس الحربي الأعلى (هوفكريسجرات) بالنمسا، وأسر في أولم الجنرال النمسوي ماك هو وجيشه. أن تلك الأحداث قد وصفها تولستوي في روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الأول) الذي بدأ نشره في مجلة «الرسول الروسي» (كانون الثاني وشباط - يناير وفبراير) عند بدء نشر الأجزاء الأولى من رواية الجريمة والعقاب هذه.

(31) «أما في الواقع فإن قائدهم الجنرال ماك هو الذي استسلم»: الفيلدمارشال كارل ماك (1752-1828) عسكري نمساوي حاصرته القوات الفرنسية قرب قلعة أولم النمساوية حتى استسلم أسيراً لنابليون.

(32) رجل مجهول. (باللاتينية في الأصل).

(33) «ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً»: راجع المجلد الأول، الحاشية رقم 25.

(34) «بقساوسة ونواب»: من الأنظمة المتبعة في بداية تحقيق قضائي أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين؛ ويؤتى أيضاً بنائب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرِّف بهويته.

(35) «يقال إن غوغول... هو الذي كان يملك هذه الموهبة»: نيكولاي غوغول (1809-1852) - الكاتب الروسي العظيم مؤلف عدد من الأعمال الهجائية الساخرة.

(36) «متجر كنوب أو المتجر الإنجليزي»: متجران شهيران في قلب سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية.

(37) «يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين»: كانت هذه الأسماء الثلاثة تطلق على التيار الراديكالي السائد بين الشبيبة في ذلك الأوان. ومن المعروف أن مصطلح «العدمي» إنما أوجده تورجنيف وكان قد استعمله في روايته «الآباء والأبناء».

(38) «وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فوريه وداروين»: شارل فوريه (1772-1837) اشتراكي طوباوي فرنسي كبير رسم في مؤلفاته صورة مجتمع

المستقبل. وتشارلز داروين (1809-1882) عالم إنجليزي كبير، صاحب نظرية نشوء وارتقاء العالم العضوي.

(39) «في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارع ميشانسكايا»: في فترة الستينات في القرن الماضي أنشأ شباب بطرسبرج الديمقراطي عدداً من الكومونات. وكانت إحداها تقع في شارع ميشانسكايا الأوسط، أي في الحي الذي كان يعيش فيه دوستويفسكي أثناء كتاب الرواية. وقد عكست آراء ليبزياتنيكوف عن الكومونة موقف دوستويفسكي السلبي منها.

(40) هنا وفيما بعد يتهكم دوستويفسكي بلسان ليبزياتنيكوف على عدد من الأفكار (مساواة المرأة بالرجل، تحرير المرأة، حرية الأحاسيس... الخ) والتي نادى بها نيكولاي تشيرنيشيفسكي في رواية «ما العمل»؟

(41) يجب أن نميز. (بالفرنسية في الأصل).

(42) «لقد مضينا في اعتقاداتنا إلى مدى أبعد..»: أن ليبزياتنيكوف يعرض هنا آراء بيساريف (1840-1868) المتطرفة الموغلة في الراديكالية؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبورليوبوف (1836-1861) الذي كان كذلك راديكالياً جداً، ويهاجم الناقد الكبير بيلنسكي (1811-1848).

(43) «بل إنه لأكبر كثيراً من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين»: إن ليبزياتنيكوف يبالغ في آراء بيسارف وتلميذه زايتسيف اللذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة، وينادیان بأن حذاء من الحذائين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين.

(44) نصاً صريحاً وكاملاً. (بالفرنسية في الأصل).

(45) يا إله الرحمة! (بالألمانية في الأصل).

(46) «عملاً بالمبدأ القائل إن اليد اليمنى يجب أن تجهل...»: تحوير للمثل القائل «تجهل اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى».

(47) «العرض العام للمنهج الوضعي»: كتاب ظهر ببطرسبرج سنة 1866 يضع ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين: فيرشوف، كلود برنار، موليشوت، تيودور بيدريت «الدماغ والفكر». آدولف فاجنر «ما يدل عليه الإحصاء من أن الأفعال التي تبدو حرة في الظاهر إنما هي حتمية في الواقع».

(48) لم يكن لديه... لا تولون، ولا مصر، ولا ممر مونبلان...»: بالنسبة لتولون ومصر راجع الحاشية رقم 64 في المجلد الأول. أما مونبلان فهو سلسلة جبلية في الألب على الحدود بين فرنسا وايطاليا وسويسرا عبرها نابليون بجيشه في مايو عام 1800 نحو إيطاليا، حيث سحق القوات النمساوية في معركة مارنجو في 14 يونيو 1800

(49) «سيميون زاخارتش»: هو مارميلادوف.

(50) إنها تعلم لينيا أغنية «القرية الصغيرة» للموسيقار كليموفسكي التي كانت واسعة الشهرة آنذاك.

(51) لعل الأستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسي فرانسوا لوريه (1795-1851) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (1838).

(52) انصبي قامتك. (بالفرنسية في الأصل).

(53) كلميني بالفرنسية. (بالفرنسية في الأصل).

(54) نحن لا نمثل «بتروشكا» المبتذل... : بتروشكا هو البطل الرئيسي لفن مسرح العرائس الروسي الشعبي... وهو شخصية شجاعة، مرحة، يخرج منتصراً في العادة من خلافاته ومشاحناته مع السادة والقساوسة والشياطين... ألخ.

(55) «الفارس المتكئ على سيفه»: هذه هي الكلمات الأولى من قصيدة «فراق» للشاعر الرومانسي باتيوشكوف؛ وقد لحنت القصيدة سنة 1814، وراجت رواجاً كبيراً.

(56) خمسة قروش. (بالفرنسية في الأصل).

(57) مالبورو مسافر إلى الحرب. (بالفرنسية في الأصل).

(58) مالبورو مسافر للحرب، لا يدري متى يعود... (بالفرنسية في الأصل).

(59) خمسة قروش، خمسة قروش لإنشاء أسرتنا... (بالفرنسية في الأصل).

(60) لك ماس ولآلئ. (بالألمانية في الأصل).

(61) لك أجمل عينين، فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة! (بالألمانية في الأصل).

(62) «جزيرة كرستوفسكي»: جزيرة من أنأى جزر نهر نيفا.

(63) «الدكتور ب...»: أغلب الظن أنه الدكتور سرجي بتروفتش بوتكين (1832-1889)، وهو طبيب شهير في ذلك الأوان.

(64) دون جدوى. (بالألمانية في الأصل).

(65) «إلى صباح غد»: (بالألمانية في الاصل). وهو تعبير ألماني يستعمل بمعنى قولنا: «دعك من هذا الكلام! لا أصدقك»!.

(66) «هل تعرف أنه من فئة راسكولنيكي» كان عدد من افراد أسرته قد انتموا إلى ملة «الجوالين»: «الراسكولنيكي» (أصحاب العقيدة القديمة) هم المشاركون في حركة مناهضة الكنيسة الرسمية في روسيسا، تلك الحركة التي ظهرت في القرن السابع عشر بسبب إدخال تعديلات على الطقوس الدينية بواسطة رأس الكنيسة المسيحية الروسية البطريرك نيكون. وتعني كلمة «راسكولنيك»: المنشقّ.

(67) ملة «الجوالين»، والجوالون هم إحدى طوائف المنشقين والتي ظهرت كاحتجاج على الرق والاستعباد وانتشرت في أوساط الفلاحين وفقراء المدن والجنود الهاربين من الجندية. وكان من أهم معتقداتهم القبول الطوعي للآلام والعذاب.

(68) «ويقرأ الكتب القديمة... الكتب «الحقيقية»: أي الكتب الدينية للمنشقين أنصار العقيدة القديمة والتي كانت توضع في مواجهة الكتب الدينية للكنيسة الرسمية.

(69) «هل تستطيع المحاكم الجديدة رد الأمور إلى نصابها»: انظر الحاشية رقم 24.

(70) «وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن»: كانت عقوبة

الإعدام تتهدد الشخص الذي يهاجم الحراس أو رجال الشرطة في روسيا القيصرية.

(71) إنجيل متّى. (الإصحاح السابع).

(72) تأبيناً. (بالفرنسية في الأصل).

(73) «كما يدل على ذلك اسمه....»: كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت، وكانت هذه الأسماء تستمد أحياناً من مزايا روحية، فاسم دوبروليوبوف يعني «محب الخير»، واسم زدرافوسميسلوف يعني «السديد الرأي»، واسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل.

(74) «باراشا»: تصغير اسم براسكوفيا.

(75) أيها الصديق العزيز. (بالفرنسية في الأصل).

(76) الطبيعة والحقيقة. (بالفرنسية في الأصل).

(77) انظروا أين تختبئ الفضيلة! (بالفرنسية في الأصل).

(78) إلى اللقاء، يا عزيزي. (بالفرنسية في الأصل).

(79) كأية نظرية أخرى. (بالفرنسية في الأصل).

(80) «فوكسهول»: كانت هذه الكلمة الانجيلزية في أول الأمر اسماً لضاحية من ضواحي لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية في القرن الثامن عشر. وقد أنشئت حدائق مشابهة لها في القارة الأوروبية أطلق عليها هذا الاسم نفسه؛ ومنها حديقة في روسيا قريبة جداً من محطة بافلوفسك؛ وقد أصبحت الكلمة في نطقها الروسي الآن «فوكزال» تعني كل محطة من محطات السكة الحديدية.

(81) «فلاديمير»: العاصمة القديمة لروسيا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، وهي تقع شمال شرق موسكو. وقد أصبحت الطريق الذي تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، للوصول إلى سيبيريا؛ وهكذا فإن «طريق فلاديمير» تعني الذهاب إلى السّجن.

(82) «في الخط الثالث من فاسيليفسكي أوستروف...»: فاسيليفسكي أوستروف (جزيرة فاسيلي) تقطعها شوارع كبيرة وصغيرة. والشوارع المتعامدة على هذه الشوارع تسمى خطوطاً.

(83) «... هذا هو الإنذار! المياه تعلو...»: نظراً لكثرة وقوع الفيضانات في بطرسبرج كان السكان ينبهون على الفيضانات الخطرة بإطلاق المدافع...

(84) إن رواية ألكسندر دوما «غادة الكاميليا» (1848) والمسرحية التي تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجاً كبيراً جداً في روسيا. وأصبح اسم «كاميليا» يعني البغي الراقية.

(85) «المبنى الذي يعلوه برج»: هو ثكنة لرجال الأطفاء.

(86) «... وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل...»: كان بطل الملاحم

الإغريقية القديمة آخيل يصور وعلى رأسه خوذة يكلّلها عرف متهدل من الأمام. وقد التقى سفيدريجايلوف بأحد رجال الأطفاء الذي كان يرتدي خوذة نحاسية أثناء نوبته.

(87) «... دم يسفحه جميع الناس... ومن أجله يتوج بعضهم في «الكابيتول»: المقصود معبد الكابيتول في روما القديمة، حيث كانت تعقد جلسات مجلس الشيوخ. وقد أنعم فيه على القائد العسكري الروماني يوليوس قيصر بلقب الكاهن الأكبر والخطيب العسكري أثر عودته إلى روما بعد أن فتك بلا رحمة بقراصنة البحر.

(88) عدم. (باللاتينية في الأصل).

(89) «مذكرات ليفنجستون»: إن كتاب ليفنجستون «استكشافات في داخل أفريقيا الوسطى» قد ظهر بلندن سنة 1865. وقد ترجمه إلى الروسية وأصدره سنة 1867، نيقولاي ستراخوف صديق دوستويفسكي.

(90) «... إنني أطلق هذا اللقب... على الفتيات ذوات الشعر المقصوص...»: يتجلى هنا موقف الدوائر الرجعية في المجتمع الروسي في الستينات تجاه أنصار تعليم النساء. ولم يكن في وسع النساء آنذاك أن يعملن سوى في مهنتين فقط: قابلات أو مدرّسات. وكانت الفتيات والنساء الدارسات عادة ما يحملن تسريحات بسيطة، أو يقمن بقصّ الشّعر.

(91) لم تكن كلية الطب بمدينة بطرسبرج إحدى كليات الجامعة، كما في المدن الأخرى، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة.

(92) «السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية»: كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يقسمون إلى ثلاث فئات حسب خطورة الجريمة التي اقترفوها، وكان السجناء من الفئة الثانية يعملون في الحصون وسجون الأشغال الشاقة. وفي العادة كان المحكومون بالأشغال الشاقة يجرّدون من كافة حقوقهم وينفون إلى سيبيريا.

(93) «على ضفاف نهر إيرطيش»: إن هذا النهر الذي تقع على شاطئه مدينة أومسك، قد سبق أن ذكره دوستويفسكي في كتابه «ذكريات من منزل الأموات».

(94) «ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من قصاصتين مختلفتي الألوان»: كان المحكومون بالأشغال الشاقة تحلق لهم نصف رؤوسهم، والمحكومون من الفئة الثانية يلبسون سترة نصفها رمادي والنصف الآخر أسود. ويحملون على ظهرهم صورة آس أصفر.

(95) «وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا إلى سيبيريا لجرائم سياسية»: المقصود بهؤلاء السجناء: الثوار البولنديون الذين شاركوا في الانتفاضات البولندية في 1830 1831 و1862 1864 والتي قمعتها السلطات القيصرية الروسية بشدة.

(96) «كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون»: كان المحكومون بالأشغال الشاقة من الفلاحين والجنود وصغار أهل المدن يوسمونهم في روسيا بأحرف KAT (أي أشغال شاقة) توقع على خدودهم وجباهم، أما المحكومون بالأشغال الشاقة من النبلاء فلا يوسمون.

(97) «ماتوشكا» - اسم التدليل بـ«أم - ماما».

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دواخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر - المراهق - مذلون مهانون - الجريمة والعقاب - الأبله...

وتعتبر رواية " الجريمة والعقاب" إحدى قمم الأعمال الإنسانية، إنها ذلك اللغز المفتوح على النفس الإنسانية، وما يدور في أعماقها. والمفتوح على قضايا الوجود، والعذاب، والخير، والشرّ، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة، والمرض...

إن شخصيّة راسكولنيكوف هي محاولة لفهم تعقيدات الشخصية الإنسانية مقدماً عدداً من التفسيرات، مناقشاً الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حَدَت براسكولينكوف للتصّرف بما يخالف المنطق.

يطرح دوستويفسكي فكرة استحالة معرفة الإنسان، ويجبرنا على أن نتطلّع إلى ما يكمن في نفوسنا، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله، وكيف أن النفس الإنسانية تحمل في آن أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات..كيف أن الانسان يحمل في داخله قوة تنفيذ الجريمة ورغبة تحقيق العدالة.


ISBN 978-9953-68-462-6

